الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة وهـــران
كلية الآداب و اللغات و الفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

عنوان مذكرة الماجستير :

الإستشراق الفرنسي و التراث الشعبي في الجزائـــر

مشروع :أثر الإستشراق في الدراسات الأدبية الحديثة للأستاذ / ابن سعيد محمد

من إعداد الطالب:
شايب الدور أمحمد

تحت إشراف الدكتور
محمد بن سعيد

أعضاء لجنة المناقشة:

- د/ بن حلي عبد الله ..... رئيسا
- د/ ابن سعيد محمد .....مشرفا ومقررا
- د/التيجاني زاوي ..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية :2009-2010

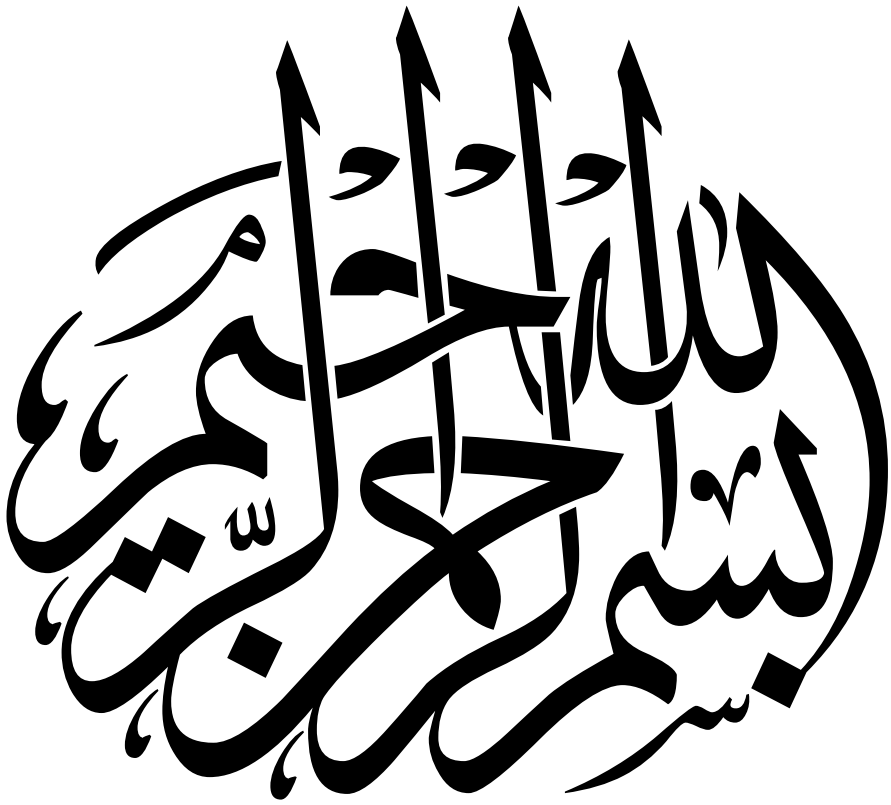
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الروح الزكية الطاهرة، روح أبي ، أمي ، أخي تغمدهم الله برحمته،
إلى أستاذي الفاضل محمد بن سعيد ،و إلى كل من علمني حرفا،
إلى زوجتي وأبنائي،
إلى كل أصدقائي ومن مد يد العون لي،
إلى كل شرقي معتز بإسلامه وعروبته،
إلى كل غربي عرف الحق وأنصف الشرق،
إلى كل هؤلاء و أولئك،
أهدي هذا العمل المتواضع.

ليس ابتكارا ولا غلوا حين أدعي أنه حيثما حل الاستعمار رافقت ركبانه غربان الشؤم منذرة بالخراب و الدمار، و استقبلته بوم التعاسة مستبشرة بالعار و البوار، فكل شبر تقطعه أسراب جيشه يروى بدماء الأبرياء ، ودموع الثكالى وآهات الضعفاء ، ولا تستنشق الأرض و السماء عندئذ إلا رائحة الأشلاء و طعم الكراهية و البغضاء ، ولا تستشعر المخلوقات جميعها إلا الجبن و التوحش و البصيرة العمياء.

بهذه العقيدة وتلك الروح حل الاستعمار الفرنسي بأرض الجزائر وفي كنانته سهام متنوعة المآرب ، وجه بعضها للجسد فغارت جراحه ،ووجه بعضها للقلب فظل عليلا، لايكاد يتعافى من سقم حتى تعاوده أسقام،لان السهام أصابت مقتله،والسر غير الخفي أنه جاء محملا بأحقاد وعقد توارثها لقرون،وظلت مؤثرة على فكره وسلوكه، وهي متمكنة في نفسه لن تزول بالتقادم، ولن يشفع لها ضعف المستضعفين من أمثال الجزائريين،وجرمهم الوحيد أنهم مسلمون.

ثم إن تلك السهام المسمومة التي ابتدعتها مختبراته صهرت بنيران جيوش الفاتحين،ونيران الحروب الصليبية والوجود العثماني بأوروبا،وبالهزيمة التي مني بها نابليون بمصر،وهذه النيران نفسها رسخت في ذهن الغرب وفرنسا خاصة ،وألهبت أحشاءها،فاسودت رؤاها ،ورسمت ملامح الإنسان الشرقي الهمجي المتدني المتخلف في نظرها،وتبنت هده الرؤى عقيدة.

على هذه الخلفية الفكرية والفلسفية والعقدية أجزم المحتل بكل أطيافه أنه باحتلال الجزائر إنما يستعيد مجد الكنيسة الضائع،ذاك المجد الذي أهدر دمه الفاتحون حين خلصوا البربر من جور الكنيسة، وحين أسلم البربر مستبشرين وأبلوا بعد ذالك في نصرة الإسلام بلاء حسنا،و لم يقتصر طموحهم عند هذا الحد بل كانوا يرغبون في التوسع إلى أفريقيا جنوبا.

وعلى نفس هذه الخلفية بكل أبعادها سارت طائفة من أهل العلم والأدب وعلى رأسهم المستشرقون الذين تشبعوا بنظرة المنظرين للاحتلال والمنفذين من ساسة وجيوش.

وكما تعدد المستشرقون تعددت الإستشراقات حسب بلدانهم، فالإستشراق الفرنسي يختلف عن الإنجليزي وكلاهما يختلف عن الأمريكي،و عن الهولندي،و عن الروسي، مع قاسم مشترك بينها جميعا وهو الموضوع، الحضارة الإسلامية بكل جوانبها، وهذا التعدد أصله طبيعة العلاقة بين بلدان الغرب والأمة الإسلامية، فكلما كان الاحتكاك أكثر، نشط الإستشراق وازدهر، وتنوع وكثر، وكلما قل الاحتكاك ركد وتقلص وكان أكثر اعتدالا.

ولعل أكثر الإستشراقات اهتماما بالعالم الإسلامي وحضارته، الإستشراق الفرنسي، لما لفرنسا من مكانة دينية وسياسية وثقافية في الغرب إذ كانت رائدة وقائدة، ولما كان لها من احتكاكات متواصلة بالشرق ودوله، خلال الحروب الصليبية وخلال الاستعمار وخلال الغزو الثقافي و خلال كل ما صنعته سياستها وحددته مصالحها.

والجزائر من أكثر دول الشرق التي ربطتها بفرنسا علاقات، فهي حاضرة ضمن جيوش الفاتحين، وحاضرة ضمن المتصدين للصليبيين في حربهم على المسلمين، وحاضرة كمستعمرة زمن الاحتلال، فالجزائر طرف في كتابات المستشرقين عموما، ولها مكانتها الخاصة المتميزة في كتابات المستشرقين إبان فترة الاحتلال،ولعل أبرز ماشد اهتمامها تراث الجزائر الشعبي.

إن تراث أي أمة من الأمم يمثل سر وجودها وسر بقائها، به تحافظ الأمة على شخصيتها، ومنه تستمد مقومات حياتها وتميزها، هذا التراث عادة يستمد عناصره من عقيدة الأمة ولغتها، والأمة الجزائرية استمدت هذا التراث من دينها الإسلامي ولغتها العربية، هاتان الركيزتان اللتان كانتا مصدر ثقافة الإنسان الجزائري ومصدر إبداعه وإلهامه، على ضوء الثقافة العربية الإسلامية بنيت معتقداته وتحددت سلوكا ته وأخلاقه وبنيت آماله ، ورسم منهاج حياته.

ولأهمية الإسلام والعربية في حياة الجزائريين، سعى المحتل بإيعاز من المستشرقين وتحت توجيهاتهم لضرب مقومات تراثه، للحيلولة دون ما يربطه بهذا التراث، وينسخ الشعب عن ماضيه، فيتيسر انقياده.

ولا أكون مبتكرا إذا قلت إن الأدب الشعبي الجزائري ما يزال مبثوثا في مضان المصادر العربية والفرنسية يحتاج إلى الكثير من الجهد لإخراجه.

لقد كان الاستعمار الفرنسي متوحشا همجيا لا شبيه له في العالم إلا الاستعمار الإنجليزي لأمريكا الشمالية وإبادة الهنود ، لذا درس كل جوانب الشعب الجزائري اجتماعيا وثقافيا وعقائديا لا من أجل البحث العلمي وإنما من أجل التدمير و القضاء النهائي على هذه الشخصية وانتقاما منه لما قام به الجزائريون في البحر الأبيض المتوسط وبسط نفوذهم على الملاحة عامة باسم الدين تارة وباسم الجزائر تارة أخرى.

وفي خضم هذه الصراعات وسد منافذ التعبير وتكميم الأفواه وطمس المعالم الحضارية والقضاء على الأدبيات الرسمية للأمة وجد الشعب الجزائري المسلم متنفسا للتعبير عن نفسه والدفاع عن مقوماته المطموسة لاسترجاع كرامته المداسة وسيلة من وسائل التعبير الشعبي بعيدا عن الرقابة.

وفي هذا المد و الجزر طور الشعب الجزائري أشكال التعبير في الأدب الشعبي وابتكر مستويات للحفاظ على مقومات منها القصة الخرافة والحكاية والأسطورة والشعر الملحون والنكت ووظف الرموز ما استطاع للانفلات من الاستعمار ،ويمثل الموضوع الذي بين أيدينا جزءا من هذه الإشكالية المعقدة.

ولقد قسمت بحثي إلى أربعة فصول ، تعرضت في الفصل الأول منه إلى ماهية الإستشراق فعرفته لغة و اصطلاحا ، و بينت أسباب ظهوره ، و غاياته و أهدافه ، وموقف العرب والمسلمين منه.

وتناولت في الفصل الثاني الإستشراق الفرنسي ، كونه الموضوع الرئيس في هذا البحث ، فكانت لي وقفة مع بدايات ظهوره ، و ارتباطه في الجزائر بالاحتلال خاصة ، دون أن أهمل المراحل التي مر بها في الجزائر.

أما الفصل الثالث فخصصته للتراث الشعبي ومقوماته ، و الأدب الشعبي و أشكاله ، ثم ختمته بموقف المستشرقين الفرنسيين من مقومات التراث الشعبي في الجزائر.

و أبرزت في الفصل الرابع اهتمام المستشرقين الفرنسيين بالقصة الشعبية في الجزائر بعد أن بينت أشكالها و أرفقت هذا بنماذج منها.

وأما الفصل الخامس و الأخير فقد خصصته للشعر الشعبي في الجزائر ومدى اهتمام المستشرقين به ، مشفوعا بنماذج منه، وأنهيت بحثي بخاتمة جمعت فيها مجموعة من النتائج التي توصلت إليها في هذه المذكرة المتواضعة.

إن هذا الموضوع جدير بالإهتمام لما له من أهمية بالغة في معرفة الوجه الآخر للإحتلال ، فمعظم الدراسات عن فترة الإحتلال الفرنسي في الجزائر كانت تاريخية ، تهتم بالدرجة الاولى بإدارة الإحتلال ، وقادته البارزين ، وجيوشه وجرائمها ، و لم تنتبه إلا نادرا للعقل المدبر ، والذراع المساعدة لهؤلاء.

على هدي هذه الأفكار صممت هذا البحث داعيا الله أن أكون مصيبا فيما سعيت اليه وماتوفيقي الا بالله،والله أسأل السداد.

ولا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف على الرسالة ولأساتذتي الكرام الذين تجشموا عناء القراءة وإسداء الملاحظات، ولا يجدونني إلا آذانا صاغية وقلما طيعا لتصوب زلاتي وتصحيح أخطائي وإن كثرت وأطلب منهم العفو والنصح.

فإن كنت قد أصبت قليلا فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي وأسأل الله التوفيق والسداد

م شايب الدور

تمهيد

لقد بنى فريق من الغرب فلسفة وجوده على فكرة مفـــادها أن الغرب والشـــرق ضـــــدان متغالبان، و قوتان متصارعتان، و أن تفوق فريق منهما على الآخر ينفي بالضرورة و حتما قوة الخصم، فلا تعايش ممكن بينهما، و لا سلام مأمـــول، و هذا ما أكده بوجين روستو مستشار الرئيس الأمريكي السابق جونسون حين قال :" يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبـــين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع محتد ما بيـــن المسيحية و الإسلام منذ القرون الوسطى، و هو مستمـــر حتى هذه اللحظة بصور مختلفـــة، و منذ قـــرن و نصـــف خضـــع الإســـلام لسيطـــرة الغرب،وخضـــع التراث الإسلامي للتراث المسيحي، إن الظروف تؤكد أن أمريكـــا إنمـــا هي جـــزء مكمل للعالم الغربـــي، فلسفته و نظامه، و عقيدته، و ذلك يجعلـــها تقـــف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته و عقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي و لا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا لموقف في الصف المعادي للإسلام "[1] . أما الشرق فعقيدتـــه و منهاج حياتـــه منبثق من تعاليـــم الدين الـــذي ارتضـــاه الله له، و المبينة في قوله تعالى : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضـــاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ "[2]. إلا أنهم لم يشهدوا و لم يشهدوا حقا بعد. و قوله عز و جل: "وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُـــوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَـــهُ مُسْـــلِمُونَ "[3]. وقوله تعالى:" قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

---

1 _ سعد الدين السيد صالح ،احذروا الأســاليب الحديثــة فــي مواجهــة الإســلام ،مكتبــة رحاب،الوكالــة الوطنيــة للنشــر والإشهار،الجزائر،د.ط،1990،ص25،56.

2 _ سورة آل عمران الآية 64

3 – ســورة العنكبوت الآية 46 .

مُسْلِمُونَ"[1]. على هدي هذه التعاليم الداعية إلى الاعتراف بالآخر و احترامه و وجوب التعايش معه على أساس الحوار البنـــاء المثمـــر رســـــم الشرق منهجه.

إن هـــذا الاختـــلاف في الرؤى، و التبايـــن في المواقف ، ولد صراعات طفت على الســـطح أحيانا، وأسفرت عن التصادم و المجابهة أحيانا أخرى.وإن التاريخ بوقائعه يؤكـــد أن أحـــداثا جساما ولدتها الاحتكاكات الدائمة المستمرة بين الطرفين " المسلمين و النصـــارى " وكـــان المسلمين في ذلك صولات، كما كان للمسحيين جولات، و لذا حرص الغرب منذ قرون بعيدة على شن حرب استباقية تنهك قوى الشـــرق و تحـــول دون بـــروزه علـــــى الساحـــــة، وتجـــرده من أســـباب التمكـــين و التمكن، و أباح هذا الغرب لنفسه كل الوسائل نبيلـــها ودنيئها، و كان من بينها حركة الاستشراق . فمـــا هو الاستشراق؟ و مـــن هم المستشرقون؟ و ما هي مراحله و وسائله، و ما هي أهدافه ؟

مفهوم الاستشراق:

الإستشراق لغة كلمة مأخوذة من الشرق، وهي كما جـــاء في لســـان العرب في مادة الشرق، «شرقت الشمـــس شروقا طلعـــت، و اسم الموضـــــع المشرق،الشرق في اللغة جهة مطلـــع الشمس، و شرقت الشمس شروقا طلعت،واسم الموضع المشرق ... و أضيف لكلمة المشرق " إست " التي تعني طلب الشيء ويهدف الاستشراق في معناه اللغوي هو طلب الشرق»[2].

وأما مصطلح الإمن المصطلحات التي لا يمكن تحديد مفهومها أوإعطاء تعريف لها، ذلك لأنـــه يطلق على حركة فكرية جمعت بين المتناقضات، وكانت مشبوهة الوسائل والغايات، حركـــة تتغير بتغير الزمان، وتتلون منسجمة متناسقة مع السياسة والسلطان، لا ثابت فيهـــا، روادهـــا مختلفون نظرة، فبعضهم قيل عنه متعصب أفاك، وبعضهم قيل عنه منصف معتدل، وبعضـــهم حسنت نواياه وخابت مقاصده، ولهذا انقسم الباحثون عرب ومستشرقون في تحديد مفهوم هذا المصطلح إلى فرق.

---

1 - ســورة البقرة الآية 136 .

2- ابن منظور،لسان العرب،دار إحياء التراث،بيروت ،لبنان ،ط1 ،1988 ،ص124

أما العرب والمسلمون فكانت رؤاهم مختلفة، لأنهم كانوا في أغلب الأحوال مادته، وجد بسببهم ولأجلهم، ومن خلالهم نما عوده وقويت شوكته، لقد كانت عقيدتنا - نحن المسلمين - وكانت ثقافتنا ولغتنا من اكبر اهتماماته وأهم انشغالاته وأولى أولوياته، وكانت الغاية من هذا ـــ في غالب الأحوال – إهانة المسلمين والحط من حضارتهم، وإظهارهم على أنهم أمة همج، لا تصلح لعلم ولا عهد لها بالمدنية.

وأمام هذا السيل الجارف المتشعب، المتناقض، الهادئ، الحاقد،المهاجم،المسالم،المهادن، المخادع، لم يجد الباحثون المسلمون من سبيل غير التصدي له، متفاعلين مع توجهاته ذاتها، فكان تعريفهم له وتحديدهم لمفهومه، منبثقا من مواقفهم المستوحاة من تشريح جوهره، وتعرية أهدافه،والتحذير من مخاطره، يقول إدوارد سعيد : " البعض يهاجم الإستشراق كمقدمة للتشديد على فضائل هذه الثقافة الأهلية – native - أو تلك، وهؤلاء هم الأهليون – nativists البعض الأخر ينتقد الإستشراق في سياق الدفاع ضد الهجمات التي تطال هذا المعتقد السياسي أو ذاك، وهؤلاء هم القوميون، ولدينا أيضا فريق ينتقد الإستشراق بسبب تزييفه لطبيعة الإسلام وهؤلاء – في الإجمال – هم الأصوليون "[1].

إن هذا الفريق من الباحثين على اختلاف توجهاته وغاياته هو الأفضل في هذا الميدان، إذ أنه يرفض الإستشراق ويجعله في خانة المتآمر على مصالحه التي تربطه بمصالح الأمة جمعاء، إنه يلتقي في تحديد المفهوم من خلال الرؤية المشتركة، من خلال إعلان العداء جهارا، إنه يشكل فريقا واحدا في النهاية، وهو أعمقهم نظرة وأشدهم تفاعلا مع الموضوع ، مزجوا في رؤاهم بين العقل والوجدان، ولا مفر من ذلك.

إن العقل والوجدان حين يتعلق الأمر بالعقيدة والهوية والوجود، يتحدان ولا ينفصلان، ويصبحان كلا لا يتجزأ، يصبح العقل وجدانا، والوجدان عقلا، كما يصبح في مثل هذه المواقف الدفاع هجوما.

---

1 - سعيد إدوارد ، تعقيبات على الإستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان، ط1/1996،ص41.

و تاريخ المسلمين مع الغرب ومنذ قرون بعيدة يشهد أنهم كانوا ولا يزالون يقارعونه دفاعا عن حقهم، وإثباتا لوجودهم، وصونا لكرامتهم ،كما يشهد هذا التاريخ أن الغرب كان في كل الأحوال مهاجما، بفكره، بثقافته، بنزعته،بعساكره،وبحبه للغلبة والسيطرة،وبظلمه واستكباره واستعلائه واحتقاره للآخر أيضا،وهو الموقف الذي أسس عليه هؤلاء عقيدتهم،وجعلوها أساسا للمواجهة والتصدي،وتحددت من خلالها النظرة للإستشراق، فكانت نظرة من خلال الذات، ومن خلال رؤية المستهدفين، لا من خلال الصانعين، لقد جمعت هذه النظرة بين المضمون والنزعة و الغاية، وهذه العناصر مجتمعة هي صلب القضية ،وهي مشتركة تعطي التوصيف الحقيقي لهذه الحركة المسماة فكرية، وهاهو إدوارد سعيد المتقاطع مع هذا الفريق حسب كثير من الباحثين وإن لم يحدد موقعه يقدم القراءة الرافضة للإستشراق المحاكمة له، الغائصة في ثناياه،العميقة النظرة، المستندة على موروث المستشرقين، الراصدة لأقوالهم، المستندة على المحصل الإستشراقي ذاته، الملمة بأهم التوصيفات التي واصف بها الإستشراق ثقافة الشرق، وحقيقة حضارته المكتوبة والمنقولة والمقروءة، ومن الاستنتاجات التي توصل إليها إدوارد سعيد وسجلها أن الإستشراق وأقطابه قد احتوتهم السياسة فخضعوا لها، وخدموا أهدافها الدنيئة، وبهذا تكون هذه الحركة سياسية أكثر منها فكرية، كما يقرر أن هذه الحركة قد ارتبطت وتهيكلت بالدوائر السياسية، وكان نتاج أعمالها استنقاصا لحضارة الشرق، يقول إدوارد سعيد: " كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصا بعلم الإنسان (الأنثروبلوجي) أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخا(فيولولوجيا) في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم به هو أو هي بفعله هو إستشراق"[1] وهكذا يكون ادوارد سعيد قد حدد مفهوم الاستشراق وجعل موضوعه الشرق دون سواه،والشرق المسلم خاصة، ورأى أن كل غربي يقوم بهذا الفعل هو مستشرق،وعن أسباب ظهوره وغايات هؤلاء وأهدافهم أردف قائلا: "الإستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه"[2].

1- سعيد إدوارد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب ط 2 مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، لبنان،1995 ص38 .

2- المرجع نفسه ، ص 36

و عن منطلقاته و خلفيته المعرفية والعقدية التي يرتكز عليها في رؤاه يعلن أن " الإستشراق قراءة الشرق بمنطق سلطوي، ويؤسس للتمييز بين نمط المعرفة الغربية، التي توصف دائما بالعقلانية،وبين الثقافة الشرقية التي بدت بكل التقديرات الإستشراقية عنوانا لنمط التفكير الأسطوري، ونموذجا لعقل لا يمتلك الربط بين البرهان، وبين المقدمات والنتائج "[1]،وأما عن جوهره وحقيقته فيقر أنه يرتكز على أسس علمية معرفية وفق منهج معلوم "هو الفرع من فروع المعرفة الذي تناول به الشرق (وبه يتناول) بطريقة منظمة من حيث هو موضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق "[2].

إن ادوارد سعيد هنا لا يعرف الإستشراق إنما يصفه، وفي هذا الوصف لا يترك استثناء، إنه لا يتناول الإستشراق كظاهرة في مفهومها العام إنما حدد مفهومها من خلال عمق الظاهرة الخاص، وحين يتناول الخاص فإنه يلجأ إلى أسلوب التعميم، إنه يحدد الجزء الأكبر الطاغي على ماهو استثناء، ولذا استعمل لفظة " كل " الدالة على العموم والنافية للاستثناء، فهل " كل " تنسحب على العرب الذين نحوا منحى المستشرقين؟ هل تنسحب على الروس واليابانيين ؟ وهل كل من سلك هذا المسلك هو غربي وإن لم يكن موطنه الغرب ؟ وهل كل مستشرق احتوته دوائر السياسة وسعى إلى السيطرة على الشرق ؟ وهل كل المستشرقين ينظرون إلى الشرق على أنه متخلف يطغى على تفكيره النمط الأسطوري؟

أما محمد البهي فيقول ساعيا إلى ضبط مفهوم الإستشراق:" إن التبشير والإستشراق كليهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية الحاضرة، والغض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية، وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة، والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية"[3].

إن محمد البهي بدوره لم يستثن أحدا، وربط التبشير بالإستشراق وجعلاهما في خدمة الاستعمار، وأوقف حركة المستشرقين على الشعوب العربية والإسلامية فقط، إنه بهذا يحدد

1-المرجع السابق ،ص34-35

2- المرجع نفسه ،ص260.

3 - محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي، دار الفكر ، بيروت ، ط6 ، 1973 ، ص 519.

المفهوم الخاص لهذه الحركة، ويبين من خلال أعماله وأهدافه لا من خلال شمولية موقفه من الشرق الأكبر، ولا من خلال اختلاف نظرات المستشرقين ومواقفهم، وقد سلك نفس هذا المسلك الشيخ محمد الغزالي إلا أنه ربط بين الجانب الديني والعلمي واعتبر هذه الحركة مجرد حركة تدليس وشعوذة لجأت إليها جماعة حاقدة : " إن الإستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد"[1].

وعرف أحمد عبد التواب الغراب الإستشراق فقال : " هو دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون – من أهل الكتاب بوجه خاص – للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة ونظما وإمكانات ... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتظليلهم وفرض التبعية للغرب ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي"[3]

وجاء في الموسوعة العالمية عن الإستشراق : " هو حقل معرفي وإبداعي ضخم، نشأ في الغرب (أوربا وأمريكا الشمالية) لدراسة الثقافات الشرقية (الأسيوية غالبا) وتمثلها في الفنون المختلفة"[2].

إن مصطلح الاستشراق و إن اختلفت الآراء في تحديد مفهومه ، هو مصطلح حديث الظهور إذا قورن بوجوده كنتيجة لتفاعل و احتكاك الشرق و الغرب لظروف تاريخية و عوامل جغرافية ، ذلك انه لم يتداول إلا في مطلع القرن التاسع عشر ، و هو ترجمة لـ:" Orientalis التي ظهرتا في بريطانيا عام 1911 ، و للمصطلح الفرنسي Orientalisme التي عرفته عام 1830 ، قبل أن يدرج رسميا في قاموس الأكاديمية الفرسية سنة 1883 "[3].

وقد أطلق على " حركة ثقافية عرفتها أوربا في القرن الثامن عشر "[4] إلا أن المتمعن و من خلال مواقف كثير من الدارسين العرب و المسلمين يدرك أن الاستشراق هو قراءة الغرب للشرق قراءات متأنية فاحصة متجددة مشبعة – غالبا – بروح الاستعلاء و النظرة الدونية للحضارة

1- محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ،دار السلام للنشر والتوزيع ، الجزائر ،ط5،دت ،ص 4

2 - الموسوعة العالمية ، مؤسسة آمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2 ،ج1، ،ص713

3 -الطيب بن إبراهيم، الإستشراق الفرنسي و تعدد مهامه خاصة في الجزائر ،دار المنابع،الجزائر،2004،ص28.

4 - المرجع السابق ،ص16

الشرقية تاريخا و ثقافة، و هذه الروح المتجذرة في نفوس الغربيين المستندة على ترسبات ولدتها أحداث التاريخ و اللقاءات المباشرة المتواصلة بين الجانبين ، هذا ظاهر الموقف، أما باطنه الخفي هو أن هذه القراءة إقرار بقوة الشرق وعبقريته،وخوف من أن ينطلق عن عقاله، و يرجع إلى ذاته ، لينطلق في بناء نفسه و استعادة مجده على ركائز من ثقافته الأصيلة، و على هذا كان لا بد أن يحرس الغرب ضعفه و يحرص على الحيلولة دون ما يصبو إليه.

إن الطبيعة البشرية ترفض أن يهتم القوي بالضعيف،و ترفض أن يكرس وقته لتتبع مسيرة حياته، القوي في عرف الناس لا يهتم إلا بمن كان مثله قوة أو يفوقه ، و هذه الطبيعة تفرض أيضا سعي الضعيف لتتبع و اقتفاء خطوات القوي ، و معرفة أسرار قوته،و هذا ما يؤكد أن الشرق قوي في نظر الغرب ، قوي بعقيدته ، بثقافته، بتاريخه، و لقد حرص مفكرو الغرب وساسته على إبقاء الصراع مستمرا بينهم و بين الشرق ، و يقرون و يؤكدون في إصرار حتميته، والصراع لا يكون أيضا إلا بين طرفين يتكافآن قوة أويتقاربان.

إن هذه الحركات الفكرية و الثقافية بعث وجودها فئة من الغربيين أطلق عليهم مصطلح "المستشرقون".

ويطلق هذا المصطلح على كل عالم أو باحث غربي لا يعتنق الإسلام دينا ويتناول الشرق عقيدة و تاريخا و ثقافة و لغة موضوعا للدراسة و التحليل، و لقد عد بعض الدارسين العرب من غير المسلمين الذين اشتركوا مع الغربيين في نظرهم إلى الإسلام و حضارته مستشرقين ، كما أطلق هذا المصطلح على الشرقيين من غير المسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع،و"جمهرة المستشرقين مستأجرون لاهانة الإسلام و تشويه محاسنه و الافتراء عليه "[1].

لقد عكف هؤلاء جميعهم على تتبع الحضارة الإسلامية و ألموا بكل مكوناتها و الحضارة المشكلة لجوهر الاستشراق : " مكان و زمان و إنسان و ثقافة "[2] ، تضاف إليها الوسائل والغايات.

ويلاحظ أن هذه الفئة هي التي دأبت بإصرار على تخصيص كل وقتها لمعرفة أمم تختلف عن أممها،و لم يكن دأبها و إصرارها عبثا، و لا جهدها بغية خدمة الإنسانية في أحايين كثيرة، إنما

---

1 – محمد الغزالي : دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين – ص 4

2 – الطيب بن ابراهيم ، الاستشراق الفرنسي و تعدد مهامه خاصة في الجزائر ،ص95

كانت مدفوعة إلى ذلك بشدة الأحقاد، و الخوف من المجهـــول، و الكراهيـــة المغروســـة في النفـــوس، و رغم ذلك كشفت عظمة تاريخ الشرق و ثقافته عن تباين في المواقف ، فـــانبرى تيار عظيم من المستشرقين يجهرون بعدائهم لهذه الحضارة و تزداد شراستهم كلما ازداد سحرها و تكشفت جواهرها، بينما انكب فريق آخر على هذه الحضارة يستجلي حقائقها بموضـــوعية أهل العلم، فسمى الأشياء مخلصا، وأقر بالحقيقة متوخيا حذر الصادقين،بل أعلن بعضهم بعـــد طول تأمل، اعتناقه لعقيدتها وتبنيه لها انتسابا.

و بين التعصب و الموضوعية بون شاسع، يترجم تناقضا غريبا، يؤكد خللا في الرؤيا جسيم قد ارتكبه المتعصبون ،كما يؤكد أن الحقيقة لم تكن تعنيهم قـــدر ما كانت تهمهم أمورا أخـــر، وبين الفريقين تقف على أثار فريق ثالث حاول أن يحدد لهذه الحضارة ما لها و ما عليها دون أن يعلن انتسابه لها.

إن حضارة الشرق كانت نتاج جهـــود أجيال عبـــر قرون، و الإنسان خطاء و الوقوف على أخطائه لا ينقص من قيمته شيئا، والنقد الموضوعي لهذه الحضارة يزيدها علوا، وعليه فإن الفريق الموضوعي من المستشرقين جدير بالتبجيل و التعظيم، و أعماله جديرة بالإشـــادة و التنويـــه، وجديرة بالدراسة والنظر، إلا أن أراجيف المتعصبين تملي أن يكون الاهتمـــام بهـــم أولى لمـــا ارتكبوه و ارتكب بسببهم من تشويه للحقائق،ومما ألحقوه بغيرهم من أذى وظلم محيق.

ومن مظاهر غيهم أنهم كانوا يدا قوية للاستعمار بكل أشكاله قديما وحديثا، بـــل كـــانوا في طلائع جيوشه، يمدونه بما يحتاج من أساليب المكر والخداع، بل أنهم يمثلون لونا مـــن ألوانـــه، وهذه الفئة لم تنظر إلى غير الشرق المسلم،و الشـــرق كما أسلفنا الذكر مكـــان و زمـــان و إنسان و حضارة.

المكـــان :

أن الشرق عند المستشرقين لا تحدده الجغرافيا إنما تحدده الهوية ، الشرق الجغرافيا هو ذاك الذي يقع شرق الأرض الممتـــد "من أطراف الصين شرقـــا إلى موريتانيا غربا ، و من العراق وتركيا شمالا إلى اندونيسيا جنوبا"[1]. و لكن هذا الشرق المكان المقابل للغرب ،لا معنى له ما لم تحـــدد

---

1 – سعيد عبد الرحمن الاعظمي و آخرون ،الاسلام والمستشرقون ، ص 125 – 126

هويته، وهويته عند المستشرقين الإسلام، و من هنا نؤكد أن ما يراد بالشرق هو الإنسان المسلم حيثما كان و أينما وجد.

لقد وجد هذا الشرق منذ ألاف السنين، و كان دائما محل اهتمـــام، وجـــد بسحره، بتنوع ثقافتـــه، بحضاراته المتعاقبة، بكونه مهبط الرسالات، انه إذن مركز العالم لأنه كـــان صـــانعا ومشاركا فعالا ،و طرفا رئيسا في كل الأحداث، و ما يشهده هذا الشرق " المسلم " اليوم خير دليل، لقد ناصب الغـــرب المسلمين العداء منذ الفتوحات الإســـلامية ، منـــذ اســـتفاق ذات زمـــان و قد كان غارقا في الظلام، على وقع حوافر الخيل ، تهز الأرض و توقظ المـــوتى مـــن قبورهم، و كم كانت دهشته عظيمة ،و كم كان وقع رجال الله الحاملين لرسالته من اثـــر في نفسه، كيف لأمة لا ذكر لها ، تصنع الحدث وتطوي الزمن، و تخرج على البشرية عزيزة قوية متماسكة، كيف لرعاة الإبل الغارقين في البداوة، الراضين بشظف العيش أن يكون منهم السادة والقادة، كيف استطاعوا أن يبلغوا مشارق الأرض و مغاربها في زمن يسير، لم تثنهم قوة الفرس و لا غطرسة الروم، إن في الأمر لسر و الســـر بارز غير خفي، انه الدين الجديد الذي بشر به محمد صلى الله عليه و سلم الإنسانية، إنها امة محمد صلى الله عليه و سلم، الأمة التي انتصـــرت بالحق للحق، و نصرت اليقين باليقين، لا باغية و لا طاغية، راياتها خفاقـــة، قلوبهـــا شـــفاقة، سيوفها براقة، رجالها للشهادة مشتاقة عشاقه، شعارها " و ما أرسلناك إلا رحمـــة للعـــالمين " وشهد على ذلك شاهد من أهلها ، يقول المؤرخ فيشر:"إن الدين قد أمد امة العرب بقوة ذاتية أكسبتها الحياة و الدوم، و لولا هذه القوة التي نشأت عن الرابطة الدينية الجامعة، لافتقر العرب إلى التكتل الذي لا تحدث الانتصارات بدونه، و لولا ما سرى بين العرب من روحية متســـامية عن مجرد الشهوة للحرب و الغنيمة، لما استطاعوا أن يظفروا برضا الشاميين و المصريين والفرس و البربر عن حكمهم، ثم انه لا شك أن قسطا غير قليل من نجاح العرب في فتوحهم و حروبهم يرجع إلى ظهور دين جديد في قلب بلادهم"[1] ولا بد من عمل، فـــكان أن تحالف الإخـــــوة الأعداء ،رجال الدين و السياسة ، لان الخطر في نظرهم يداهم الجميع.

---

1 – سعد الدين السيد صالح، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام،الوكالة الوطنية للنشر و الاشهار ،الجزائر،ط1990 ،ص25 –26

الزمـــان :

إن الزمان الذي عني به المستشرقون ممتد إلى ما وصلت إليه تخميناتهم ، إلى العرب قبل الإسلام، إلى تاريخ وجودهم، و ليستمر إلى اليوم و إلى المستقبل و لا شك، لقد أوغلوا في الزمان قديمه لا بغية سبر أغواره ومعرفة حقائقه، إنما تفتيشا عن فكرة هنا أو عثرة هناك ، أوحدث عابر، أو نسب مغموز، ليتمكنوا من تأكيد افتراءاتهم ، إنهم لم يهتموا مثلا بالأدب الجاهلي ورواده إلا للتشكيك في وجوده أحيانا، و نفي فصاحته و بلاغته أحيانا أخر،ليصلوا في النهاية إلى أن القرآن لم يكن معجزا كما يدعي المسلمون،إنما هو من وضع الرسول صلى الله عليه و سلم ، اقتبس تعاليمه من الكتب السماوية التي سبقت بعثته، و إن اعترفوا بفصاحة العرب قبل الإسلام، رأوا النبي صلى الله عليه و سلم بأنه شاعر تقوّله، ثم كان تركيزهم على فترة البعثة المحمدية، فلم يتركوا شاردة و لا واردة إلا أحصوها،وفسروها الوجهة التي يرتضون لا يراعون في ذلك أمانة و لا علما، و ها هو غولد زيهر يقول : "فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف و أراء دينية، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية و غيرها التي تأثر بها تأثرا عميقا، و التي رآها جديرة بان توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه..." [1]

إن أول قضية شغلت بالهم كما أسلفت هو القرآن الكريم، دستور المسلمين، ومصدر تشريعهم الأول، بأنواره اهتدوا، وتحت ظلاله ساروا أعزاء متسامين لا يصدهم متاع الدنيا، ولا تردد المتخاذلين، ولا كيد الأعداء المتربصين، والقرآن الكريم علوم وقراءات وتاريخ ولغة وبيان، وكان على المستشرقين بمختلف أطيافهم وأجناسهم أن يلموا بكل هذه الجوانب، ثم جاء دور السنة النبوية المطهرة، المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فشككوا في صحتها، واعتبر المستشرق قولد زيهر الذي اهتم كثيرا بالسنة النبوية الحديث النبوي مجرد أثر من أثار المسلمين، ظهر نتيجة تطور المسلمين في القرون الهجرية الأولى، كما تناولوا سيرة الرسول صلى الله عليه سلم، و لم يقفوا عند هذا الحد، بل ألموا بكل ما يتعلق بالإنسان المسلم،نفسيته وحياته الاجتماعية، وثقافته، فشوهوا ما يستطيعون تشويهه،ووجهوا ما

---

1 – محمد الغزالي ، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المسرفين ، ص16

يستطيعون توجيهه لأغراضهم المعلنـــة والخفيـــة،وأنكروا على الأمة كـــل فضل متجـــاهلين الحقائـــق التي لا ينكرها عقل، متجنبين الخوض فيها، وغطت هذه الدراسات زمن المســـلمين كله،ومن أهم مجـــالات بحوثهـــم :

1- الفقـــه الإسلامـــــي
2- تاريخ العرب والمسلمين
3- الفنـــون الإسلاميـــــة
4- الفلسفـــة الإسلامية
5- اللغـــة العربيـــــة
6- الأدب العربـــــي

وخاتمـــة القـــول : إن الزمان والمكان عند المستشرقين نظري، لا يوجد إلا في مخيلتهم ، وتمتد امتداد زمن الإسلام وأهله ومكانهما ، ومن ثم كل ماله صلة بهما ، فالزمان والمكـــان إنســـان حضارة ، وما قيل عنهما يقال عما يرتبط بهما .

أسباب ظهور الإستشراق وعوامل تطوره :

لقد تعددت أسباب ظهور الإستشراق وتطوره عبـــر مراحله التاريخية، وكانت أحيانـــا كثيرة تمتزج الوسيلة بالغاية ، فكان بعضها ذاتـــيا وبعضها سياسيا وبعضها اقتصاديا والبعض الأخـــر علميا، ومن أهمها الدفاع عن النفس:

وكان للغرب أن يدافـــع عن نفسه، عن أوطانه ودينه وثقافته ولغتـــه ووجوده حـــين وجـــد المسلمين على عتبة أبوابه، كما كان من حقـــه أن يفكر في سرَ هذه العقلية النوعية التي طبعت حياة العرب الفاتحين بعد أن كانوا خارج أسوار التاريخ ، كما كان من حقه أن يستفيد مـــن تجاربهم وعلومهم لكن كان عليهم أن يفعلوا ذلك بأنبـــل الوسائل وأكرمهـــا، لأن المســـلمين كانت وسائلهم نبيلة.

إن اللحظة التي ولد فيها الإستشراق هـــي نفسهـــا اللحظة الـــتي فكـــــر فيهـــا الغـــــرب الـــدفاع عن نفســـه،وحمايـــة أراضيـــه من كل دخيل.

لقد كانت البداية مع هزيمة "عبد الرحمان الغافقي" على يد "شارل مارتل" في موقعة بواتيه وهي المعركة المعروفة بـــ "بلاط الشهداء " سنة 110هـــ /737 م وكانت هزيمة المسلمين في هذه المعركة وانتصار الغرب بزعامة فرنسا من المراحل الحاسمة في تاريخ المسلمين ، حيث توقفـــت الفتوحات الإسلامية .

يقول المؤرخ هنري دي شامبون: " لولا انتصار شارل مارتل الهمجي على تقـــدم العـــرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولنجت إسبانيا من محاكم التفتيش ، ولمـــا تأخر سير المدنية ثمانية قرون "[1].

ويقول العلامة لافيس: " كم من الأحزان والآلام والجنايات كان يمكن إنقاذ البشرية منها لو لم يوقف شارل العرب عن السير في فتوحاتهم"[2]، كما مكنت هذه المعركة الغرب من التصالح بين الساسة ورجال الدين ليصبحوا يدا واحدة في مواجهة الإسلام.

لقد كان الإسلام في نظر أولئك عدوا لدود يجب إيقاف زحفه ،يقول صاحب كتاب البحث عن الدين الحقيقي: " لقد برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذي أسس على

---

1 – أنور الجندي ، الفكر الإسلامي مقدمات العلوم والمناهج طبعة القاهرة ط1 ،1972 ، ص 292

2 – عمر فروج ومصطفى خالدي ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ،المكتبة العصرية،صيدا ،بيروت،لبنان،1973،ص73

القوة وقام على أشد أنواع التعصب،لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق تسمح لأتباعه بالفجور والسلب... ولكن انظر هاهي النصرانية تضع سيف شارل مارتل سدا في وجه سير الإسلام عند بواتيه سنة 732"[1].

وهكذا أصبح شارل مارتل قديسا مباركا وبطلا مقداما ومثلا يحتذى، وأصبح في نظر الباباوات منقذا للدين ، وفي نظر الساسة زعيما قوميا .

أجل لقد دافع شارل مارتل عن فرنسا وأوربا عامة وانتصر ووقف سدا،ولكن ليس في وجه الشر كما يدعون ، إن السيف الـــذي وضعه محمد صلى الله عليه وسلم لـــم يكن سيفـــا جائرا ، ولو كان كذلك ما كان له أن يبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، لقد أسس شارل مارتل بهذا الانتصار لفكرة الانتقام من المسلمين وكان من ثمارها محاكم التفتيـــش بالأندلس،حيث حول الدفاع عن النفس الذي تبناه ومن والاه من رجال الدين لفكرة المواجهة مع الإسلام وأهله وتتطور الفكرة لتلد مولودا جديدا سمي الإستشراق.

إن الغرب أناني بطبعه محب للتسلـــــط ، تطغى عليـــه عقـــدة التفـــوق، يرى الكثير مـــن ساسته ومنظريه أنـــه سيـــــــد البشرية ، وهذه النظرة العنصرية جعلتهم يحتقرون غيرهم، ولولا حفنة من القيم تحكمهم،وتقف في وجه هذه النفسية المتغطرسة لا تخذوا البشـــرية ممـــن سواهم عبيدا ، وهذه النظرة تجلت في كتاباتهم الإستشراقية حين دار حديثهم عـــن الإســـلام والمسلمين خاصة ، وخير دليل على ذلك تلك الشعارات التي رفعها ساستهم وفلاسفتهم لتبرر أعمالهم التي لا تبررها إلا الأنانية و العصبية والصليبية،ويمثل هذه الفلسفة المجسدة لأسمى معـــاني حب الذات بإفراط والرغبة الجامحة في العيش على آلام الآخرين، ظهر الإستشراق ونما وقويت شوكته ، فكان ترجمة لنفس مهزوزة مريضة ، لا تطمئن ولا تقر لها عين إذا نامت ظالمة،وقـــد غذى هذه الروح المتسلطة التعصب الديني.

إن التعصب صفة محببة حين تكون للحق واليقيـــن، وحين يقتنع العقل بعد طول تأمل وتفكير، والباطل بعينـــه هو أن يتعصب المرء لغير الحق مصرا وهـــو يعلم ذلك.

وهاهم المشركون المتجبرون الأشداء، ينكرون على الرسول صلى الله عليـــه وســـلم نبوءتـــه ودعوته، ويتعصبون لكفرهم ووثنيتهم مكابرين ردحا من الزمن، إلا أنهم ما لبثوا أمـــام الحجة

---

1 - المرجع نفسه،ص92

القوية، والبيان العظيم ،أن اعترفوا بخطيئتهم واعتنقوا الإسلام زرافات ووحدانا وأبلوا بعد أسلامهم بلاء حسنا ، والغرب الذي يدعي السيادة للعقل ويجعله يعلو ولا يعلى عليه،ينكر على المسلمين دينهم جحودا لا اقتناعا ، ويتعصب لدينه رغم يقينه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول إلى البشرية من رب العالمين ورغم حجة الإسلام الصادحة بالحق.

إن التعصب للمسيحية واليهودية كان من العوامل الرئيسة لظهور الإستشراق ، بل أنه من أقواها وأشدها أثرا على هذه الحركة ، ولولا هذا الأثر ما كان لها أن تكون بهذا الحقد وهذه الشراسة ،" وهكذا نرى أن فكرة التعصب والتحامل والتزوير ... لم تختلف لدى رجال الدين المتعصبين ولا عند المستشرقين المحدثين"[1].

والمتتبعون من الدارسين لمسيرة الإستشراق يرجحون ميلاده كحرة فكرية وثقافية لها معالمها المميزة في القرن الثامن للميلاد ، وفي هذا القرن " أخذ ينمو ويترعرع في كنف الكنيسة التي كانت ترعاه وتوجهه وتستغله بكل وسائلها وإمكاناتها ، وقد اتسمت هذه العصور كلها بتعصبها الأعمى ضد الإسلام ورسوله ".[2]

ورغم هذه الأسباب وتلك فهناك عامل وجيه نهض لأجله الإستشراق وهو طلب العلم والمعرفة.

العلم والمعرفة ملك مشاع بين بني البشر ، والحكمة ضالة الإنسان أخذها حيث وجدها ، وما الحضارة الإنسانية إلا نتاج تلاقح معارف الأمم وانجازاتها، ولا تستطيع أمة أن تحتكر المدنية وأسبابها إلا ما يميز شخصيتها، وقد كان الشرق أرضا خصبة نمت على أرضه وتعاقبت حضارات راقية، لعل آخرها تميزا حضارة الإسلام التي حطت برحالها بأرض الغرب ذاتها ، وكان من حق هذا الغرب المبهور عقله،الشارد وجدانه ، أن يستفيد من هذه الحضارة ، لقد كانت بضاعتها عقيدة وعلما وتشريعا وأدبا وأخلاقا ، إنها السمو الإنساني في أسمى معانيه ، ولقد تلمس الغرب مع هذه الحضارة النور بعد قرون من الظلام عاشها ، فراح يتعلم لغة الشرق عامة ثم تخصص في اللغة العربية ،و ركب طلابه المطايا طالبين عواصم الإسلام خاصة الأندلس رغبة في التعلم .

1- سياطة سامي الحاج، الظاهرة الإستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية ،طرابلس، الجامعة المفتوحة ،ج3، 1997، ص 12

2 - أحمد اسماعيلوفيتش ، فلسفة الإستشراق ، ص71

ذلك أن إقبالـــه على اللغات الشرقية في بادئ الأمر كان لإغراض دينية وعسكريـــة قبـــل أن يتحول بعد ذلك إلى أغراض علمية " وقـــد استفادت أوربا من هذه البعثات العلمية فائـــدة لا تقدر ، حيث أصبح أفرادها بعد عودتهم من الأندلس شعلة علمية تضيء غياب أوطـــانها ومجاهل أراضيها "[1].

وفي كل الأحوال نجد أن الإستشراق بغض النظر عن مواقفه من الشرق عقيدة و علما وأدبا ، قد قدم للبشرية خدمة جليلة كان نتاجها ازدهار العلم والفلسفة في الغرب وانعكس هذا بـــلا شك على البشرية جمعاء ، و لم تكن إسهامات الحضارة الإسلامية خافية ، إنما كانت الأســـاس والركيزة وبدونها ما كان للغرب أن ينطلق ، يقول أحد الفرنسيين " إن ما يدين هذا العلم إلى الثقافة العربيـــة بأكثر من هذا أنه يديـــن لها بوجـــود ه نفسه .... إن ما ندعـــــوه العلـــم الحديث ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطـــرق من الاستقصـــاء مســـتحدثة لمنهـــج التجريب والملاحظة والقيـــاس وتطور العلوم والرياضـــيات إلى صـــورة لم يعرفهـــا اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربي"[2].

وما كان للغرب أن يستفيد من علوم العرب لولا نعمة الجغرافيا.

كثيـــرا ما لعبت الجغرافيـــا دورا هامـــاوفعالا فـــي تحديـــد مســـار تاريخ العلاقـــات بين الشعـــوب والأمم ، فكلما كانت هـــذه الأخيرة متصلة متقاربة جغرافـــيا كانـــت الاحتكاكات أقوى وأشد ، وأمتنـــا لصيقـــة بالغرب بل امتـــدت خلالـــه وعـــلى جغرافيتـــه رقعـــتها أيـــــام عـــزها ، وكانت العلاقة بينها بين مد وجزر، تعايش وحب أحيـــانا، واقتتال وأحقاد حينا أخر.

ولعـــل الاقتتال والأحقاد كانت السمة المميـــزة، إلا أنه ما يلاحظ أن أمتـــنا كانت معتدى عليها دائما. وكانت في موقع دفاع عن الذات منذ وجـــودها.

إن هذا الصراع المستمر دفع الغرب وحفزه على أن يحتاط لذاته والحيطة تتطلب معرفة الخصم، والسبيل إلى ذلك ونتاجه الإستشراق، والإستشراق بكل مراحله كان بسبب تفاعـــل الشـــرق والغرب حربا وسلما، فالمرحلة الأولى له كانت بفعل الفتوحات الإسلامية التي دفعت الغـــرب

---

1 - المرجع السابق ص52

2 - سعيد عبدالفتاح عاشور ، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ، النهضة المصرية ،مصر ، 1963 ، ص127

إلى محاولة معرفة المسلمين ،والمرحلة الثانية كانت تمهيدا للحروب الصليبية ثم عاملا مهما فاعلا فيها ، والمرحلة الثالثة كانت مواكبة لموجة الاستعمار الغربي للشرق المسلم ، ولقد أتسم الإستشراق في كل مراحله هذه بـ " الكره الغريزي للشرق والعرب والإسلام.

أهداف الاستشراف ووسائله

إن للإستشراق أهدافا كثيرة سعى جاهدا لتحقيقها وإن اختلفت مشاربهم وتنوعت غاياتهم ووسائلهم ،وغالبا ما تمتزج الوسيلة بالغاية يتقدمها الحرص على إضعاف المسلمين، ويترجم هذا الحرص اهتمام المستشرقين بتراث العرب والمسلمين وتاريخهم وثقافتهم تمهيدا لاستعمارهم.

لقد ركب المستشرقون الصعاب، واستبسلوا خاصة حين احتضنهم رجال الدين، واحتضنتهم السياسة في تحقيق أهدافهم ومنها:

1- تحصين الذات وحماية المقدسات :

إن المد السريع للإسلام شرق الأرض وغربها، جعل الكنيسة في موقف حرج، فهي تتراجع جغرافيا وتتقوقع على نفسها، والفتوحات وأخبارها تقرع الأذان، والمسلمون من نصر إلى نصر مستبشرون.

نظرت البابوية إلى هذا الحدث في فزع، وتراءت لها الأخطار المحدقة بها، وكان لابد من عمل يعيد الأمل، فدفعت رهبانها وقساوستها إلى دراسة اللغة العربية، والإطلاع على ثقافة المسلمين، لمعرفة الأسرار، عل في ذلك نجاة.

كان هدف الكنيسة في المرحلة الأولى تحصين الذات وحماية المقدسات ولا يكون ذلك إلا بتطويق الإسلام حتى لا يستمر مده، وهكذا يمكن "حماية المسحيين من خطر يحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من الاستسلام لهذا الدين "[1].

إن حماية المقدسات في نظرهم لا يكون إلا بالمكر والخديعة وتشويه الحقائق، وهكذا يصبح تشويه الإسلام وحقائقه هدفا آخر من أهدافهم، ومنع المسحيين من الاطلاع على تعاليمه هدفا ووسيلة، وقد أدرجت " الكنيسة الكاثوليكية القرآن الكريم في قائمة الكتب المحرمة على المسيحيين "[2]

1- محمد حمدي زفزوق ، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المعارف القاهرة ، ص75

2 -أنظر ، المرجع السابق ،ص 25/24

2- الحرص على إضعاف المسلمين :

ما إن تخطي الغرب بقيادة البابوية مرحلتهم الأولى، و اطمئنانهم بعد توقف الزحف الإسلامي، حتى شرعوا في المرحلة الثانية، وكان شعارهم زعزعة الإسلام في نفوس المسلمين ثم القضاء عليه، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالتشكيك في مصدره، القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإذا تمكنوا من ذلك ضعف المسلمون، وتشتتوا فرقا وطوائف متناحرين.

إن إضعاف المسلمين كان هدفا أسمى للمستشرقين ومازال إلى يومنا، ولا يتحقق هذا الهدف إلا إذا تحققت جملة من الأهداف الأخرى ومنها:

1- تشويه حقيقة الدين الإسلامي .
2- قتل اللغة العربية .
3- القضاء على الخلافة الإسلامية.
4- تمزيق وحدة المسلمين.
5- زرع دعاة التغريب بين صفوف المسلمين.
6- إثارة النعرات القومية والعرقية والمذهبية.
7- السعي لإبعاد الإسلام عن مجالات الحياة .
8- الترويج للثقافة الغربية بين المسلمين .
9- تشجيع المبدعين والمفكرين الرافضين للإسلام وتلميع صورتهم.
10- القضاء على الحركات الإسلامية .
11- تكوين وتمويل الفرق الهدامة .
12- التدخل في مناهج التعليم في البلدان الإسلامية .
13- إضعاف اقتصاد المسلمين.

3- تنصير المسلمين:

التنصير أو التبشير هو دعوة المسلمين إلى النصرانية وإبعادهم عن الإسلام، وقد جند المبشرون لهذا الغرض كل الوسائل، ثم تحول هذا الهدف مع الزمن إلى إخراج المسلمين من دينهم وإبعادهم عنه بإشغالهم عن تعاليمه، ويعود تاريخ التنصير إلى فشل الحروب

الصليبية، وخيبة الصلبين في السيطرة على البلاد الإسلامية " إن ريمون لول" الإسباني هـــو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها، فتعلم أولا اللغة العربيـــة بكل مشقة وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة "[1].

ثم ارتبطت هذه الحركة المشبوهة ارتباطا وثيقا بالاستعمار قديمه وحديثه فهـــم طلائعـــه، مهدوا له الطريق، وأمدوه بما يحتاج في سبيل السيطرة على البلاد الإسلامية، بأيسر السبل، وأقل الخسائر.

صحيح أن المبشرين كانوا في أغلب الأحوال من رجال الدين، وصحيح أن الإستشـــراق يطرق كل أ بواب العلم ومجالات الفكر والثقافة، ولكن البصيريدرك ذاك الارتباط الوثيق بينهما، وذاك التكامل، فكلاهما اطلع على لغة الشرق و عقيدته، وكلاهما يسعى جادا لهدم هذه العقيدة، بل أن كثيرا من المبشرين هم مستشرقون، ولذا يمكن أن ندرك تلك العلاقة القوية بين التنصير و الإستشراق و يمكن القول أن كل مبشر مستشرق وأن كل مستشرق مبشر، اللهم إلا استثناءات من المستشرقين وسمت دراساتهم بالموضوعية و لم يبتعدوا علـــى الحقيقة ، كما يمكن القول إن الوسائل والأهداف كانت واحدة ,أما الأهداف فهي إبعاد المسلمين عن دينهم وذلك بـــ:

1- تشويه الإسلام وزعزعته في النفوس .
2- محاولة وقف انتشار الإسلام .
3- تقديم الإسلام للغرب على انه دين تخلف .
4- تشتيت المسلمين وتمزيق صفوفهم .
5- إضعاف المسلمين والسيطرة على مواردهم الاقتصادية.

أما أسالبيه ووسائله فمتعددة ونذكر منها :

1- عقد المؤتمرات والندوات وإنشاء الجامعات.
2- استغلال المساعدات الإنسانية المقدمة للشعوب المستضـــعفة مـــن مستشـــفيات وهيئات إغاثة .

---

1 -آل شاتليه ، الغرة على العالم الإسلامي ،نقلها للعربية محي الدين الخطيب والمساعد الباقي، ديوان المطبوعات ، الجزائر، ط4، 1985،ص27

3- الاهتمام بقضايا المرأة ودعوتها إلى التحرر .

4- الاستعمار العسكري والثقافي للأمة .

4- خدمة الاستعمار بكل أشكاله:

بعد أن انهزمت قوى الشر المتسترة تحت لواء الصليب وتبدد جيشها أثناء الحروب الصليبية ,عادت هذه القوى مرة أخرى بعد تشرذم المسلمين وتفرقهم شيعا، لتحتل الأرض، وتستعبد صاحبها، وتذيقه من العذاب ألوانا، عادت بجيوش تحمل الحديد والنار، وجيوش تحمل القلم والكتاب لتدمر الأفكار، وتزرع الجهل ، وهذه الجيوش ظاهرها الرحمة ، وباطنها الخراب والدمار.

ولقد كانت جيوش المستشرقين سباقة، بفضلها وعلى هديها وضعت الخطط، وتحت توجيهاتها قطعت المراحل.

- يعتبر الإستشراق المرحلة الأولى التي تسبق الاستعمار بكل أنواعه و يسعى جاهدا لإضعاف الأمم الأخرى قبل احتلال البلاد .كما تعتبر أفواج المستشرقين طلائع الاستكشاف لتذليل الصعاب أمام جيش الاحتلال ،ولهذا تعددت وظائف المستشرقين لخدمة الاستعمار .

- لقد كان المستشرقون جواسيس وعساكر المستعمرين تعلموا لغات الشرق، وأطلعوا على ثقافته ونفسيته،وآدابه، ثم قدموها نسخة مشوهة لشعوبهم، واستمالوها لتكون مع قادتها وعساكرها صفا واحدا، لقد ادعوا كذبا وبهتانا أن الاستعمار إنما هو المدنية والحضارة في وجه الهمجية والضلال، سترا لسوءاتهم، وتبريرا لجرائمهم" إنه ولا ريب أن فريقا من الأوروبيين لا ينظر بعين الجد إلى إشهار حرب دينية على المسلمين، ولكنه يرغب في إتحافنا بمدنيته، بصفة كونه وصيا علينا أومنتدبا لنا، وفي الوقت نفسه يبتز أموالنا بلباقة "[1].

لاشك أن هذا الفريق هو فريق المستشرقين المتخندقين خلف الاستعمار، هذا الفريق لا يؤمن بدين، ولا يؤمن بصراع تغذيه العقيدة، إنما يؤمن بأموال الشرق

---

1 - محمد إبراهيم الفيومي ، الإستشراق رسالة استعمار دار الفكر العربي ، مصر ، ط 1973 ، ص77

وثرواته بحجة مدنيته وتخلف هذا الشرق، وحتى أولائك الذين يشهرون بحرب دينية على المسلمين، يعلمون أن الأديان بريئة من هذه الحرب ؟

5-خدمة مشروع الصهيونية[1]:

كانت البداية مع الحروب الصليبية التي خابت فيها آمال الغرب في احتلال بيت المقدس، وكانت الكرة الثانية مع الحرب العالمية الأولى، وكانت الهجمة الأخيرة المستمرة أحداثها مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد كان الصراع في المرحلة الأولى والثانية بين المسحية الغربية والمسلمين أما المرحلة الأخير فالصراع مستمر بين الصهيونية تساندها قوى الغرب المستكبرة ، وبين الشرق المستعين المستضعف المؤمن بقضيته ،" وليس ثمة شك في أن الإستشراق قد شارك بطريقة أو بأخرى في هذا الصراع المرير حول الأرض المقدسة"[2]

أجل لقد كان المستشرقون في طليعة المهتمين بالأرض المقدسة ، أرض الميعاد كما يدعون ، بل تهافت القوم جميعهم على تاريخ المنطقة وثقافتها، فلم يتخلف من حملة القلم والسيف أحد، تهافت رجال الدين والفنانون والصحفيون والدارسون والزائرون لمهبط الرسالات،والمهتمون بالديانات، وكان تهافتهم ومسعاهم دراسة كل ما يتعلق بهذه المنطقة.

---

1 - الصهيونية : هي حركة عنصرية دينية ارتبطت في نشأتها وواقعها مصيرها بالامبريالية العالمية ، وظهرت كتنظيم سياسي في 1897 عندما انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال (بازل) سويسرا برئاسة تيودور هرتزل الذي أعلن عن قيام المنظمة الصهيونية العالمية التي أخذت تطالب بجمع شمل اليهود(يهود الشتات) واتخاذ من فلسطين قوميا لهم عن طريق الهجرة و الغزو والقمع، ويرتبط اسمها باسم جبل "صهيون" بضاحية القدس، وقد اعتبرتها الجمعية الأممية حركة عنصرية في 1975 لكن الولايات المتحدة أعادت لها الاعتبار وبرأتها سنة 1991.

أنظر: http://www.bakerabubaker.info

2 - أحمد سمايلوفتش، فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر،دار الفكر العربي، مصر،ط1973،3،ص 141

وبهذا النتـــاج الفكري و والأدبي المزعوم ،وبالتنسيـــق مـــــع عســـكر الغـــــرب وجواسيسه، كان للصهيونية موطن، وبفضل هؤلاء جميعهم مازالت جاثمة على صدر الشرق.

إن المأساة التي يعيشها بيت المقدس، ساهم في حبك خيوطها المستشـــرقون الـــذين لا يمكن تبرئة ساحتهم، لأن " موقف الإستشراق كان أشد خطرا ...لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يرى الرؤية الموضوعية الواضحة، ويبرز الحقيقة التي لا يشـــوبها الشـــك ولكنه لم يفعل ذلك بل تآمر مع الاستعمار والصهيونية في طمس الحقيقة واشـــترك في هذه الجريمة التاريخية"[1].

أجل لقد كان موقف الإسشراق أشد خطرا ، لأنه نظر إلى الآخرين من سوى جلدته بمنظار المستكبرين.

---

1 - نفس المرجع ص 150/149

مواقف العرب والمسلمين من الإستشراق

مثلما اختلف المستشرقون في مواقفهم من الحضارة العربية الإسلامية بكل مكوناتها وأسلوب حياة صناعها وأهلها، اختلف علماء العرب والمسلمين من الدراسات الإستشراقية، وانقسموا فرقا، وتباينت مواقفهم لاعتبارات دينية وقومية وعلمية، وقدم كل فريق حججه وبراهينه، ومن مختلف المواقف يمكن أن نلتمس أن الإستشراق كان نعمة على الأمة ونقمة، كان نعمة حين شحذ الهمم، ودفع بطائفة من رجال العلم والأدب لخوض غمار الصراع الفكري والأدبي وإثراء الساحة، وتصويب المعوج، والغوص في أعماق تراثنا بكل ماله وما عليه،فتفتقت الأفكار، وأخرجت سيوف المناهج العلمية من أغمادها، وألهم رجالات الأمة، فتفطنت لحالها، وبحثت عن عيوبها، وأكتشف مكائد أعدائها، وكان نقمة، حين مس المقدسات، وتجاوز حدود اللياقة والأدب، وبدا عاريا من كل أخلاقيات العلم، ومناهج البحث، حين كشف عن نواياه الخبيثة، فخدم الاستعمار، واحتقر الشعوب وأهان وشتم، هذا فريق المتعصبين الحاقدين، أما المعتدلين من المستشرقين فلهم كل الفضل في تقديم حضارتنا إلى البشرية، والدعوة إلى الاهتمام بها، واعتبارها رائدة، عليها بنى الغرب حضارته، وبجهود رجالها استنارت البشرية.

ومهما كان الأمر يمكن تقسيم مواقف العرب والمسلمين إلى ثلاثة مواقف شكلوا ثلاثة أصناف هم دعاته ورافضوه والمعتدلون.

أما دعاته فهم طائفة من علماء العرب والمسلمين وأدبائهم، تعلموا بالغرب أوتأثروا بأفكاره لعوامل تاريخية مرت بها أمتنا، وكان لهم مواقفهم المتناهية والمنسجمة مع مواقف المستشرقين، من الإسلام وحضارته، هذا فريق، أما الفريق الأخر فيمثل أولئك المنبهرين بالغرب الداعين إلى الإقتداء به واتخاذه نموذجا أمثل في الحياة وبناء الدول، وأما الفريق الثالث فيرى إن المستشرقين رجال علم، خدموا تراثنا وقدموا لأمتنا مالا يستطيع أن يقدمه أبناؤها، وهذه حجة الفرق جميعها، بالحق والباطل، وهي حجة أولئك الذين دعوا إلى تبني أفكار المستشرقين، غثها وسمينها، مقابل متاع من الدنيا قليل، شهرة زائفة، أو منصب بين الكراسي حقير.

إن خلاصة ما يستندون إليه في دعوتهم إلى أفكار المستشرقين هو " لو وازنا بين عناية المستشرقين بتراثنا واكتشافه وتحقيقه وما قمنا نحن به في سبيله لرأيناها تكاد تكون متساوية، ... ولو سعينا إلى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى اللغات، منذ ألف عام، وفي كل مكان ن لاحتجنا إلى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم وجلدهم طوال حياتهم "[1].

إن ما يدعو للعجب في هذا الموقف هو تركيز هؤلاء على جانب مما قدمه المستشرقون يسير، والأجدر أن ينظر إلى هذه الحركة بشموليتها فيبين مالها وما عليها، ثم لابد هنا من سؤال بريء، من الذي جعل الأمة الإسلامية تتخلف هذه القرون عن الاهتمام بتراثها ؟ وهل يمكن لأمة انتشلت البشرية من غياهب الجهل وقدمت هذا التراث العظيم في مختلف العلوم والآداب أن تعجز عن إنجاب من يتولى المحافظة على هذا الميراث ويطوره ؟

لاشك أن تاريخ الأمم والشعوب لا يجزؤ، وإذا كانت أمتنا تتحمل القسط الأوفر من تقهقرها وضعفها قرونا، فإن الغرب يحمل قسطا وافرا في ذلك.

وأما الرافضون من الوطنيين و القوميين و الإسلاميين فيبررون موقفهم قائلين :" إن الإنتاج الإستشراقي كان شرا على المجتمع الإسلامي لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة الحرمان سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفنيد والإقلال من شأننا ..."[2] وتعددت آراء العرب والمسلمين معا بتعدد مواقف المستشرقين و أفكارهم ، وتساءل بعضنا بقوله "ماذا يفيدنا أن نتبع الإستشراق أو نراجع كتبه، ونناقش ما فيه ونفندها، ونقذف ما نراه غير صحيح مما تضمنه من آراء وتعصب فيما لا طائل منه ؟ ....إنهم بالتأكيد لن يصلوا إلى حقيقة ذات قيمة تتصل بها، وبالتالي فلا ضرر علينا إن أغضينا طرفنا عما يعملون "[3].

---

1 - نجيب العقيقي، المستشرقون ط4 / ح3 ص 205- 206 دار المعرف بيروت .

2- مالك بن نبي، الإستشراق وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، دار الإرشاد ،لبنان ،1969 ص 25

3 - عبد النبي أصطيف ،مقدمات في الاستغراب الجديد ، نحن والإستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق ، مجمع 57 سنة ، 1982 ، ص 648

بهذه الحجج رفض نفر من الدراسيين الإستشراق، واعتبروه شرا لا خير يرتجى منه، ولا نفع فيه، لأنه كان في كل الأحوال مخادعا، لم يقدم لأمتنا شيئا ذا بال.إن الرفض المطلق الـــذي صدر عن هذا الفريق، إنما كان نتيجة التضجر من هذه الحركة وأفكارها وأهدافها الظاهرة المعلنة منها والخفية،وكان نتيجة إدراكهم " حسب رأيهم " للأسس التي يرتكـــز عليهـــا المستشرقون إذ كان أغلبها وهـــميا واهيـــا، ينطلـــق مـــن أحكـــــام مســـبقة،وأفكار مشوهة، أو جهل بالحقائق بارز جلي، كما يرتكز هذا الموقف على إيديولوجية الرافضـــين حيث أنهم أصناف شتى منهم القوميون ومنهم علماء دين ومنهم وطنيون ومنهم رجال علم وبحث.

وبين الفريقين نقف على معالم فريق توسط الطرفين نراه معتدلا ، والاعتدال صفة محمودة، ما دخل في أمر من أمور الدين أو الدنيا إلا زانه، وما ابتعد عنه إلا شانه، والعلم من أعظم الأبواب التي تتطلب عدلا واعتدالا، ومن شروط رجل العلم وطالبه أن يكـــون منصـــفا، يعطي الأشياء حقها، دون انفعال أو غضب لا يبتغي في ذلك إلا الحق، ولا يريد إلا اليقين.

ولقد تجلت صفة الاعتدال في فريق من الباحثين والعلماء الذين واجهوا الإستشراق بشراسة، دون مجاملة أو تردد، فسلاحهم في ذلك المناهج العلمية، القائمة علـــى مقارعـــة الحجـــة بالحجة، وشفيعهم ميراث أمتهم العظيم، وسندهم وقائع التاريخ المجسمة لعلاقـــة الشـــرق بالغرب عبر قرون طوال.

لقد رصد هذا الفريق ما ألفه المستشرقون، واجتهد في تمحيص هذه المؤلفـــات، كما رصد الدوافـــع والخلفيات، وتحقـــق من أهداف المستشرقين، ووقف على علاقة هؤلاء بما يخطط للأمـــة في الدوائر السياسية، ثم انبرى بحزم يرد على ما كتبوا، غير متنكر للحقـــائق، ولا متخاذلا أمام الدعاوى الباطلة والضلالات، وكانت خلاصة ما لعبه هذا الفريق هـــو أن " نقد الإستشراق أحـــد مظاهر معركة التحرير، تحرير الذات من أحكام الغير وانطلاق الأنا من قبضة الآخر على مستوى التصور والرؤية "[1]

---

1 - حسن حنفي، هموم الفكر والوطن ، دار قباء القاهرة ط2 ،مصر ،1998، ص 546

وكانت نتيجة هذا النقد الوقوف على أهم خصائصه " إنه من خصائص الإستشراق النظرة الاستعلائية والارتباط بالامبريالية والاستعمار وتشويه تاريخ الإسلام والمسلمين"[1].

وفي كل الأحوال ينبغي على المسلمين أن يمسكوا العصا من الوسط مجتهـــدين ، وتكـــون غايتهم الاستفادة مما كتب ، فلا إفراط ولا تفريط،، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس باق في الأرض.

1- تعقيبات على الإستشراق ، إدوارد سعيد ، ترجمة صبحي حديدي دار فارس عمان 1996ص 1 33

الإستشراق الفرنسي :

تاريخ الإستشراق طويل، مراحله متعددة، وأساليبه متنوعة، ووسائله ترتبط بغاياته ويتغير كلاهما بتغير الزمان والمكان، إلا أن هناك وفي كل الأحوال رابط يجمع الإستشراق أو جميعه وهو الموضوع والغاية الكبرى.

أما الموضوع فهو قراءة الشرق عامة والشرق المسلم خاصة،قراءة يطلع من خلالها على عقيدته وتاريخه ولغته وثقافته وكل مكوناته النفسية والاجتماعية، وأما الهدف فهو البحث عن السبل الكفيلة بتطويقه، وتثبيط عزيمته، وهزمه بمختلف الوسائل نفسيا للتمكن منه وأضعافه واستغلال ثرواته ومقدراته ،والمستشرقون في عمومهم يكادون الالتقاء فيما سبق ذكره، إلا أنهم يختلفون من دولة لأخرى في إصرارهم وتحمسهم للقضية، ومصدر هذا الاختلاف هو درجة الاحتكاك والتفاعل مع الشرق. بل أنهم يختلفون داخل الدولة الواحدة ولذا وجدناهم أصنافا، منهم المتعصب والحاقد ومنهم المعتدل، ومنهم من ذهب إلى أبعد حد فاعتنق الإسلام بعد تأثره بتعاليمه واقتناعه بأنه الدين الحق.

ولعل الإستشراق الفرنسي من الإستشراقات المميزة في تاريخ هذه الحركة،ذلك أن فرنسا من أكبر الدول تفاعلا مع المسلمين، فقد جابهتهم أثناء الفتوحات، وتزعمت الغرب أثناء الحروب الصليبية ،واحتلت أراضيهم زمن الاستعمار، وتتجاذب مصالحها مع مصالحهم حاضرا، ضف إلى ذلك وزنها على الساحة العالمية، وحاجتها إلى الاهتمام بقضايا المسلمين، لأنهم يجاورونها على الضفة الأخرى من البحر المتوسط ، فمتى بدأ الإستشراق الفرنسي وماهي المراحل التي مربها وماهي القضايا التي شغلت بال المستشرقين الفرنسيين التحرر ومن وراء هذا الإستشراق من الفرنسيين ؟

1-بداية الإستشراق الفرنسي :

إن الدين " نوع من اللغة الكونية التي يتقاسمها البشر كلهم "[1] يقدسه الجميع، يحافظون على شريعته، ويهتدون بشعائره، ليلا ونهارا، سرا وجهارا، أفرادا وجماعات،

---

1 - أدوارد سعيد ، الإستشراق، ص186

وكان أبد الدهـــر سببا في تقارب الشعوب المختلفة عقيدة ونجاحهـــا، كما كـــان ســـببا في صراعـــها وتنافـــرها، فإن لم يكـــن سببا مباشرا، كـــان عونا وسندا، وكان مـــلاذا لكـــل نبيـــل شريـــف وكل خسيس لئيم ، حين تشتد الشدائد ، لأجله ضحى المضحون ، وبـــذل الباذلون، وباسمه احتلت الأرض، وهتك العرض، وأريقت الدماء، و تحت لوائه توحد ساســـة الغرب ورجال الدين بعد فـــراق، وكان السبب الرئيسي في ظهور الإستشراق.

باسم الدين توحـــد ساسة الغرب ووقفوا مع الكنيسة ونطقـــوا بلسان واحـــد في مواجهـــة الإسلام، ولذا كان استشراق الفرنسيين يحمـــل في حناياه طبيعـــة الصـــراع الديني، ففرنســـا التي احتكت بالإسلام والمسلمين في كل مراحل تاريخها، لم تستطيع أن تـــتخلص مـــن هـــذه العقدة، وكان معظم مستشرقيها، يعبرون عن هذا الحقد الدفين القديمة جذوره ،حتى قال عنـــه أحد الدارسين له، أنه لم يرفي دراسته مستشرقا بروسنتيا عالج التـــراث الإســـلامي بأســـلوب الكاثوليكي الحاقد "[1].

والمتصفـــح لما كتب عن الإستشراق يلتمس أن الباحثيـــن يجمعون علـــى أن أول مستشـــرق اهتم بالإسلام وقضايا المسلمين كـــان فرنسيا، وكان الرائد الأول الذي اهتم باللغة العربيـــة وآدابها هو" جيرار دي أرليان (1003/938) الذي حاول أن يتعـــــرف علـــى العـــــالم الإسلامي وينقل معرفته إلى بلاده ... وعلى الرغم من أن أكثر الباحثين قد اعترفوا بأن جريـــر كان فرنسي الجنسية وأول من استشرق، فإنا نـــري يوسف جيرا يصـــر علـــى أن أول مـــن استشراق في فرنسا هو غليوم بوستيل (581/505) "[2]، وكان جـــادا " في تعلـــم اللغـــــة اللاتينية واليونانية والإيطاليـــة والإسبانية والبرتغالية والعبرانية والكلدانية والسريانية والأرمينية والحبشية والعربية "[3].

لهـــذه العوامل مجتمعة ذاع صيته، واشتهر أمرة فقربه ملك فرنسا فرانسوا الأول الـــذي كـــان بدوره يجيد العربية والتركية وألحقه بالسفارة الفرنسية بتركيا زمن السلطان سليمان، وكلفـــه بنقل المخطوطات الشرقية إلى باريس، لقد تمكن بوستيل بفضل مجهوداته الجبـــارة أن يؤســـس الإستشراق، ويورث اهتماماته الأجيال، من خلال تلامذتـــه الذين سهروا علـــــى نشـــــر

---

1 – الطيب بن إبراهيم ،الإستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر ، ص51

2 – أحمد سمايلوفتش،فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، ص 60

3 – المرجع نفسه ص 60

أفكـــاره في شتى أنحـــاء أوربا، فالفضل له في ظهور الإستشراق، والفضل له في انتشاره، و لم يقف بوستيل عند هذا الحد بل أنشـــأ عام 1539 أول كرسي للغـــة العربية في الكوليج دي فرانس بباريس.

وهكذا نجد أن فرنسا كانت سباقة إلى الاهتمام بقضايـــا الشرق مـــن خـــلال مجهـــودات مستشرقيها، الذين توشحوا بوشاحات العلم واتخذوه مطية إشباعا لرغبـــة الانتقام وتلبية لغريزة الحقـــد، ووسيلتهم في ذلك، أقـــلام مسمومـــة، وغاياتهـــم إذلال الشـــرق والنيـــل مـــن عزته وكرامته.

تطور الإستشراق الفرنسي في الجزائر ومراحله:

لم يكن الاستعمار الفرنسي في الجزائر مجرد جولة استكشافية للضفة الجنوبية من البحر المتوسط تسعى لتحقيق أهداف محدودة ثم يولي الأدبار، إنما كان هدفا مخططا لـــه مدروســـا، وكـــان مشروعا لساسة فرنســـا وجيوشها ذا أهمية كبرى، إنه الحلم الـــذي راودهـــم وبذلوا لأجل تحقيقه كـــل ما بوسعهم بذله، وتعـــاون الجميـــع في ذلك، تعبئة للجماهيـــر، وتحميـــــسا للجيش وتحفيزا،وإقناعا لمن لم يقتنع بهذه الصحف، ومضى هؤلاء تحت توجيهات المستشـــرقين وما بلغوه من علم ومعرفة عن الجزائر وشعبها،و عن عقيدتها ولغتها، وعن ثقافتـــها وطبيعـــة أرضها، وعن ساستها ونفسية أهلها .

ولأن المستشرقين كانوا طلائع الاستعمار، كان اهتمامهم بالجزائر قبل أن تطأ أقدام المستعمرين أرضها ،فالجزائر لا يمكن فصلها بأي حال عن الشرق الذي كان محـــل اهتمـــام المستشـــرقين ومجال اجتهاداتهم، لأنها تشترك مع هذا العالم الإسلامي في أهم مقوماته، دينه ولغته إذ " كـــان المستشرقون لعقود قد تحدثوا عن الشرق، وترجموا النصوص، وفسروا الحضـــارات، والأديـــان والسلالات والثقافات والعقليات كمواضيع جامعة محجوبة عن أوربا بحكم أجنبيتـــها الـــتي لا تقلد، وكان المستشرق خبيرا ...وظيفته في المجتمع أن يقسم الشرق ويترجم لأبناء وطنه "[1].

ونجد أن بعضهم كان سباقا ووضع النواة الأولى للإهتمام بالشرق تاريخا و ثقافة ، نلمس ذلك في"كتابات ديفونتين وبسوتيل وفانتوردي باردي سنجد النواة لـــذلك الاهتمـــام "[2] وهـــذه الكتابات استند عليها الفرنسيون من المستشرقين حين بلغ الخلاف بين فرنسا والجزائر ذروتـــه

1- إدوارد سعيد، الإستشراق، ص

2 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،لبنان، 1998 ، ج 6 ،ص9

سنة 1927 وهكذا " ترجم الفرنسيون أعمال زملائهم الأوربيين والأمريكيين عن الجزائر أيضا ، مثل مؤلفات الدكتور شو والقنصل شيلز، والأديب بانتشي،و لعبت مدرسة اللغات الشرقية عندئذ دورا مهما " [1]. ولقد اعتمدت فرنسا وراهنت على مستشرقيها أكثر من اعتمادها ومراهنتها على جيوشها ، فالخطط العسكرية تبنى على أراء هؤلاء وأفكارهم ، والسيطرة على الأوضاع في الجزائر تعتمد على اقتراحاتهم ، والتوسع شرقا وغربا مبني على ما تجود به قرائحهم من خديعة ومكر ، وهذا مايترجم أول بيان أصدره الفرنسيون ووزعوه عشية حملتهم المشؤومة على الأهالي ، وكان هذا البيان من " إنشاء أو تحت إشراف المستشرق سلفسستيردي ساسي "[2]،وفيه تأكيد على أن اهتمام المستشرقين بالجزائر سبق تحرك الجيوش، وأن الإستشراق كان مسخرا لخدمة الاستعمار، كما يؤكد ذالك الارتباط القوي بينهما ، فهما وجهان لعملة واحدة .

1- المرجع نفسه، ص 231

2 - نفسه، ص 10

مراحل الاستشراق الفرنسي في الجزائر

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة عسكرية بحتة، سعت خلالها الجيوش الفرنسية إلى بسط نفوذها على الأرض، والتوسع شرقا وغربا، وقد كانت حاجة هؤلاء ماسة إلى مترجمين، ليساعدوهم في التواصل مع الأهالي، ويكتشفون أحوالهم ونفسيا تهم ومواقفهم من المستعمر،إنها مرحلة جس النبض، ومعرفة التوجهات ليتم وفقها وضع الخطط وتنفيذها ، وكان هؤلاء المترجمون من العسكريين، أو من الإداريين التابعين لسلطة الاحتلال أو من العرب الذين رافقوا نابليون بونابرت حين عودته من مصر، أومن يهود الجزائر الذين كانوا على معرفة بالعربية والفرنسية، و لم يقتصر دور هؤلاء على دور الوسيط بين الجماهير والمحتل، إنما كانوا بمثابة الجواسيس والعيون يترصدون نبض الشعب، ويرصدون ركائزه الفكرية والثقافية، وما أن تمكنوا من تذليل الصعوبات وتخطي العقبات وسيطرة الجيوش على أهم المدن حتى سارعوا لجمع المخطوطات والوثائق ، وعادوا بأكداس اشتغلوا بدراستها وترجمتها والتأليف استنادا عليها، وازداد هذا النشاط حتى تشكل " المكتب العربي العسكري "[1] في هذه المدن.

المستشرقون وتعلم اللغة العربية:

إن الحديث عن المراحل التي مر بها الإستشراق الفرنسي في الجزائر، لايعني بأي حال وضع حدود زمنية والفصل الدقيق بينها، إنما نريد بالمراحل تيسير الدراسة، وتحديد أولويات المستشرقين حسب المراحل التي قطعها الاستعمار منذ أن فكر في احتلال الجزائر، ومن ثم تحديد خصائص كل مرحلة وسماتها، وإذا كانت المرحلة الأولى بمثابة تهيئة للأرضية وفهم لطبيعة الجزائريين، وتنظيم حياتهم وفق منظور المحتل بالتواصل معهم، فان المرحلة الثانية التي تتداخل ـــ بلا شك ـــ مع سابقتها، تهدف إلى استقرار الفرنسيين في الجزائر وتوطيد أركانهم اعتمادا على مقولة أن الجزائر فرنسية التي تبنوها.

إن هذه المرحلة تتطلب جهدا أكبر، وإستراتيجية بعيدة المدى، تبنى على فهم أعمق للشعب الجزائري وطبيعته، لإيجاد السبل للسيطرة عليه.

1- المرجع نفسه، 246

وإذا كانت المرحلة الأولى خطيرة وغايتها احتلال الأرض،فإن المرحلة الثانية أخطر ،لأن غايتها احتلال العقل وطمس هوية الجزائريين وتحويلهم إلى أشباه بشر لا علاقة لهـــم بتـــاريخهم ولا يملكون فكرة عن حضارتهم، وكان من وسائل هذه المرحلة تعلم اللغـــة العربيـــة وتعليمهـــا، وهـــذه واحدة من المفارقات العجيبة.

مفارقة عجيبة حقـــا، الاحتلال يعلم العربية لأبنائـــه الذين استوطنوا الجزائر ويعلم الفرنســـية للجزائريين، ويعمل جاهدا في الوقت نفسه على ضـــرب اللغـــة العربيـــة، ومنـــع الشـــعب الجزائري من تعلمها، وكأن شعارهم :من تعلم لغة قوم وعلمهم لغته استعبدهم .

لقـــد انطلقت عملية تعليم اللغة العربية للفرنسيين من عسكريين ومدنيين، في المرحلـــة الأولى "بستة دروس للعربية"، سميت بالكراسي أو الحلقات "[1] أربعـــة منهـــا في العاصمة وواحـــدة بوهران والأخرى بقسنطينة وأشرف عليها جمع من المستشرقين[2]. وأشهر هـــذه الكراســـي أو الحلقات ما يعرف بمدرسة الآداب.

مدرسة الآداب:

افتتحت هذه المدرسة سنة 1880 بعد أن مهدت لها المحاولات الأولى لتعليم اللغة العربية مـــن خلال إنشاء حلقات اللغة العربية التي سبق ذكرها.

وقامت هـــذه المـــدرسة بمجهودات كبيرة إلى جانب مدرسة العلوم والحقوق والطب، حيث ساهمت بفعالية في خدمة إدارة المحتل، وخدمة الإستشراق، من خـــلال ما ترجم مـــن نصوص فقهية وتشريعـــات كان الجزائريون يحتكمون إليها، و هوداس هو أول مستشرق تولى كرسي اللغة العربية في هذه المدرسة وساعده في ذلك عالم جزائري هو بلقاسم بن سديرة ثم لحق بهما المستشرق رينيه باصيه(René basset)[3]، وحين غـــادر هوداس(Houdasse) الجزائر ســـنـــة 1882 تولى باصيه مكانه، وسخر بالإضافة إلى بن سديرة زميله عمر بوليفة لخدمة مشروعه، وانضم إلى الجميع مستشرق آخر هو أدمون فانيان، وهكذا وبعد ازدهار حركـــة الإستشـــرق بمدرسة الآداب أثرت على باقي المدارس في العاصمة وفي المـــدن الجزائريـــة الأخـــرى بكـــل

1- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ص14

2- المرجع نفسه، ص 231

للمزيد أنظر: 3 -Mauris chavardes,les grands maitres de l'education ,editions du seuil,paris,1966 p:146

تخصصها، ليصبح الجميع في خدمة المستشرقين وفي خدمة الاستعمار،بل إن أثرها كان أوسع من ذلك حيث أصبح لها صيت واسع في الجامعات الفرنسية ،كالسوربون وغيرها، وأفاد مستشرقو مدرسة الآداب بالجزائر زملاءهم في فرنسا وأثروا أفكارهم و لم يمر وقت طويل على هذه المدرسة حتى شكل القائمون عليها جمعا غفيرا من المستشرقين، جابوا أرض الجزائر وجمعوا كل ما وقع تحت أيديهم وترجموا ما جمعوه، ومن الذين ساهموا في الترجمة : هوداس وفانيان وماصيه وماسكي وممران وكولان وغيرهم[1]، كما ساهم في ذلك جزائريون منهم ابن سديرة وبوليفة وابن أبي شنت.

وإذا كان هوداس هو أول من تولى كرسي اللغة العربية بمدرسة الآداب فإن إيميل ماسكري هو أول من تولى إدارة هذه المدرسة، وماسكري كان رجل علم وآداب، تعلم اللغة العربية، وجاب مناطق عدة من أرض الجزائر، كما كان له الفضل في السيطرة على بعض المناطق الجزائرية، لأنه كان من المتفانين في خدمة المستعمر وكان يرى أن الأرض لا تحتل بالجيوش فحسب، إنما بالقلم أيضا بل أن القلم أنجع من السيوف في نظره، ولكون هذه المقولة ملموسة في حياة الجزائريين وواقعهم، سعى الاحتلال بمساعدة المستشرقين وتحت إمرتهم إلى تعليم اللغة الفرنسية للجزائريين لتحل تدريجيا محل اللغة العربية.

مرحلة الدراسات الأكاديمية :

تعتبر هذه المرحلة من أهم المراحل في تاريخ الإستشراق الفرنسي في الجزائر، ذلك أن المستشرقين الفرنسيين رموا بكل ثقلهم لدراسة أحوال الجزائر، واستكشاف مكنوناتها، وفك رموز حياة شعبها، وفق منهج علمي دقيق، سخرت له بعثات ولجان علمية، وكان غرضها سياسيا.

لقد درست هذه اللجان والجمعيات " الطرق والقبائل والآبار واللهجات والتربية والعادات والتقاليد ، و لم يكن الغرض في ذلك دراستها لذاتها، ولكن للاستفادة منها في التقدم نحو افريقية،والسيطرة على الصحراء وثروتها"[2]،وسخرت إدارة الاحتلال بالتنسيق مع ساسة فرنسا لأجل ذلك جملة من الآليات لبلوغ الغاية منها:

1- أنظر المرجع السابق، ص 146

2- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافية ،ج8 ، ص102 ، 103

إنشاء المعاهد الجامعية المتخصصة:

لقد أدركت سلطات الاحتلال من البداية ضرورة الاعتماد على المستشرقين في تحقيق أحلامها، كما أدركت أن المستشرقين لن يقدموا لها شيئا ذي بال مالم تعتمد على معاهد متخصصة، فكانت المبادرة بإنشاء جامعة الجزائر التي تعود بدايتها إلى إنشاء المدارس العليا سنة 1830، وهي مدرسة الحقوق والطب والعلوم والآداب ، وتفرعت عن هذه الجامعة معاهد أهمها : المعهد الصحراوي الذي كان اهتمامه مركزا على الصحراء الجزائرية واشتراك للدراسة والتدريس فيه أطباء ومستشرقون وضباط ومستكشفون وعلماء الجيولوجيا وغيرهم، كل في مجال تخصصه.

وقد ترأس هذا المعهد السيد مير وساهم فيه ويليام مارسيه وديبوا، التسبيه، وكابوري، وريقلس"[1] ومن المعاهد المتخصصة أيضا :

* معهد الدرسات القانونية

*معهد الجيولوجيا التصليفية

*جمعية العلوم الفيزيائية والكميائية

*جمعية البحوث البترولية

*مكتب البحوث المنجمية

*معهد باستور

الغرب الإسلامي .

2) إنشاء اللجان العلمية :

إن المعاهد التي أنشأتها سلطات الاحتلال كانت تساندها في أبحاثها لجان علمية متخصصة بدورها ،تمس مختلف جوانب الحياة، أرضا و شعبا ومناخا، وكان عمل هذه اللجان جماعي متكاملا وفق مشاريع محددة منها مشروع " اكتشاف الجزائر العلمي " ومشروع الاحتفال السنوي بالاحتلال وتفرعت عن المشروع الأول مجموعة من التخصصات كانت أبحاثها منصبة على العلوم الفيزيائية والتاريخية والفنون الجميلة،و من هذه التخصصات نذكر:

الجغرافيا، علم الحيوان، علم النباتات، الجيولوجيا، الآثار ....الرسم .

1- المرجع السابق، ص101

أما المشروع الثاني فكان له بدوره أهمية بالغة عند إدارة الاحتلال، علقت عليه أمالها وسعت لإنجاحه، إثباتا لتواجد فرنسا بالجزائر وتوطيدا لهذا الوجود، وقد كلف أساتذة جامعيون كل في مجال اختصاصه للإعداد له وإنجاحه ، ومن أهم إنجازات هذه المشاريع:

1)إنشاء الإذاعة الجزائرية.

2) إنشاء النصب التذكارية.

3)نشر مجموعة من الكتب .

3 –إنشاء الجمعيات المتخصصة :

كانت هذه الجمعيات " ضيقة الأفق منطلقة من وجهة نظر عنصرية أحيانا – سيما خلال القرن الماضي – إذ كانت تقوم على البحوث العرقية والأنثروبولوجية والنظريات التي تدعو إلى التفوق الحضاري الفرنسي والإنسان الأبيض على العموم "[1] ومن هذه الجمعيات " الجمعية الأسيوية والجمعية الشرقية والجمعية الجغرافية "[2] وقد ظهرت هذه الجمعيات في باريس أما الجمعيات التي ظهرت في الجزائر :

1- الجمعية الأثرية في قسنطينة التي تأسست في ديسمبر .1852

2- الجمعية التاريخية الجزائرية التي تأسست في أفريل 1856 ومقرها الجزائر العاصمة .

3- جمعية البحث العلمي التي تأسست عام 1863 ومقرها عنابة .

4- الجمعية الجغرافية لإقليم وهران سنة .1878

5- الجمعية الأثرية والسياحية لسوق أهراس.

6- الجمعية الأثرية لمنطقة سطيف .

7- جمعية أصدقاء تلمسان القديمة.

8- جمعية التاريخ الطبيعي للقطر الجزائري.

4) – تشكيل البعثات العلمية:

كان هدف هذه الجمعيات استكشاف المناطق التي تمكن فرنسا من السيطرة والتوسع داخل الجزائر حيث أعماق الصحراء ،وخارجها للتوغل جنوبا نحو إفريقيا وشرقا نحو تونس

---

1 – المرجع السابق ص 89-90

2 – المرجع نفسه 89-90

وغربا نحو المغرب،وشارك جمع يسير من الجزائريين كمرشديـــن ومساعدين من جمع ما يمكن جمعه من المخطوطات والوثائق وكذا تيسير الاتصال بالناس .

مترجمو الحملة الفرنسية على الجزائر

إن عملية الترجمة قديمة جدا تفوق فيها العلماء المسلمون بترجمة علوم اليونان و فلسفاتهم حيث اعتمد الغربيون المسيحيون على هذه الترجمة[1] ، وكانت هذه الترجمة علمية صرفة أما ترجمة المستشرقين فكانت لأهداف مشبوهة في مقدمتها السيطرة و الإحتلال.

المترجمون من أصول عربية

1- جان شارل زكار: [2] سوري الأصل من مواليد دمشق 1789، هاجر إلى فرنسا وأصبح قسيسا بإحدى كنائسها، رافق الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر وبقي محافظ على وظيفته الدينية، ألقى أول قداس بمناسبة احتلال مدينة الجزائر، عين ملحق بملحق الولاة بمدينة الجزائر حتى علم 1845 وبعدها وضع تحت تصرف أسقفته الجزائر.

2- جوني فرعون: [3] سوري الأصل، من مواليد القاهرة 1803، عمل مترجما في الجيش الفرنسي أثناء حملة نابليون في مصر، ورحل مع أبيه إلى فرنسا مع نابليون، والتحق هناك بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وأصبح أستاذا للاتينية ثم أستاذا للفرنسية، انضم إلى الحملة الفرنسية وأصبح مترجما وفي سنة1833 عين كاتبا ومترجما للجنة الإفريقية التي أرسلتها حكومة باريس إلى الجزائر توفي بفرنسا 1846.

3- جورج غروي: [4] سوري الأصل، من مواليد دمشق، رافق قائد الحملة الفرنسية إلى الجزائر، قام بتوزيع البيان المشهور على الأهالي، ودعا إلى التفاوض مع المحتل، ويقال أن داي الجزائر قتله، بعد أن عرض عليه التفاوض مع جيش الاستعمار ودعاه إلى الاستسلام.

4- ليون إياس AYAS : [5] من مواليد دمشق شارك في الحملة الجزائرية، وطلب من الجزائر التفاوض مع الفرنسيين ، توفى قتيلا في معركة مع مجاهدي بومعزة سنة 1846.

---

1 - ابن أبي أصبيعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: د.نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د.ت، ص35 .

2 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج6،ص 145

3 - المرجع نفسه ،ص 147

4 - المرجع نفسه ،ص 145

5 - المرجع نفسه ،ص 147

5- براهمشة : [1] سوري من رجال الدين ، اشتغل بالترجمة وكان من المفاوضين السياسيين.

6- عبد الله دزبون : [2] عاش في مصر ثم رحل إلى الجزائر وتولى الترجمة والكتابة.

7- عبد المالك : [3] وهو من مصر أصبح بعد الحملة التي رافقها دليلا ومترجما، مات سنة 1845 بعنابة .

8- سليمان: [4] وهو سوري، كان مترجما، للحملة ودليلا

9- سالم: [5] وهو سوري التحق بالفرنسيين في مارس 1830 .

10- غبريال زكار: [6] مصري من مواليد الإسكندرية عام 1810 من المترجمين، أرسله الفرنسيون إلى مدينة معسكر وفيها قتل 1837.

11- يوسف: [7] وهو لقيط أدعى أنه لابن غير الشرعي لنابوليون الأول، أدخل الجيش الفرنسي، وخاض الحرب ضد الجزائر، كما عين بابا على قسنطينة .

12- عبد العال : [8] قيل أنه من مواليد مرسيليا سنة 1815، شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، وكان مترجما عسكريا، ترقى في الجيش الفرنسي حتى وصل إلى رتبة جنرال .

13- أحمد بن محمد : [9] تونسي من مواليد 1820، اشتغل مترجما بالجيش الفرنسي .

14- أحمد الأنبري : [10] تونسي من أصل يوناني أو ألباني، عمل مترجما وألف كتابا في تاريخ قسنطينة .

15- جان الشدياق : [11] لبناني من مواليد 1820 من مترجمين الجيش الفرنسي.

---

1 - المرجع السابق ،ص 150

2 - المرجع نفسه ،ص 150

3 - نفسه ،ص 150

4 - نفسه ،ص 150

5 - نفسه ،ص 149

6 - نفسه ،ص 150

7 - نفسه ،ص 151

8 - نفسه ،ص 152

9 - نفسه ،ص 152

10 - نفسه ،ص 153

11 - المرجع السابق ،ص 153

المترجمون من أصول جزائرية:

1. أحمد بوضربة : [1] عاش في فرنسا، تزوج من فرنسية، تفاوض مع الفرنسيين، عين على رأس رأس بلدية الجزائر.
2. أحمد الفكون[2]: من مواليد قسنطينة سنة 1829، بعد مراحل دراسته أصبح مترجما عسكريا، طلب الجنسية الفرنسية، فسر عدة مواضيع مترجمة في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، ترجمها من العربية إلى الفرنسية، كما ترجم من الفرنسية إلى العربية.
3. فرج نقاش [3]: من مواليد 1822، من المترجمين في الجيش الفرنسي
4. موسى الشرقي[4] : من مواليد الجزائر سنة 1820، ذو جنسية فرنسية كان من مترجمي الجيش الفرنسي.
5. إسماعيل بن المهدي البجائي[5]: مترجم عسكري إحتياطي قبل أنه لم يتجنس بالجنسية الفرنسية ، كما كان مترجما قضائيا .
6. حسن بن محمد[6]: من مواليد 1810 كان من مترجمي الجيش الفرنسي
7. الطاهر النقاد[7]: مترجم من الفرنسية إلى العربية.
8. على بن محمد[8]: من مواليد الجزائر 1818 ن وقيل انه من أوائل المترجمين توفي 1868
9. أحمد خاطري[9]: من مواليد بجاية1825، كان جنديا ومترجما.

---

1 – المرجع نفسه ،ص 158

2 – نفسه ،ص 158

3 – نفسه ،ص 159

4 – نفسه ،ص 159

5 – نفسه ،ص 169

6 – نفسه ،ص 170

7 – نفسه ،ص 175

8 – نفسه ،ص 176

9 – المرجع السابق ،ص 185

المترجمون من أصول أوربية :

1 – شوصبوا[1]: وهو دنماركي أسمه " فريدريك نفولاشوصبوا كان أبوه قنصلا للدنمارك في طنجة، وبها ولد الإبن شوصبواوتربى، وتعلم العربية والفرنسية، انضم إلى الفرنسيين في الجزائر وأصبح مترجما لقادة الجيش، تجنس بالجنسية الفرنسية، توفى 1876

2– روزيتي[2]: ابن قنصل توسكانيا في مصر، من مواليد القاهرة من المترجمين المرافقين للجيش الفرنسي أثناء حملته على الجزائر.

المترجمون الفرنسيون :

3– سلفستر ديساسي DE Sacy: [3] (ت 1838م) مستشرق فرنسي ، تعده بعض المؤلفات من المنصفين لأنه " اهتم بالأدب والنحو مبتعدا عن الخوض في الدراسات الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزا للدراسات العربية ، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي".

ومن الواضح أن مجرد الاهتمام باللغة العربية لا يجعل من أي إنسان منصفا ، فجميع المستشرقين يشاركون في هذا الاهتمام ، بل إن نشأه الاستشراق في الغرب المسيحي ترتبط بالتنصير وتتخذ من دراسة اللغة العربية وسيلة لتنصير المسلمين . فقد بدأ الاستشراق وجوده الرسمي في الغرب بقرار المجلس الكنسي في فينا سنة 1312م بتأسيس كراسي جامعية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وسلامنكا ، لدراسة اللغات الشرقية ولاسيما اللغة العربية ، وقد صدر هذا القرار بناء على اقتراح قدمه المنصر ريموندلول (1235 – 1316 م) الذي كان يحث المسيحيين على تعلم اللغة العربية كأفضل وسيله لتحويل المسلمين إلى المسيحية ، وبخاصة بعد فشل الحروب الصليبية في تحقيق أهم أهدافها ؛ وهو ردة المسلمين عن دينهم أو إبادتهم جميعًا . وكذلك أنشئ كرسي اللغة العربية بجامعة كامبردج سنة 1636 م بهدف توسيع حدود الكنيسة ونشر المسيحية بين المسلمين الذين يعيشون في الظلمات " كما سبق. والمستشرق دي ساسي يعد أول مستشرق أوروبي في العصر الحديث يمثل الاستشراق كمؤسسة

---

1 – المرجع نفسه ،ص 147

2 – نفسه ،ص 143

3 – رؤية إسلامية للاستشراق ، للأستاذ أحمد غراب ، ص 107–108

سياسية تعمل لخدمة الاستعمار الغربي ، وتثبيت أقدامه في العالم الإسلامي ؛ فقد كان حلقة الوصل بين الاستشراق و السياسة الفرنسية الخاصة بالمسلمين ، فكان يستشار بانتظام من قبل وزارة الخارجية الفرنسية ، وكذلك وزارة الحربية ، وكان من مهامه أن يترجم نشرات الجيش الفرنسي إلى المسلمين ، وهو الذي قام بترجمة الإعلان الفرنسي إلى الجزائريين باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 وجمع كثيرا من المخطوطات العربية الإسلامية في باريس ، وعين أول مدرس للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس (وأصبح مديرا لهذه المدرسة سنة 1824 م) كما كان أول رئيس للجمعية الآسيوية الفرنسية وهي الجمعية الاستشراقية التي تأسست في باريس سنة 1822م وكان يعتمد في دراساته على المختارات من النصوص الأدبية والدينية.

ومع اهتمامه الواضح بالشعر العربي كان إعجابه الحقيقي بالأدب اليهودي فقد وصف الشعر العبري بأنه (شعر مقدس حقيقة) وثقافتة الأصلية التي تلقاها في دير بندكتي ثقافة لاهوتية عميقة تعتمد على العهدين القديم والجديد.

ونشاطاته كلها تمثل الارتباط الوثيق بين الاستشراق والاستعمار والتنصير . أما اتصال رفاعة الطهطاوي بهذا المستشرق وغيره من المستشرقين الفرنسيين في باريس وآثار ابتعاثه إلى فرنسا بوجه عام – فيحدثنا عنها الأستاذ محمد قطب فيقول : " كان رفاعة رافع الطهطاوي واحدا من أولئك الأئمة" العظام " الذين أرسلهم محمد علي ليؤموا الشباب المبتعثين إلى فرنسا في الصلاة ، أو هكذا كان يوم ذهب إلى فرنسا ، ولكنه عاد وهو واحد من أئمة التغريب. استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد سنين فأشاح عنهم في ازدراء ووسمهم بأنهم (فلاحون) لا يستحقون شرف استقباله!

ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار " باريز " ودعا فيه إلى " تحرير " المرأة ؛ أي إلى السفور وإلى الاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمه الدنس ، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى فلا ينبغي النظر إليه أنه عمل مذموم ! "

4- جيردان: كان يعرف الجزائر جيدا حسب بعض المترجمين، عينه قائد الحملة مديرا لمصلحة أملاك الدولة.

5- البارون بواسيني[1]: من موليد باريس 1811، تعلم اللغة العربية، توفي 1902

6- هنرى دوفيرليهر[2]: فرنسي تعلم اللغة العربية له نشاطات كثيرة بالجزائر.

إن ما يلاحظ من هذه الأسماء أن جل المترجمين المشاركين في الحملة على الجزائر هم من أصول عربية جاؤوا مع الجيش الفرنسي لعوامل تاريخية مختلفة، وكان هؤلاء واسطة بين الأهالي وبين الفرنسيين، وتركزت أعمالهم خاصة على الترجمة الشفهية، أو على ترجمة بعض الوثائق الإدارية والقضائية، كما كان لبعضهم دور في تعليم اللغة العربية للأوربيين.

---

1 - المرجع السابق ،ص 146

2 - المرجع نفسه ،ص 147

مفهوم التراث الشعبـــي:

مفهوم كلمة التراث في اللغة العربية:

قال ابن منظور عن مادة (ورث) في معجمه لسان العرب: " الوِرْثُ والوَرْثُ والإِرْثُ والوِرَاثُ والتُّراثُ واحدٌ .... والوِرْثُ والتُّراثُ والمِيراثُ: ما وُرِثَ، وقيل: الوِرْثُ والمِـيراثُ في المـالِ، والإِرْثُ في الحَسَبِ .... والتُّراثُ: ما يَخْلُفُهُ الرجل لِوَرَثَتِهِ."[1]

وعليه فإن مفهوم كلمة التراث في اللغة العربية لا يتعدى الميراث المادي الذي يخلفه الإنسان بعد موته،لأن" الأصـل في مدلول هذه اللفظة هو كل ما يتركه الميت لورثتـه، ثم توسع الناس في مفهومها وأصبحت تدل على جميع مخلفات البشر الحسية والمعنوية "[2] وهـذه اللفظة مأخوذة من الفعل "ورث" "يرث" "ميراثاً" أي انتقـل إليه مـا كان لأبويه من قبله فصار ميراثا لـه، وهذا التراث قابل للتوارث من بعده بحكم الانتقال ومرور الزمن، وقد وردت كلمة التراث في القرآن الكريم في مواضع عدة، ودلت على شقين أومعنيين، شق مادي، وشق معنـوي، قـال تعالي: " وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا "[3] وقوله تعالى" وَوَرِثَ سُـلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ "[4] وقال تعالى" وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرًا "[5] كما استعمل الرسول صلى الله عليه سلم هذه الكلمة في مواضع مختلفـة في أحاديثـه الشريفة ودلت على جانب مادي في بعضها، وعلى جانب معنوي في بعضها الآخر أيضا.

وتراث أصلها وراَث وقلبت الواو تاء كما في قولنا تقوى و تقاة من وقى.

التراث اصطلاحا:هو ما ينتقل من عادات وتقاليد وعلوم وآداب وفنون ونحوها من جيـل إلى حيل، فقول:"التراث الإنساني" "التراث الأدبي" "التراث الشعبي" وهو يشـمل كـل الفنـون والمأثورات الشعبية من شعر وقصص وغناء وموسيقى،ومعتقدات شعبية وحكايـات وأمثـال

---

1 - أنظر : http://kenanaonline.com/users/sayed-esmail/posts/119164

2 - محمد بن عبد الكريم الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها الشهاب الجزائري ص101

3 - سورة الفجر الآية 19و20

4 - سورة النحل الآية 16

5 - سورة الأحزاب الآية 27

مرت على ألسنة العامة من الناس، ويشمل كذلك العادات المتوارثة في مختلف المناسبات وما ينبثق عنها من طرق في الأداء والأشكال ومن ألوان الرقص والألعاب والمهارات.

وإذا كان التراث هو مخلفات البشر الحسية والمعنوية فهذه المخلفات يمكن حصرها في أنواع أربعة أقسام رئيسية هي:"

1. المعتقدات والمعارف الشعبية
2. العادات الشعبية
3. الأدب الشعبي
4. الثقافة المادية و الفنون الشعبية"[1]

وما يهم بحثي في هذه الأقسام هو الأدب الشعبي لأنه موضوع هذا التراث ، فهو أدب "غني بالمغزى و الرموز التي تكشف عن تجارب الفرد الشعبي مع نفسه ومع الكون كله"[2]

وهو أدب الأجيال تناقلته و توارثته، فسر جوانب كثرة من حياة الشعوب بتصوره لخلجات نفسيتها ، واهتمامها الروحي

"إنه يحول الفوضى إلى نظام ، وكل نوع من أنواع الإنتاج الأدبي الشعبي قبل الحكاية الخرافية والأسطورة الكونية و أساطير الأخيار و الأشرار ، إلى غير ذلك "[3]

ولأهميته اختلف الدارسون حول تعريفه ، وحول الشروط التي يجب أن تتوفر في العمل الأدبي ليمكن إدراجه ضمن الأدب الشعبي و لعل أبرز تعريف جامع للشروط ، ذاك الذي ورد عن المرزوقي إذ يقول أنه:"الأدب المجهول المؤلف، العامي اللغة ، المتوارث جيلا بعد جيل ، بالرواية الشفوية"[4]

لقد اشترط محمد المرزوقي في الأدب الشعبي أربعة شروط لا بد من اجتماعها في أي عمل أدبي وهي:

1- أن يكون المؤلف مجهولا
2- أن يكون النص الأدب باللغة العامية

---

1 – محمد الجوهري، الطفل في التراث الشعبي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد العاشر،العدد الثالث،1979 ، ص15-16

2 _ نبيلة إبراهيم ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار النهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة ، مصر ط2 ، د.ت ص8

3 _ المرجع نفسه ، ص8

4 – محمد المرزوقي ، الأدب الشعبي في تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1967، ص49

3- أن يكون العمل الأدبي متوارثا

4- أن يكون العمل الأدبي متوارثا شفهيا

إن هذه الشروط ترتبط ارتباطا وثيقا ببعضها البعض ، فالتواتر الشفهي أوجد تدخل الـــرواة في النص الأدبي بما يخدم رغبات المستمعين هذا يعطي النص مرونة تتجاوب مع الحاجـــة و يجعـــل المؤلف الأول للنص غائبا، ولكن لا شك بصماته قائمة و يبقى موجودا ومع الزمن يصبح عدد المؤلفين كثر ، وجهل المؤلف لا يعني عدم وجوده ، إذ ليس من المعقول "أن الشعب كله يمكن أن يجتمع ليؤلف أسطورة أو حكاية خرافية أو شعبية على سبيل المثال"[1]

و لان فرضية اشتراك الشعب في تأليف هذه الأنماط الأدبية "لم يبق سوى أن نفترض الأصـــل الفردي للإنتاج الأدبي الشعبي ، وهذا الفرد الحلاق لا يعيش حياة ذاتيه بعيدة عن المجتمع ، وإنما يعيش حياة شعبية صرفا"[2]

ولأن الشعب له الفصل في تناقل النصوص و روايتها شفهيا ، اشـــترطت في هـــذه النصـــوص لغتهم، اللغة العامية ، فالطبقات الشعبة طبقات غير متعلمة في عمومها ، ومن الطبيعي أن تعـــبر عن أحوالها بلسانها ، ولن يكون تعبيرهم صادقا إلا إذا كان كذلك فـــ"اللغة نفســـها منتجـــة وخالقة و مفسره"[3]

أما الشرط الثالث الذي أشترطه فهو أن يكون العمل الأدبي متوارثا ، وهذا العامـــل شـــديد الأهمية.

إن عملية نقل هذه الإبداعات لم يكن سلبيا ، حيث يحافظ الراوي على النص الأدبي كما هـــو بل نقله للنص إيجابيات بحيث يسعى إلى المشاركة فيه ، و تكييفه مع الموقف ، و مـــع الـــذوق الجماعي لقد ترجم العرب مثلا "ألف ليلة و ليلة" من أصولها الفارســـية و الهنديـــة "هضـــمها العرب هضما كليا و صبغوها بلون عربي بارز"[4]

وأما الشرط الرابع فهو الرواية الشفهية التي تسمح له بالاستمرارية وتعطيـــه المرونـــة الكافيـــة للصلاحية في كل زمان.

---

1 _ نبيله إبراهيم، اشكال التعبير في الأدب الشعبي ، ص4

2 _ المرجع نفسه ، ص4

3 _ نفسه ، ص6

4 _ عبد الغني الملاح ، التزامن بين الحروب الصليبية وألف ليلة وليلة، دار الجاحظ ، بغداد ، العراق 1980 ، ص8

"إن نشاط اللاشعور الجمعي كبير للغاية ، و عنه يصدر الأفعال و التعبيرات الواعية التي لا يمكن إدراك مغزاها إلا إذا بحثنا عن جذورها النفسية"[1]

و الشعور الجمعي يتغير من زمان إلى زمان، بل من جيل إلى جيل، لان الإنسان يتأثر ببيئته وظروفه ، وعليه يخضع العمل الأدبي لهذه المستجدات مع المحافظة على الإطار الفني له.

أشكال الأدب الشعبي

1- الأسطورة

الأسطورة لغة : "واحده الأساطير ، وهي ما سطر الأولون، و الأساطير الأباطيل و أحاديث لا نظام لها ،ويقولون للرجل إذا أخطأ .أسطر فلان اليوم، والإسطار الإخطاء ، وسطر فلان على فلان ، إذا زخرف له الأقاويل ونمقها"[2]

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بصيغة الجمع، قال تعالى:" وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "[3] ويقول عز وجل : " وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا "[4].

أما الأسطورة اصطلاحا فقد استخدمت كترجمة لكلمة"MYTHE" و المعني الأصلي كلمة"Myth" أو "Mythos" عند الإغريق القدماء تعني الكلمة المنطرقة ، ثم تحدد استعمالها بعد ذلك ، فأصبحت تعني الحكاية التي تختص بالآلهة و أفعالها و مغامراتهم"[5]

لقد ارتبطت الأسطورة دائما بالآلهة ،لأن الإنسان الأول وقف أمام الطبيعة بعظمتها وتعدد مشاهدها ، وتكاثر أخطارها ، عاجزا لا يستطيع الصمود و المجابهة ، فكر وجسد ، وأمام هذا التحدي الذي يواجهه تخيل وجود آلهة تتحكم في الطبيعة وما فيها، فكانت الأسطورة التي هي"محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة، أو هي تفسير له، إنها نتاج وليد الخيال، ولكنها لا تخلو من منطق معين، ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم و الفلسفة فيما بعد"[6]

---

1 _ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، ص3

2 _ ابن منظور ، لسان العرب ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، ج4 ، 1988

3 _ سورة "الأنعام" ، الآية 25

4 _ سورة "الفرقان" ، الآية 5

5 _ نبيلة إبراهيم ، أشكال التعبير الأدبي ، ص10

6 _ المرجع نفسه ، ص9

والأساطير أنواع هي:"

1. الأسطورة الطقوسية
2. أسطورة التكوين
3. الأسطورة التعليمية
4. الأسطورة الرمزية
5. أسطورة البطل المؤلمة
6. أساطير الأخيار وأساطير الأشرار"[1]

أما الكاتب توماس بلفيتش فيرجع أصل الأساطير إلى أربعة نظريات هي: [2]

أ–نظرية الكتب المقدسة :وهي ترجع أصل الأساطير إلى الكتب المقدسة والديانات بصفة عامة

ب– النظرية التاريخية : وترجع أصول الأساطير إلى حقائق التاريخ وشخصياتها إنما هي شخصيات تاريخية.

ج–النظرية المجازية : وتفترض أن كل الأساطير القديمة مجازية ورمزية إما للترغيب وإما للترهيب أو التفسير

د–النظرية الطبيعية:وكانت آلهتها الرئيسية مشخصات من قوى الطبيعية .

اما عبد المعطي الشعراوي فيختصر أصول الأساطير التاريخية ويبدؤها بهوميروس اليوناني[3]،أم الأستاذ بن سعيد محمد فيرى أن أصول الأساطير يمتد إلى بداية الديانات السماوية عامة[4].

2–الحكايات الشعبية

تجمع بعض المعاجم على "أن الحكاية الشعبية قصة ينسجها الخيال الشعبي حول حدث مهم، وأن هذه القصة يستمتع الشعب بروايتها والاستماع إليها إلى درجة أنه يستقبلها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية"[5]

---

1 _ ينظر المرجع نفسه من ص 9

2 _ توماس بلفينش، عصر الأساطير، ترجمة رشدي السبسي، مراجعة صقر خرفاجة، سلسلة تصدر عن المجلس الأعلى للفنون و الآداب، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر،1966 ،ص411–412

3 _ أنظر: عبد المعطي الشعراوي ، أساطير إغريقية، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، سنة 1982 ، ص11

4 _ أنظر بن سعيد محمد، المؤثرات الغربية في أدب طه حسين ، أوفيدوس وستندال، مخطوط رسالة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وأدائها ، جامعة وهران ، ص08.

5 _ نبيلة إبراهيم ، أشكال التعبير الأدبي ، ص10.

وهي من الأشكال القصصية القديمة، فقد ظهرت "كنوع من الأدب في حقبة مبكرة للغاية، وقد وصلتنا نماذج من الأقاصيص المصرية ترجع إلى القرن الثامن و العشرين قبل الميلاد"[1] وكانت الشعوب شديدة الولع بها، تعرض خلالها عن تطلعاتها و أحلامها، ومعتقداتها ولذلك كان بديهيا أن يشارك في تأليفها، و يكيفها حسب متطلباته النفسية والإجتماعية و العقائدية، ويتناقلها شفهيا عبر الزمن.

و الحكاية الشعبية في عمومها تركز على حدث ما أو غالبا على واحد من أبطالها، تلبسه أفكارها ، وتجعل مدافعا عن أحلامها ومن ابرز أنواعها:

أ- الحكاية العجيبة

الحكاية العجيبة أو ما تعارف بعض الباحثين على تسميته بالحكاية الخرافية، "لكنا فضلنا تسميتها الحكاية العجيبة انطلاقا من بنيتها الحافلة بالعجائب، إذ تصور هذه الحكاية عالما مليئا بالسحر و السحرة و الأدوات الخارقة و الحيوانات التي تعقل وتتكلم أحيانا والجن و العفريت"[2] إن العالم الذي تصوره الحكايات العجيبة هم عالم نصا هي عالمنا ، إنها "تصور الأمور كما يجب أن تكون عليه في حياتنا"[3] وفي نفس الوقت ترفض أن يكون عالمنا مماثلا لها ، هي "ترفض عالمنا لأنها تحل محله عالما أجمل وأكثر منه بهاء و حسنا"[4]

وتتألف الحكاية العجيبة من مجموعة من الأحداث تشكل بنهايتها الحدث الكلي، وهذه الأحداث تصنعها مجموعة من الشخصيات ، وهي بدورها شخصيات تختلف عن عالمنا إذ أن:"شخوص الحكاية الخرافية تمثل إلى التسطيح، في حين أن شخوص عالمنا الواقعي تترع إلى العمق الواقعي"[5] .

وتسير الحكاية العجيبة على وتيرة واحدة ، و تتشكل من مجموعة من الوحدات هي:

1- فقدان التوازن

2- السعي إلى استعادة التوازن

---

1 _ أحمد رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر 1971 ص 20

2 _ طلال حرب ،أولية النص ، نظرات في النص و القصة والأسطورة والأدب الشعبي ، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، ط1،1999 ،ص 112

3 _ نبيله إبراهيم ،إشكال التعبير في الأدب الشعبي ، ص70

4 _ المرجع نفسه ، ص 70

5 _ المرجع نفسه ص72

3- المساعدات

4- العقبات

5- الإنتصار

6- معاقبة الشرير

7- استعادة التوازن[1]

ب- الحكاية الوعظية

هي حكاية للوعظ و توجيه المجتمع إلى ما فيه خيره و فلاحه ، و تركز على الأخلاق وتربية المجتمع ، وتدعوا إلى العمل بمحتواها ، و تحذر من عواقب مخالفتها ، في هذه القصة "يضع القصاص خلاصة فكره ونظرته الأخلاقية ، فيعظ الآخرين، ويلفت نظرهم بالحكاية المقنعة إلى ضرورة اعتمادهم جادة الأخلاق وابتعادهم عن الصفات السيئة"[2]

ج-حكاية المعتقدات:

تشكل المعتقدات حجر الأساس في القصة الشعبية عموما، لحاجة الإنسان إليها في مواجهة الطبيعة و الحياة ، وانعكست هذه النظرة بما تترجم إليه من عادات و اعراب في الحكاية، و تأتي على رأس هذا النوع من الحكاية ، تلك التي تقص كرامات الأولياء ، هؤلاء الذين اعتبروا"الواسطة بين الإنسان وخالقه"[3]

د-الحكاية الواقعية:

ترتبط هذه الحكاية بالواقع مبتعدة عن السحر و السحرة ، وعن الآلهة و العفاريت ، تقوم على حدث واقعي"[4] ومن سماتها عشقها للفضيلة ، ودفاعها عن الأخلاق النبيلة.

هـ-الحكاية التعليمية:

وهي حكاية تهدف إلى التعليم ، وإعطاء العبر و الدروس في مختلف مجالات الحياة، بأسلوب مباشر وواضح ، هي حكاية "يسود فيها النفس التعليمي فلا يستنبطه المتلقي استنباطا من حوادث القصة ، بل تجده مباشرا وواضحا"[1]

---

1 _ طلال حرب ، أولية النص ، ص130

2 _ المرجع نفسه ص134

3 _ أحمد رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، ص141

4 _ طلال حرب ، أولية النص ص132

و–الحكاية الرمزية:

توظيف الرمز ، من الأساليب التي لجأ إليها القصاصون الشعبيون في حكاياتهم و الرمز يضفي على الحكاية طابعا خاصا ، حيث يعطيها أبعادا تتجاوز ما ظهر منها

ز–الحكاية البطولية:

هي من أهم الحكايات وأكثرها شعبية ، فالناس مغرمون بالبطولات و الأبطال يحبون سماع أخبارهم و ينسجون الأساطير احتفاء بذكرهم ، لأن البطل الشعبي "لايقوم ببطولات فردية ذات هدف شخصي ، بل يعمل في سبيل الجماعة "[2]

و البطل عند الشعوب قدوة لهم فيما يعترضهم من محن ، وما النصر الذي يحققه الأمن تطلعاتهم

3–المثل الشعبي

يعتبر المثل الشعبي من أشكال الأدب الشعبي المعبر عن فلسفة الشعوب وبعد نظرها و قدوتها على حسن التفكير وروعة التعبير وهو خلاصة تجربة عاشتها الجماعة ،هو "ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم و خبرة وحقائق واقعية بعيدة البعد كله عن الوهم والخيال"[3]

ولقد كانت الأمثال الشعبية أكثر الأنواع التي أولاها الدارسون عنايتهم ، لقصر حجمها، وحلاوة لفظها ، وسهولة جمعها"فكلنا نعرف كتاب الأمثال للميداني الذي خصص فيه فصلا لأمثال المولدين ، وكذلك كتاب الفاخر لابن عاصم الوفي إلى غير ذلك"[4]

ويرتبط المثل بحادثة معينة، حقيقية كانت أم من إبداع القصاص و الرواة ، ولجمالها وقوة أدائها ، انتشرت على الألسن وشاعت ، وتناقلتها الأجيال ،ولهذا اتسمت الأمثال بجملة من الخصائص أبرزها: [5]

1- الشيوع و الانتشار

2- البلاغة

3- الإيجاز

---

1 _ المرجع نفسه ص133

2 _ نبيلة إبراهيم ،أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، ص161

3 _ المرجع نفسه ، ص160

4 _ طلال حرب ، أولية النص ، ص147

5 _ المرجع نفسه ، ص162

4- الخبرة

5- الإيقاع

4-الأغنية الشعبية :

هي من أشكال الأدب الشعبي الأصيل، يعبر عن مختلف جوانب حياة الإنسان، حلوها ومرها وعن طموحاته وتطلعاته ومن أهم مواضيعه: [1]

1- الأعياد و الاحتفالات الدينية و العطل

2- الحب والأفراح والأعراس و الختان و الميلاد

3- الحرب و الحماسة والحث على القتال

4- العمل

5- اللهو والتسلية والسمر

6- السياسة

7- المآتم والمناسبات الحركية

8- الحياة اليومية في تفاصيلها.

الاهتمام بالتراث الشعبي الجزائري :

وجدت في الجزائر أشكال أدبية شعبية شكلت في مجموعها إرثا شعبيا تناقلته الأجيال شفاهيا ووظفته في حياتها اليومية وفي مختلف المناسبات و لم يلق هذا الإرث اهتماما إلا في العصر الحديث مع "بداية الاحتلال الفرنسي للبلاد ، في الربع الثاني من القرن التاسع عشر"[2] ، لأن الاحتلال كان بحاجة إلى استكشاف العدو – حسبها – و"معرفة من يقاتل"[3]، وهكذا بدأت أولى الدراسات وكانت دراسات عسكرية ،شملت المناطق التي سيطر عليها الاحتلال ، "تناولت الحياة الشعبية"[4] ، ومن هذه الدراسات والأبحاث ما كتبه ضابط الشرطة "د.بينوسك

---

1 _ المرجع نفسه ص140

2) عبد الحميد بورايو ، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر، المجلة العربية للثقافة، السنة الثامنة ، العدد 36 ، مارس 1999 ، ص 265

3) فيليب لوكاش وجان كلود فاطان ،جزائر الأنثربولوجيين،فرانسو ماسبيرو، باريس ،1975 ، ص 5

4) عبد الحميد بورايو ، المرجع السابق ، ص265

D.Aodignosc" في مجلة باريس "Revue de Paris" تحت عنوان "مدينة الجزائر"[1] قدم فيه "تفاصيل عن أساليب حياة الحضر في الجزائر"لقد تركزت الدراسات حول حياة الشعب الجزائري وخاصة عقيدته وثقافته وممارساته اليومية وأخلاقه بغية معرفة نفسية وطريقة تفكيره لإيجاد الطرق الكفيلة بإخضاعه السيطرة علميه، وكان من نتائج هذه الدراسات مذكرات سجلها أصحابها فيما بعدو منها:

-كتاب "جزائر الشباب" لـ "ب.كريستيان R.khristian"[2]

-كتاب "اثنتان وثلاثون سنة عبر الإسلام (1832 ، 1864) لـ "ليون روش Leon Roche"[3]

ثم تطورت الدراسات بعد السيطرة على معظم المدن الجزائرية الرئيسية وتحولت من دراسات عسكرية هدفها إخضاع الجزائريين إلى دراسات القصد منها الاستفادة من نتائجها في توجيه السكان للتكيف مع الإدارة الفرنسية الواردة عليهم من وراء البحر"[4]

لقد أيقن الاحتلال أن التراث الشعبي الجزائري يشكل الذاكرة الشعبية و أنه الحصن المنيع الحافظ لشخصية الجزائيين ، وأيقن أنه لا يمكن تكييف هذا الشعب مع رغباته في التمكن منه إلا بفهم تراثه ، ولذا سعى جاهدا لدراسته "وقام ضباط عسكريون بتسجيل —هذا التراث- من أفواه أهله و تحليله ودراسته عن طريق أكثر المناهج استجابة للغرض النفعي المقصود من طرف الإدارة الاستعمارية وهو إحكام السيطرة على الأهالي"[5].

وكان من نتائج هذا المسعى في مرحلته الثالثة إنشاء هيئات علمية مختصة تمخضت عن ظهور " الجمعية التاريخية الجزائرية Société historique Algérienne" التي أصدر المجلة الإفريقية[6] وقد نشرت هذه الجمعية مجموعة من الأبحاث حول حياة الجزائريين شملت مختلف أرجاء الجزائر كما ظهرت"الجمعية الجغرافية Société Géographique" التي عقدت عدة مؤتمرات[7]

---

1) دوبينو سيك ،الجزائر،مجلة باريس،1831، المجلد 22 ، ص209

2) ب.كريستيان ،الجزائر الشباب ، ديسير ،باريس ،1847 ، ص 1847

3) ليون لاروش ، اثنتان وثلاثون سنة عبر الإسلام (1832-1864) ،فيرمن ديدو،باريس 1884 ، مجلدان

4) عبد الحميد بورايو ، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر، ص 266

5) المرجع السابق ، ص266

6) المجلة الإفريقية ، نشرية فصلية ،تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية ،الجزائر، 1856 إلى 1962

7) إنعقد المؤتمر الأول بمدينة الجزائر 1935 والثاني بمدينة تلمسان سنة 1936 ، والثالث بمدينة قسنطينة سنة 1937

وظهرت الجمعية الأنتروبولوجية – الأركيولوجية لعصور ما قبل التاريخ وأصدرت مجلة "ليبيكا Libyca "[1]

ومما يلاحظ أن هذه الدراسات م تكن موضوعية لأنها كانت توجهها إدارة الاحتلال وما يؤكد ذلك "أن الطرق الدينية والممارسات الشعائرية للجماعات الصوفية فازت بالنصيب الأوفر من الاهتمام منذ بداية الاحتلال الفرنسي"[2] لما لهذه الطرق من تأثير في حياة الشعب الجزائري ، ومن المستشرقين الذين اهتموا بهذا الأمر الولونيل "ك.ترومبلية C.Trumelet" الذي ألف كتابين عن الأولياء الصالحين ، بالجزائر وأضرحتهم والمعتقدات المتصلة بهم[3]، كما نشر "الكسندر جولي Alexandre Joly" في المجلة الأفريقية[4] بحوثا سجل فيها مجموعة من القصص القصص الشعبي المتعلقة بكرامة الأولياء الصالحين ، كما ألف المستشرق "رونيه باسيه R.Basset" كتابا عن الولي الصالح "سيدي أحمد بن يوسف"[5].

و لم تتوقف انتقائية الباحثين على الموضوعات الأكثر إلحاحا وأهمية في الكشف عن نفسيات الجزائريين والتي تعتبر عامل وحدة لهم، بل تعدت إلى البحث –حسب زعمهم- على ما يفرقهم ، فراحت تعزف على وتر العرق واللهجات مدعية أنه لا يوجد روابط بين العرب والبربر ، فرصدت الثقافة البربرية ورصدت الثقافة العربية لإجراء مقارنات ومماثلات تعكس نتائجها الاختلافات لضرب الوحدة الوطنية.

ويتجلى هذا المكر في إعلان"الظهير البربري"[6] سنة 1914 كما تجلى في كتاب "م.دوماس M.Dumas" و "م.فابار M.Fabar" إذ يقولان "العربي يحيط نفسه بالتمائم ، يعلقها في أعناق خيله، وكلابه ليحميها من العين ومن الأمراض ومن الموت، إلخ ، يرى في كل شيء أثار السحر ، القبائلي لا يعتقد أبدا في عين الحسود ، واعتقاده قليل في الأحجية... العرب

---

1) ليبيكا، الحكومة العامة لمدينة الجزائر ، مصلحة الأثار ، الجزائر، بداية من 1953

2) عبد الحميد بورايو ، مرجع سابق ، ص267

3) ينظر: ك.ترومبليه ، أولياء الإسلام ، مناقب وعقائد المسلمين الجزائريين ، أولياء التل ، ديدلي ، باريس ، 1881

4) ينظر : ألكسندر جولي ،أولياء وقصص أساطير الإسلام ، المجلة الإفريقية ، عدد 53 ، 1913 ، ص 285-307

5) رينيه باسيه ، أقوال مأثورة هجائية ، منسوبة لسيدي أحمد بن يوسف مطبعة ناتنا ، باريس 1890

6) الظهير البربري تشريع خاص بمنطقة الريف العربي مبني على الأعراف المحلية

مضيافون، لكن ضيافتهم للمداراة والتباهي أكثر منها نابعة من القلب ، والضيافة عند القبائل متواضعة ، تخمن على الأقل من مظهرها أن وراءها عاطفة نبيلة"[1] .

إن هذه المقارنة تنم عن مكر ومغالطة ، إذ تجعل كل من العرب والبربر عرقين بل شعبين مختلفين غير متجانسين ، لم يصهرهما الواقع المشترك من خلال جسور التاريخ الواحد والأرض الواحدة ، وعلى نفس الطريقة يقرر"أبورديو A.Beaurdieu" حين يقول "ليس هناك إلا عنصر بربري ، هو الآن نصف متحضر ، في وضعية اجتماعية سليمة تقريبا ، ذو أخلاق تسندها تقاليد صلبة، ذو دين متأصل في أعماقه ، لا يمكن أن يعامل بنفس ما يعامل به عنصر مجاور في حالة التوحش"[2]

ويتواصل زحف المستشرقين في كل مناطق الجزائر مركزا على اللهجات فكانت"دراسات عن بربر القبائل ، دراسات عن بربر الشاوية[3] ودراسات عن بربر بني سنوس[4] ودراسات عن بربر الطوارق[5]كل عنصر عرقي على حدة "[6] .

ومع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ازداد عدد المعمرين الفرنسيين في الجزائر و شكل هؤلاء مجتمعا جديدا يختلف عن المجتمع الفرنسي ويختلف عن المجتمع الجزائري ، هذا المجتمع الذي يرى في الامتيازات التي حضي بها البربر من قبل السلطات الرسمية الفرنسية كانت على حساب مصالحه ،"وأصبح في غير صالح المعمرين أن يكون هناك مجتمع للعنصر البربري تعطى له امتيازات تهدد مصالحهم ومطامعهم في التوسع و الهيمنة"[7]

إن الاهتمام بمجتمع المعمرين في الجزائر دفع المستشرقين ومن وراءهم إدارة الاحتلال في الجزائر إلى تكييف خطابها و توجيهه وجهة غير التي كانت تعطي لفكرة"البربرية" أولوية ، وهذا ما أكده المستشرق "جان ديسمبريه Jean disparmet " حين قال "أن المادة الفلكلورية و التقاليد

---

1) م.داماس وم.فابار ، القبائل الكبري، دراسات تاريخية، هاشيت ، باريس 1847 ، ص20-21

2) أ. بوردو ، الجزائر في سنة 1891 ، تقرير وخطاب ، هاشيت ، باريس، 1892 ، ص141

3) سكان جبال الأوراس في منطقة الشرق الجزائري

4) سكان المنطقة الجبلية في الشمال الغربي للجزائر

5) سكان المنطقة الجبلية في الحدود الجنوبية الشرقية

6) عبد الحميد بورايو ، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر ، ص 269

7) المرجع نفسه ، ص 269

المتعلقة بدورة الحياة تتشابه تشابها غريبا في كل مكان وليس فقط بالنسبة للجزائر و إنما بالنسبة لشمال إفريقيا"[1]

إن هذه النظرة الواردة عن ديسيرميه مغايرة تماما لتلك التي كانت سابقا نقول بوجود فوارق جوهرية عميقة بين مناطق الجزائر وأنه لا شيء يجمع بين الجزائريين ، بل إن البربر مختلفون عن بعضهم البعض، وكأنها استدركت أمرا أرادت بلوغه ثم رأت اعوجاجه .

إن الغاية من هذا الاستدراك هو إعطاء الأولوية لمجتمع المعمرين في الجزائر ليبرز مجتمعا أرقى يحتذي به الجزائريون جميعهم ، و"أصبح من الواضح أن كتاب بحوث " المجلة الإفريقية" ،"المجلة الإنتروبولوجية" ،"مجلة علم الاجتماع"ومجلة "الفلكلور الفرنسي وفلكلور المستعمرات" يستجيبون في أبحاثهم لمتطلبات سياسية خاضعة لتغيرات ظروف الاستعمار ،حتى وان كانوا يختفون تحت رداء العلم"[2]

وخلاصة القول هي أن المستشرقين الفرنسيين في كل مراحل الاحتلال لم يكونوا في أغلبهم إلا أداة في يد لإدارة المحتل ، تحركهم خدمة لمصالح فرنسا العليا.

كما لقي الشعبي الجزائر اهتماما من طرف بعض المثقفين الجزائريين في مستهل القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كانت حركة هؤلاء نشطة شجعت على العليم و الاهتمام بالكتب و العلماء ، يقول عنها أبو القاسم سعد الله:"ثم شهد القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التأليف ، ففي أواخر القرن المذكور بدأت حركة نشيطة بتشجيع التعليم والعناية بالأوقاف و الاهتمام بالعلماء والكتب ... ولولا الاحتلال الفرنسي لأخذت تلك الحركة في التوسع والنمو وسبقت الجزائر أخواتها بالنهوض والتخلص من ظاهرة الجمود"[3]

ولعل أبرز علماء هذه الفترة عبد الرزاق بن حمادوش (1107هـ-1200هـ) الذي اعتنى بجانب من هذا التراث تمثل في الطب الشعبي الذي كان ملجأ كثير من أفراد المجتمع الجزائري وأفراد المغرب العربي عامة .

---

1) جان دبسيرميه ، عادات ومؤسسات وعقائد الأهالي للجزائر، مطبعة بيتوليطووج ، كاربوفيل، الجزائر ، المجلد1 ، 1939 ، ص 6

2) فيليب لوكاش ، جزائر الأنتربولوجيين ، ص 7

3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1، 1981 ، ص 14

لقد عكف هذا العالم على جمع وتصنيف التقاليد الشعبية في مجال الطب و صـــنفها في كتـــاب عنونه بـــ"كشف الرموز"[1] وترجم لأهميته بعناية خاصة إلى اللغة الفرنسية من طرف"لوسيان ليكليرك L.Leclerc" وقد سار ابن حمادوش في كتابه هذا على طريقة أثارت إعجاب الدارسين من أهل العلم "ولعل مصدر الإعجاب بـــ"كشف الرموز" يعود إلى كون ابن حمادوش قد سار فيه على طريقة واضحة. فبعد المدخل أي النقل عن ابن سينا ، والترتيب الأبجدي ، يأخـــذ في تعريف الدواء ووصفه وأنواع الأسماء الأخرى التي تطلق عليـــه في مختلـــف البقـــاع ،وذكـــر خصائصه وفوائده العامة وفوائده الخاصة، كيفية استعماله والكمية الضرورية فيه ومشتقاته،ومن جهة أخرى يذكر الأمراض التي يستعمل لها الدواء ويتعرض لها الجسم و يحدد منافع كل نبات وغيره"[2]

و لم تقتصر جهود الجزائريين على هذا الموضوع فحسب ، بل أن بعضهم تناول أخلاق الشعب الجزائري ومقومات شخصيتهم ودعا الفرنسيين إلى احترامها غداة احتلال الجزائر ومن هـــؤلاء حمدان خوجة في كتابه "المرأة" الذي لم يطبع و إنما "ظهر في سنة 1833 ، غـــداة الاحـــتلال الفرنسي للجزائر ، في مدينة باريس كتاب يحمل عنوانا باللغة الفرنســـية كالتـــالي Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger وإلى جانبه عنوان المخطوطة العربيـــة التي ترجم عنها وهو"" "[3]

ولما استتب الأمر للفرنسيين بعد إخضاع جغرافيا الجزائر ، والقضاء على منابع التعليم العربي ، ظهر بعض الباحثين الذين تمدرسوا بالمؤسسات الفرنسية بالجزائر وحاولوا محتشمين الاهتمـــام بتراث الشعب الجزائري ، ومن هؤلاء السعيد بوليفة ومحمد بن شنب[4] وفي كل الأحوال يمكن وصف إسهامات الجزائريين بعد الاحتلال إلى أنها إسهامات متواضعة نتيجة للظروف الصـــعبة التي مروا بها.

---

1) المرجع السابق ، ص 447

2) المرجع نفسه ، ص 448

3) عبد الحميد بورايو، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية ، ص 272

4) ينظر المرجع نفسه ، ص 273

المستشرقون الفرنسيون ومقومات التراث الشعبي في الجزائر:

إن زغرودة تطلقها عجوز وقور حين تشيع جنازة رجل مسن ورع، أو رجل علـــم وتقـــوى، أوصاحب فضل ومنزلة، أو حين استشهاد الرجال في المعركة دفاعا عـــن الأرض والعـــرض، جديرة بالملاحظة والاهتمام، جديرة بالنظر والتأمل، وجديرة بالعجب وطرح السؤال، مابـــال هذه الأمة تسوي بين الأفراح والأتراح، كيف لهذه الأمة تستقبل القادمين على الحياة، المقـــبلين عليها فرحين، بالزغاريد، وتودع التاركين لهذه الدنيا، الراحلين عن الأحبة بالزغاريد، ما مصدر هذا الاعتقاد، وما منبع هذا الشعور؟.وكيف تشكلت الرؤى؟ وكيف توارثته الأجيال؟.

إن العجب يزول والأسئلة لا تجدي، إذا عدنا إلى مراحل تشكل هذا التراث الذي لم يكن وليد مرحلة واحدة من مراحل تاريخه الطويل، إنما كان خلاصة تجارب جمة، مستوحاة من حضارات متنوعة تعاقبت على أرض الجزائر، وكان لكل مرحلة آثارها وبصماتها، و أهم هذه المراحـــل وأخرها، هي تلك التي عادت فيها هذه أرض الجزائر إلى عذريتها، واتخذ أهلها الإسلام دنيـــا وعقيدة، ومن وقتها سرت في عروق هذه الأرض وأهلها، دماء جديدة، قوامها الثقافة العربية، المرتكزة على أساسين متينين لا يتبدلان، الإسلام والعربية، هذه الثقافة التي هـــذبت الجميـــل، وعطلت القبيح، ومع الزمن شكلت منها الأجيال ميراثا تتناقله، وحافظت عليه.

إن هذه الثنائية كانت تميزا وهوية،شكلت الإنسان الجزائري الجديد،فأصبحت روحه العقيـــدة الصافية، وجسده اللغة العربية، ولأن هذا البناء مزيج من عنصرين عظيمين شريفين مميزين عن كل ما في الوجود من أمثاله بالعزة والشموخ، كان نتاجهما شامخا، وكان معتنقهمـــا شـــامخا أيضا.

ولأن الجزائر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الإسلامية، فإن تراثها يشكل حلقة ضمن سلســـلة من الحلقات المتكاملة، المتشابهة المترابطة، المشكلة للحلقة الكبرى الموجودة، وهـــذه الحلقـــات تزينها بعض الخصوصيات البسيطة التي أملتها ظروف التاريخ والجغرافيا.

والحال هذه كان على المستشرقين الفرنسيين ومن ورائهم إدارة الاحتلال أن يوجهوا ضـــرباتهم إلى جذور هذا التراث وحضارته، إلى أسباب وجوده، إلى الدين الإسلامي واللغة العربية.

كان الإسلام ولا يزال شغل المستشرقين في البدء وفي الختام، بوجـــوده ظهـــر الإستشـــراق، وباشتداد الصراع بين الغرب والمسلمين انتشر وازدهر،وبانتشاره وعلو همة المسلمين ازداد حقد

المستشرقين، وبتدهور حال المسلمين اطمأن بالهم، وكثفوا هجوما تهم ترغيبا في غيره وترهيبا منه.

الإسلام عند المسلمين هو: " الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله"[1] أما عند الغرب عامة وعند المستشرقين خاصة هو دين العرب إن اعترفوا به، لأن معظمهم لا يعترفون به كدين سماوي،وهو في نظر المقرين بوجوده أديان وتيارات مختلفة، فهناك الإسلام التقليدي أو الشعبي، وهناك الإسلام الثوري، وهناك المعتدل، وهناك الإفريقي، وهناك الجزائري... غير أن بعضا من المستشرقين أنصفوا هذا الدين.

والإستشراق الفرنسي لم يشذ عن هذه القاعدة، إلا أن السمة البارزة التي وسمت أغلب المستشرقين الفرنسيين المرافقين لإدارة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ورغم اختلاطهم بالمسلمين الجزائريين وإطلاعهم عن كثب وقرب على حياتهم الدينية لم ينصفوا هذا الدين، لأنهم كانوا في خدمة الاستعمار قبل أن يكونوا رجال بحث وعلم، والاستعمار كان قد أعلن عداءه للإسلام لأنه أعتمد " على مخلفات الحروب الصليبية في المشرق وفي الأندلس"[2]

والحروب الصليبية لم تعبر إلا عن الحقد والكراهية، و لم يكن لها من هدف غير القضاء على الإسلام ومعتنقيه ،ونصرة المسيحية ونشرها، وباعتبار أن الجزائريين مسلمون فإن " الإسلام هنا كالإسلام هناك"[3] وهكذا فسكان شمال إفريقيا ومنهم الجزائر يعتبرونهم " مسلمين متعصبين وشرقيين معادين للأوروبيين"[4] تلك كانت نظرة الفرنسيين قبل الاحتلال وازدادوا قناعة واقتناعا بها بعده وجسدوا هذا الحقد واقعا ملموسا مشهوداً، إنهم في كل الأحوال أتباع للمشركين الأولين الذين قال القرآن عنهم " وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "[5].

1- محمد بن عبد الوهاب،الأصول الثلاثة وأدلتها،تحقيق إشراف عبد المقصود عبد الرحيم،دار الرضوان،الرياض، 1411هـ، ص23

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ص300

3 - المرجع السابق ص 300

4 - المرجع السابق ص 300

5 - سورة البقرة الآية 109

فالفرنسيون الذين استوطنوا الجزائر محتلين زمنا طويلا لم يسلم منهم على كثرة عـــددهم" إلا فرنسي ونصف" [1] فرنسي ونصف طيلة قرن وربع، بينما اعتنق هذا الدين ملايين البشر في أنحاء المعمورة" أما الفرنسي الذي اعتنق الإسلام فهو ايتيان دينه الذي سمى نفسه ناصر الدين... وأما نصف الفرنسي...فهو توماس أوريان الذي سمي (إسماعيل عربان)"[2]

إن ضرب الإسلام كان هدف المستشرقين الفرنسيين في الجزائر، كيف لا وهم في خدمة المحتل، شاركوه جرائمه وصمتوا أمام انتهاكاته لحرمة المقدسات، ألم يكونوا شهودا – وهم أعـــرف الفرنسيين بالمقدسات على " غلق ثلاثة عشر مسجداً كبيراً، ومائة وثمانية مســـاجد صـــغيرة، واثنتين وثلاثين جامعا، واثنتي عشر زاوية، وبتاريخ 18 ديســـمبر 1832 م حـــول مســـجد كتشاوة إلى كاتدرائية " سيدة الجزائر" بعد أن قتل الفرنسيون حوالي أربعـــة آلاف جزائـــري اعتصموا بداخله منعا لتحويله إلى كنسية "[3].

هذا قليل من كثير قدمه الاحتلال هدية للجزائريين بعد احتلاله أرضها مباشرة،ثم ألم يكونـــوا شهودا أيضا على ما جاء في خطاب واحد من أكبر قادة جيش فرنسا بمناسبة تحويل مســـجد صالح باي بقسنطينة إلى كنسية :" إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لـــن يكون للجزائريين إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تمتلكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا مواطنين لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسحيين جميعا"[4]

الإستشراق والتنصير:

التنصير، التبشير، التمسيح، مترادفات لمعنى واحد "إقناع المسلمين بلغتهم بـــبطلان الإســـلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي"[5].

التنصير هو إذن، إقناع المسلمين بلغتهم واجتذابهم إلى الدين المسيحي، وهذا حقُ مشـــروع في ظاهره، فكل صاحب عقيدة يغار عليها، ويدعو إليها، ويأمل أن تنشر يوما لتعم البشرية قاطبة،

---

1 – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج6 ، ص 431

2 – المرجع السابق ص 431-433

3 – الطيب بن إبراهيم ، الإستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر ، ص 84

4 – صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، الزيتونة للإعلام والنشر، 1989 ، ص 205

5– مصطفى ماهر، الدارسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة 1967 ، ص11

إلا أن الإقناع يتطلب حجة ودليلا يصدقهما العقل، وتطمئن إليهما النفس، فالمسلمون حينما دعوا البشرية إلى دينهم خاطبوا العقول النيرة، خاطبوا الملوك والأمراء وأهل العلم، بينما لم يخاطب المسيحيون إلا الجهلة والمستضعفين، واستغلوا فقرهم وجهلهم وحاجتهم، ولم يركبوا في ذلك منهج العلم القويم، إنما ركبوا مطية الافتراء والكذب والتدليس، ولأنهم كذالك حذر القرآن الكريم أتباعه منهم، وحرم طاعتهم، قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ "[1] كما حرم عليهم موالاتهم، لأن من يواليهم يصبح منهم، قال عز وجل :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "[2].

وإذا عدنا إلى تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر وجدنا تحالفا رهيبا قد حصل بين ساسة فرنسا ومستشرقيها ومبشريها، فالجميع كان يهدف إلى خدمة مصالح فرنسا العليا، ومصلحتها أن تبقى الجزائر تابعة، ولتكرس التبعية وجب تنصير الجزائريين، بل وجب إخراجهم من دينهم ولو إلى اللادين، إلى أي ملة، لأن بقاء الإسلام في الجزائر يشكل خطرا على فرنسا، قبل أن يكون خطرا على المسيحية.

وقد يقول قائل : ما علاقة الإستشراق بالتنصير أو التمسيح ؟ وأي منهما خدم الأخر ؟وأيهما أسبق ؟ وما علاقة الاثنين بالاستعمار؟

والإجابة على هذه التساؤلات المشروعة نلمسها في العالم الإسلامي عامة وفي الجزائر إبان الاحتلال خاصة.

ففي الجزائر تحالفت هذه القوى جميعها وأصبحت يدا واحدة فتاكة تبطش بالعقول قبل الأبدان، فكان الإستشراق في خدمة التنصير،وهو دوما كذلك،لأن الداعين إلى النصرانية بحاجة إلى معرفة الأخر، معرفة لغته، وعقيدته، وتاريخه، وثقافته،وتلك كانت مهمة المستشرقين الأولى، فالداعي إلى النصرانية لا بد له من منافذ يتسلل منها، ولابد له من سلاح يتأبطه، وسلاحه ومنافذه هي سموم المستشرقين وإدعاءاتهم الباطلة حول الإسلام وأهله.

إن الإستشراق والتبشيركليهما وجهان لعملة واحدة، يتكاملان، ويهدفان فإن إلى غاية واحدة، المستشرق ينظر، والمنصر ينفذ.

---

1 – أل عمران الآية 100

2 – المائدة الآية 51

والدارسون يرون أن التنصير أسبق من الإستشراق، و " تاريخ التسيير المسيحي، يرجع إلى صدر النصرانية ومبتدأ تأسيسها "[1] وما لبثت الدعوة إلى النصرانية أن تحولت إلى استشراق، فأصبح المستشرقون منصرين، والمنصرون مستشرقين، وكلاهما خدم الاستعمار سراً وعلانية .

ولاشك أن المتصفح لتاريخ العلاقات بين الغرب المسيحي والشرق المسلم يلمس أن المسحيين جربوا كل أنواع الأسلحة بهدف تدمير العقيدة الإسلامية،وكانت البداية بالمكر والدسائس في بداية الدعوة، إلا أن قوة إيمان الأوائل من المسلمين حال دون تحقيق أهدافهم، ثم كانت الحروب الصليبية واستخدام الغرب المسيحي قوة السلاح، فجيش جيوشه لاحتلال الأرض وإذلال الأمة، ولاقى في رحلته هذه معاناة لم يستطيع لها صبرا، وخسائر لم تستطع لها حملا، فالمقاومة تحت لواء مجاهدة المشركين لم تنطفئ شعلتها يوما وكان ختامها مسكا، حيث اندحر هؤلاء، لكن إلى موعد لاحق.

فكر الجميع في الأمر ساسة ومستشرقين وقادهم فكرهم إلى أن ضرب الإسلام لن يكون إلا بالحيلولة بينه وبين أتباعه، عندها فقط يخلو الجو، ويحقق الجميع أهدافهم، وليس هناك من سلاح أنقذ في اعتقادهم إلا التبشير.

إن المبشرين لن يفلحوا أبدا إلا إذا ضعفت الأمة، ولن تجدي دعواتهم إلا في ظل الاحتلال، ومادام الأمر بهذه الصورة، تحول القساوسة إلى دعاة استعمار، " فقد أصدر البابا نيقولا الخامس مرسوما في عام 1454 يعطي للبرتغاليين حقا في أراضي الكفرة على الساحل الغربي لإفريقيا، وأكد ذلك البابا كالكستس الثالث عام 1456، ثم أصدر البابا إسكندر الثالث في عام 1493 مرسوما يمنح التاج الإسباني الحق المطلق في المتاجرة مع البلاد التي اكتشفت، ووضع قيدا وهو أن تجلب تلك الشعوب إلى المسيحية"[2].

و إذا أخذنا هذه المواقف مستقرئين الحال، أدركنا أن الحروب الصليبية مازالت مستمرة بنفس الروح مع تجدد اللباس، مازال الحقد يحرك الصليب،والألوان تتعدد، فلكل مرحلة ماينا سبها، إنهم اليوم يريدون استرجاع كل شبر ضاع من الكنيسة –حسب زعمهم- ويبذلون لذلك جهودا، وينفقون أموالا لو بذلت خدمة للإسلام بأشرف الوسائل وأنبلها لكان له فتح عظيم

---

1 – أ.ل شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص 22

2 – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها،التبشير،الإستشراق،الإستعمار، دار القلم بيروت،ط1 ص170

بلا صراع ولا حرب، ولا خداع أو نفاق، يقول القس مبيز:"إن الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشرونا من القرن السابع عشر لاتزال مستمرة أيامنا هذه"[1]

ويقول اليسيوعيون " ألم نكن نحن ورثة الصلبين ...أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف الشرب البشري والتحدي المسيحي ...وهكذا تستطيع الكنيسة المسيحية بلا حرب أن تسترد تلك المناطق التي خسرتها منذ أزمان طويلة"[2]

وكانت الجزائر مستهدفة منذ أسلم شعبها، وازداد تكالب المنصرين حين احتل أرضها الفرنسيون، فالمنصرون لم يكونوا إلا الوجه الأخر للإستشراق والاستعمار معا، لأن جهودهم كانت مركزة على نظرة الاستعلاء، وهي نظرة المستشرقين والمحتلين، كانوا ينظرون إلى المسلم على أنه رجل مختلف ومتخلف، متغطرس همجي، و السبب كما يدعون هو إسلامه، يقول ستيفى ميل"في القرن التاسع عشر خضع المبشرون إلى العقد الاستعمارية التي تقول بأن الرجل الغربي فقط هو الإنسان بكل ما تعنيه الكلمة"[3].

إن عقدة التفوق عند الغرب سبب مآسي كثير من الشعوب،عقدة انتقلت عدواها من المستعمر إلى المبشر إلى المستشرق و وحدهم لمحاربة الإسلام في كل أرض ،وهذا ما انطبق على حال الجزائر إبان الاحتلال، فالمحتل استوطن الأرض وهجر أهلها بقوة الحديد والنار، وشكك في تاريخ الجزائر، عقيدة وثقافة، ونظاما وتاريخا، والمنصر نفذ ما رآه المحتل والمستشرق ضرورة لتبقى السيطرة،ويبقى الاستغلال، ويبقى البؤس والحرمان.

لقد كان هدف الجميع محاربة الإسلام، فقد ذكر الكاتبان الفرنسيان كوليت وفرانسيس جانسون فقالا:" لعل العبث بالدين الإسلامي كان هو المجال المفضل لدى القائد الفرنسي روفيجو، فقد وقف هذا القائد الفاجر، ونادى في قومه: أنه يلزمه أجمل مسجد في المدينة ليجعل منه معبدا لإله المسحيين،وطلب إلى أعوانه إعداد ذلك في أقصر وقت ممكن، ثم أشار إلى جامع كتشاوة فحوله إلى كنسية بعد شلالات من الدم، وسمى"كاتدرائية الجزائر"[4]

---

1 – أحمد عبد الوهاب ، التبشير بين الماضي والحاضر ،دار النشر ،جدة،1401هـ ،ص120

2 – محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع ،الدار السعودية للنشر ، جدة 1407هـ ، ط2 ،ص37

3 – أحمد عبد الوهاب، التبشير بين الماضي والحاضر، ص129

4 – **مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية،منشورات المكتبة العصرية، صيدا،لبنان،1938، ص127**

لقد جاء المستشرقون والمنصرون مع الاستعمار إلى البلاد العربية والإسلامية ومنها الجزائر، وهؤلاء المستشرقون والعسكريون لهم عقيدتهم الدينية، أنهم نصارى قبل أن يكونوا باحثين أوحاكمين، حتى وان ادعى الفريق الأول الموضوعية العلمية وأدعى الفريق الثاني العلمانية، وهذه الإدعاءات خدعت كثيرا من العرب والمسلمين، وتبنوا آراء المستشرقين أحيانا ودافعوا عن أفكاره، كما حيدوا المحتل عن وظيفته الدينية، ويسروا الأمور للمبشرين ليجولوا عرض البلاد وطولها داعين إلى النصرانية، وهؤلاء هم الذين أطالوا عمر الاستعمار، وأوجدوا للمستشرقين في أرائهم ركائز يستندون عليها في حججهم.

وإذا عدنا إلى العلاقة بين الإستشراق والتنصير نجد أن "عشرون من تسعة وعشرين من المستشرقين كانوا رهبانا أو عاملين في الإدارة، والنصارى يزعمون أن تنصير غير المسحيين أمر صدر إليهم من المسيح حين دعاهم إلى الذهاب إلى جميع الأمم لنشر دينه، ومر التنصير بمراحل مختلفة مرتبطا مع الإستشراق، متأثر بالأحداث التي شهدتها أوربا في علاقتها بالأمة الإسلامية خاصة"[1].

وفي القرن الثامن عشر توافدت الحملات التبشيرية على البلاد الإسلامية مستغلة ضعف الخلافة العثمانية، وتجمعت أحقادهم واجتمعت في مالطا سنة 1815، ليضعوا الخطط المناسبة والبرامج المحكمة لتنصير الأمة العربية المسلمة " وأرادوا من خلال انتشارهم في الشرق الإسلامي تعويض الخسارة التي لحقت بالكنيسة في أوربا أمام موجة الحضارة الجديدة الناشئة في الغرب"[2]

عجيب أمر هذا الغرب، وأشد منه عجبا تآلف الأضداد عنده وانسجامها عندما يتعلق الأمر بمصالحه، وتحقيق السيطرة والتفوق على غيره من الأمم، كيف يلتقي فيه قساة القلوب، المتحجرة أفئدتهم، العمياء بصائرهم، من العساكر الغزاة المحتلين، مع من ادعوا العلم من المستشرقين، كيف يركبون كل سوء هؤلاء وأولئك، ويتجردون من كل القيم، ويجتمعون على مائدة واحدة متناسيين ما بينهم من اختلاف وخلاف؟

---

1 – إبراهيم عكاشة ، ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العرب، إدارة الثقافية والنشرة بجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية ، 1407هـ ،ص55

2 – المرجع نفسه ،ص 55

ألم تكن فرنسا بثورتها قد وقعت على ميلاد العلمانية، وأكدت على حرية المعتقد، ووضعت التعرض لأي شخص يسبب أرائه وأفكاره مما في ذلك الدينية؟ في حماية القانون كيف لها أن تقر بذلك، وتتناساه عندما يتعلق الأمر بغيرها ؟.

قد تتفهم وسائل الساسة المحتلين وعساكرهم، أولئك الذين لا هم لهم إلا تحقيق أهدافهم بأي ثمن وأي وسيلة، ولكن لا نتفهم رجل العلم ولا نجد له أعذاراً،إلا إذا قصد الحقيقة وأخطأ، والأدهى والأمر من هؤلاء وأولئك،موقف رجال الدين، يستغلون حرمان وبؤس الفقراء وبؤسهم ويتم الأطفال لأبعادهم عن دينهم، وليثبتوا أن انتسابهم للمسيحية مجرد ادعاء زائف، تستروا به لاستغلال الناس والسيطرة على الشعوب.

إن الجزائريين في محنتهم مع المستعمر لم يواجهوا جيوش المستعمرين فحسب، بل واجهوا جيوشا عدة، فأمر حامل السلاح هين، لا يتطلب إلا رجالا ذوي بأس وحرب، والجزائريون هم لذلك أهل، ورثوا القتال، وتربوا على الشهادة جيلا عن جيل، ثم إن خطر هذه الجيوش الحاملة للبنادق والسيوف لا يتعدى الجسد، لا يتعدى الحياة المادية، والأخطر من هؤلاء أولئك الذين كانوا يحملون الدواء والخبز والكساء في يد والصليب في اليد الأخرى .

بداية التنصير أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر:

لن نكون مبالغين إذا أجزمنا أن الحملة الفرنسية على الجزائر كانت لأهداف دينية أيضا، بل أن العامل الديني كان من أقوى العوامل، فاسترجاع البلاد التي ضاعت من المسجيين أثناء الفتح الإسلامي، ظل حلما يراود الكنيسة، ويحفز الساسة، فقد وعد كليرمون تونير في تقريره إلى شارل العاشر" بأن الحملة ستحقق انتصار الكنسية الكاثولكية على الإسلام واستعادة المسيحية على إفريقية " الجزائر" كما كانت قبل الإسلام"[1] وبعد الحملة، ورغم إدعاء الفرنسيين أنهم علمانيون، لم تغيب الشعائر الدينية، والسلوكات المسيحية عن تصرفات جنرالات الاحتلال و"إقامة القداسات بعد معارك "النصر" لشكر الله على رضاه وتوفيقه ضد" الكفار"المسلمين، وإحاطة القساوسة بالإلهة وإدخالهم إلى مراكز نشاطهم مرفوقين بالفرق العسكرية ....."[2]

---

1 – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر ، ج 6 ص 106

2 –المرجع نفسه ،ص 106

ومثلما كانت طلائع المستشرقين من العسكريين، كانت طلائع المبشرين منهم، لقد رافق الجيش الفرنسي، رجال دين يمثلون الكنسية بدعوى الاهتمام بعقيدة جنود المحتل إلى حين.

وقد لعبب الرهبان الدين رافقوا الحملة الفرنسية دورا كبيرا في نشر المسيحية في الجزائر، وتعبئة ضد الاحتلال بروح الصليبية، واستمر هذا الأمر حتى سنة 1838 وهي السنة التي عين فيها السيد أنطوان دوبوش أسقفا في الجزائر، وكان تعبئة الانطلاقة الحقيقية للتنصير.

لقد وجد "دوبوش قبلة سبعة قساوسة، منهم أربعة في العاصمة، واثنان في عنابة وواحد في وهران "[1] وخلال فترة قصيرة، وبفضل المساعدات التي تلقاها وخاصة من سلطات الاحتلال استطاع "بناء 60كنسية ومعبداً و16 مؤسسة دينية "[2] كما استطاع أن يجند "91 قسيسا، و140 إطاراً من النساء والرجال في الشؤون الدينية "[3] وكانت نهاية هذا للأسف مأساوية، فقد كان مغامرا فعليا مبذرا، وهذا مادفعه إلى الاستقالة، ثم سجن، ثم فر إلى إيطاليا ثم إسبانيا.

خلف دولوش الأسقف باقي، وكان عهده عهد اضطراب، واستمر في الأسقفية من 1846 إلى 1866 وكانت له عدة إنجازات،ودعم النظام المدني الذي كان يقف وراءه المستوطنون سياسة التنصير، خاصة بعد أن خلف لافيجرى الأسقف باقي، واستطاع مابين 1876 و1878 تأسيس أكثر من 49 كنسية و25 خورنية وكان من أبرزها كنسية سان جوزيف بباب الوادي وكنيسة سان شارل باغا، وقد وجد الدعم المطلق من طرف الإدارة الاستعمارية وعلى الخصوص دعم المعمرين المطلق له مما سمح له بتأسيس 68 كنسية في كل قرية، و رأت الإدارة الاستعمارية أنه من الضروري تنصير الشباب الجزائري ولا يتأتى ذلك إلا من خلال بناء كنائس في القرى العربية، انطلاقا من فكرة تعميم النشاط التنصري على مستوى المدن والقرى وحتى المداشر النائية الجزائرية وقد قال المطران لافيجرى حول هذا الموضوع مايلي:

" انطلاقا من السيدة الإفريقية ستشهد الجزائر سريان النشاط التبشري في القبائل والشلف وفي الصحراء" و ابتدءا من 1871 تكفلت جمعية أخوات العناية الإلهية المسيحية – دور بيوفيل – بالمدارس والملاجئ في كل من برج منايل وتيزىوزو وكما قامت جمعية – سان جوزيف دوسان جون دوموريان – بفتح مدرسة دينية حرة بمدينة قوراية قرب شرشال ولإنجاح عملية

---

1 – نفسه ، ص 108

2 – نفسه، ص 108

3 –نفسه ، ص 108

التنصير بين الأهالي وضع دستور التبشير الذي له قوانين تضبيط نشـــاط المكلفـــين بالعمليـــة التنصيرية "كما وقفت الإدارة الاستعمارية موقفا مشجعا تجاه تنصير الأهـــالي، مـــن خـــلال مساعداتها المطلقة لنشاط الآباء والأخوات البيض وكل الجمعيات الدينيـــة، حيـــث وصـــلت المساعدات الرسمية على عهد الحاكم العام شانزي عام 1874 إلى 90.000 فرنك في حـــين وصلت قيمة ما منحته الغرف البرلمانية عام 1874 إلى 445000 فرنك إلى جانب ماكـــان يعطى من الميزانية التصحيحية وحتى الوزارات في باريس ساهمت بقدر كبير في إنجاح التنصير في الجزائر حيث قدمت وزارة الخارجية مساعدة سنوية قدرت ب 60.000 فرنك ، أما وزارة التربية فقد قدمت مساعدة سنوية كذلك قدرت ب 70.000 فرنك عام 1883. وكذلك وزارة الشؤون الدينية فقد قدمت بدورها مساعدة سنوية بلغت عام 1884 50.000فرنك كما أسهمت العائلات الباريزية في دعم سياسة التنصير ومن أبرزها عائلة –الكونت دوشمبور– وهو من أرة آل بريون والذي منح المطران لافيجرى عام 1880مبلـــغ قـــدره 100.000 فرنك، وكذلك الحاكم العام حول كامبون الذي قدم مبلغ 60.000 فرنك لتصل مســـاهمة الإدارة الاستعمارية إلى أسقفة الجزائر ما مجموعة 10.000.00فرنك وقد اعتمدت سياســـة التنصير على عدة عوامل أساسية استغلت لتحقيق نتائج إيجابية في خلق جيل منصر مسيحي من الجزائريين، ومن هذه العوامل:

1–الأوضاع الاجتماعية المزرية

2–فقر المناطق الاقتصادية

3–الأوضاع الطبيعية من كوارث ومجاعات وأوبئة"[1]

وهذه الأوضاع ساعدت المنصرين على أداء مهامهم فالظروف سانحة، ودفعت بلا فيجري إلى إعداد برنامج خاص يضبط المنصرين عامة، وليضمن بنجاح العملية، وصفت إدارة الاســـتعمار مجموعة من المؤلفات سهرت على جلبها م فرنسا خاصة تعليم المســـيحية، ولإضـــفاء طـــابع المسيحية على البرامج التعليمية اتبعت الأساليب الآتية.

1– استخدام نصوص مستخرجة من الإنجيل تلقن لأبناء الأهالي في المدارس

2– تدريس مادة الديانة المسيحية على شكل حصص خاصة

1- المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 2004 cnerh-nov54.dz
http://www.1novembre54.com/tarikh_djazair.php

3- وضع مطبوعة بالعربية خاصة بالتربية الدينية

4- إنهاء البرنامج الدراسي اليومي بترتيل الجزائريين لبعض النصوص الإنجيلية.

وبعد لافيجري جاء شارل دي فوكو ليشغل المنصب الرسمي إلا أنه لم يستطع أن يلعب الدور الذي لعبه لافيجري، " ولكنه بلغ درجته في الشهرة والخدمات التي أداها للكنيسة من جهة والإدارة الاستعمارية من جهة أخرى"[1] وهكذا استمر نشاط البعثات التنصيرية وازداد قرة بعد الاحتفال المئوي لاحتلال الجزائر سنة 1930.

1 – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6 ص133

الإستشراق الفرنسي واللغة العربية في الجزائر:

محاربة تعليم اللغة العربية :

من أهداف الاحتلال الفرنسي للجزائر المعلنة " تمدين"[1] الشعب الجزائري" المتوحش" الـــذي لا علم له ولا حضارة ولتحقيق هذا الهدف يجب فرنسة الجزائريين، بإبعادهم عن دينهم، وطمس معالم شخصيتهم، وضرب لغتهم، والقضاء على كل مايمت إلى انتمائهم بصلة، ولذلك ارتكب المحتل جيشا وإدارة مجازر متنوعة مست كل صعيد، بدءا بقتل الجزائريين وتشريدهم ومصادرة أراضيهم وحقهم في الحياة ،إلى هدم مساجدهم، و الاستيلاء على أوقافهم، واضطهاد دينـــهم، وإغلاق مدارسهم، إنها حرب شاملة، يتعاون فيها الساسة مع العسكريين، ويدعمهم أهل العلم والفكر والقانون لتحقيق هذه الخطط الخبيثة، ولأن اللغة العربية واحدة من ركـــائز الشـــعب الجزائري، وسر بقائه مرتبطا بعقيدته، لجأ بكل الوسائل إلى أن يحيل بينها وبين بيئتها الجزائـــر، ويغرس محلها نبتة خبيثة هي اللغة الفرنسية.

لقد أدرك الاحتلال الفرنسي أن اللغة لها علاقة وثيقة بالثقافة، وهذه الأخيرة تشكل وعاء الهوية ،ومحتضن الشخصية الوطنية لأي شعب، كما أدرك أن فاقد لغته فاقد لشخصيته وهويته، فالفرد يتأثر بلغته بالغ الأثر، ويضل هذا التأثير شاملا لطرق تفكيره وتصوراته ومشاعره وســـلوكاته، وهذه عماد تشكيل تراث الأمم،وعليه سعى إلى محاربة العربية وفق منـــهج مـــدروس يشـــمل الميادين عدة على رأسها التعليم

صحيح أن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، لم ينل حظه من العناية والاهتمـــام مـــن طرف العثمانيين الذين لم ينشئوا وزارة لهذا الغرض، و لم ينشئوا مؤسسات تتكفل بهذه المهمة، إلا أن الجزائريين كانوا قد تكفلوا بهذا الأمر أفرادا وجماعات، فالزوايا والمساجد لعبت دورهـــا كاملا، وكانت منارة للعلم " وهكذا كان انتشار التعليم خلال العهد العثماني أصيلا حتى غطى المدينة والقرية والجبل والصحراء"[2] وما يؤكد هذه الحقيقة ذاك التصريح الصادر عن " ديستي"[3] المسؤول عن التعليم العمومي في الجزائر حيث قال:"كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخليـــة،

---

1 -أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ، ص 133

2 - المرجع نفسه ، ص 315

3 - ديستي: أي مديرية مراقبة الإقليم الفرنسي، وهي نوع من المخابرات المختلطة من الجيش والمدنيين.

وحتى أوساط القبائل كثيرة ومجهزة بشكل جيد، وزاخرة بالمخطوطات، ففي مدينة الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد يجرى فيها التعليم مجانيا، وتتقاضى أساتذتها أجورهم من واردات المسجد، وكان من بين مدرسيها أساتذة لامعون تنجذب إلى دروسهم عرب القبائل "[1].

ولما حل الاستعمار استولى على المساجد والأماكن المخصصة للتعليم وجعلها لخدمة جيشه وإدارته، كما أن كثيرا من هذه المؤسسات التعليمية أغلقت أبوابها لاستشهاد القائمين عليها في المعارك ضد العدو، أو لرحيلهم وانتقالهم إلى أماكن آمنة خوفا على حياتهم وأهاليهم، و لم تكتف سلطات المحتل بهذا بل سنت كثيرا من القوانين بعضها يتعلق بحرية تنقل الأشخاص،فأعاقت طلبة العلم من الرحيل إلى حيث منارات العلم المشهورة داخليا وخارجيا، وبعضها يتعلق بسياسة المحتل ذاته الهادفة إلى تحقيق مآربه، وهي كثيرة، وهكذا منع فتح المدارس العربية منذ صدور قانون 1892/10/18 الذي يقضي بالحصول على رخصة من السلطات الفرنسية، ولا تكون هذه الرخصة إلا بعد الاستعلام عن صاحب الطلب، وقبوله بقوانين الاحتلال،واطمئنان المحتل له، كما صدرت سنة 1904 قانونا " يمنع فتح أي مدرسة لتعليم القرآن إلا بترخيص من السلطات، وإذا ما سمح لصاحبها تبعا للشروط السابقة فإنه يمنع عليها تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها"[2].

وبالإضافة إلى هذه القوانين الجائرة، استولى المحتلون على الأوقاف فحرموا المساجد من موردها المادي الذي يسندها، فتناقص مردودها وتراجعت فعاليتها،وليكتمل الهدف أطلقت فرنسا مشروعها الفرانكفوني الذي شمل الجزائر واجتهد دعاته لتغريب أهلها.

ازداد المحتل قناعة بأهمية اللغة في حياة الشعوب حين أطلق مشروع الفرانكفونية، هذا المصطلح الذي يعود إلى عالم الجغرافيا الفرنسي "Onesime Reclus " الذي أطلقه في أواخر القرن التاسع عشر سنة 1880 ويدل هذا المصطلح على مجموعة تستعمل اللغة الفرنسية بأشكال مختلفة سواء من البلدان أو الأشخاص، ويقول في هذا الشأن: الفرانكفونية[3] " فكرة لسانية

---

1 – عبد الحميد زوزو نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 / 1900) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 206

2 – تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1970 ص151

3 – الفرانكوفونية:هي منظمة تأسست في 20 مارس 1970 من طرف المستعمرات الفرنسية المساهمة و الشعوب الناطقة بالغة الفرنسية بمبادرة من ثلاثة رؤساء افارقة هم الحبيب بورقيبة التونسي وليوبولد سدار سنغور السينيغالي، وعيسى حماني

وعلاقة جغرافية "[1] وهذه الفكرة اللسانية والعلاقة الجغرافية ما هي إلا تيار غريب استحدث من أجل الهيمنة وتشتيت الأمم، وإيجاد أتباع لفرنسا من أي أرض يصلها هذا المشروع، ومـــازال الشعب الجزائري يعاني ويلاته إلى اليوم.

انه "مشروع منظمة غربية لا تعبر بالنسبة إلى الأمة عن هوية ولا أمن ولا مصلحة ولا أمل، بل قامت على إنشائه الدولة الفرنسية بسلطتها، وتوجهه الدولة الفرنسية بأدواتها، وتديره الدولـــة الفرنسية بأجهزتها"[2]

ومن أجهزتها إدارة المحتل، هذه الإدارة التي جعلت اللغة العربية غريبة في أرضها الجزائـــر، إذ لم تكن إبان فترة الاحتلال "لغة التعليم في المدارس الحكومية، ولا لغة الثقافة ووسائل الإعلام، ولا لغة الإدارة والمعاملة في إدارة الاحتلال الفرنسية، بشكل مقصود، إلى أنها لم تكن لغة الوســـط الاجتماعي الذي تم فرنسته بشكل مقصود وشبه كامل في كل المدن والقرى الجزائرية، وكانت الجزائر قطعة أو ولاية من ولايات فرنسا"[3]، وبهذا التصنع أرادت فرنسا أن تحول الجزائريين إلى فرنسيين ولكنهم عبيد، أو تحولهم ضمن مشروعها الفرانكفوني إلى أتباع " يتقنون اللغة الفرنسية ويقرؤون الأدب الفرنسي ويسمعون إلى الموسيقى الفرنسية ويعرفون تاريخ فرنسا وإعلامها عبر التاريخ، ويترجمون لأشهر الكتاب والمفكرين إلى لغاتهم الحديثة "[4] وبهذا نجد أن فرنسة الجزائر كانت من خلال محاربة اللغة العربية وهذا بالقضاء على المدارس والمعاهد والكتاتيـــب، كمـــا استحوذت خلال توسع جيش المحتلين على كل ما عثرت عليه من كتب ووثائق " وتوجهـــت فرنسا سياستها هذه بإصدار قانون حكومي رسمي تعتبر فيه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر"[5].

ديوري النيجيري ، بالإضافة إلى نورودوم سيهانوك أمير كمبوديا وفرنسا وقد عرفت المنظمة توسعا إذ وصل عدد أعضائها إلى 86 دولة. للمزيد أنظر: http://ar.wikipedia.org/wiki/ .

1 – بن سالم حميش" الفرانكفونية والفرنسية " المستقبل العربي العدد 255 أيار 2000 ص33

2 – محمد حسين هيكل" الفرانكفونية وإخواتها" مجلة الكتب وجهات نظر العدد 28 أيار 2001 ص 7

3 –مصطفى المسناوي، الفرانكوفونية كأداة تفجير الهويات الثقافية، مجلة العربي. العدد551 . أكتوبر 2001. ص73

4 – مجلة الأهرام العربي. "تقرير عن احتفالية فرنسيون يعشقون القاهرة يطرح سؤال : هل أصبحت الفرانكوفونية الاختيار الثقافي لمصر؟"، العدد225، تموز 2001، ص78.

5 – تركي رابح "الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر،ط3 الشركة الوطنية للنشر 1981 ص150

إن القضاء على اللغة العربية التي تشبث بها الشعب الجزائري لا يمكنها أن تتم بـــإحلال اللغـــة الفرنسية محلها من خلال هذه القوانين الجائرة، ولذلك سعى الاحتلال إلى عملية أمر وأســـوأ وهي تجهيل الجزائريين حتى يتسنى للمحتل السيطرة عليهم.

وهكذا " عملوا على حصر أبناء الجزائر في نطاق ضيق للغاية حيث حرموهم من تعلم لغتـــهم وثقافتهم العربية، وفي الوقت نفسه لم يعلموهم اللغة الفرنسية، فالمدارس التي كان يتم إنشاؤها للجزائريين كانت أيضا تتماشى مع سياسة التجهيل"[1].

ورغم كل ما أبذل حافظت اللغة العربية في الجزائر على وجودها إلى يومنا، بفضل جهود قلـــة من المحصلين، وبفضل تمسك الشعب الجزائري بلغته، ولعبت الزوايا والمساجد والكتاتيب دورا فعالا، كما كان للمدارس التي أنشأها الاستعمار بعض الفضل، فالمحتلون أنشـــئوا " ثـــلاث مدارس ثانوية باللغتين العربية والفرنسية عام 1850 مع التركيز على اللغة الفرنســـية، ولقـــد كتب لهذه المدارس أن تخرج عددا من الجزائريين المختصين في الصحافة والتعليم والترجمة"[2].

ويضاف إلى هذا تلك المجهودات الجبارة التي قامت بها بعض الأحزاب السياســـية والجمعيـــات الخيرية وخاصة ما قامت به جمعية العلماء المسلمين التي أدركت الموقف وترجمت" نمو الـــوعي القومي والاعتزاز بالشخصية القومية الجزائرية وبالتراث العربي.

ولقد استمرت هذه المرحلة إلى أن قامت ثورة الفاتح 1954 المشهورة بثورة المليـــون شـــهيد والتي كانت بمثابة حد فاصل للاحتلال الفرنسي للجزائر وفتحت لهم أبواب التقدم الثقـــافي في كل رقعة من أرض الجزائر"[3]

ومع ذلك هناك إن جهود الخيرين من أبناء الأمة الذين استطاعوا أن ينالوا قسطا مـــن العلـــم والمعرفة، ووعوا قضية أمتهم، وتجندوا لخدمتها، والدفاع عن قضاياها، لقوا من الصعاب مـــالا يتحمله إلا ذو الإيمان والعزم، هؤلاء حاولوا استثمار جهودهم من خلال الصـــحافة لتجنيـــد الجماهير وبعث روح عربية إسلامية بين الناس، إلا أن المحتلين كانوا لهم بالمرصـــاد وذرائعهـــم كثيرة، فضيقوا على الصحافة العربية وتابحوار حلها وأغلقوا بعضها.

---

1 – المرجع السابق ص 124

2 – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ص 75

3 – تركي رابح ،أضواء على سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الإجتماعي في الجزائر ، المستقبل العربي العدد 57 تشرين الثاني 1983 ، ص 89

و الاحتلال الفرنسي لم يكن هدفه الاستيلاء على أرض الجزائر فحسب، بل كان هدفه بالإضافة إلى ذلك احتلال عقول الجزائريين لا بترغيبهم، بل بتجهيلهم بكل الوسائل والطرق.

ففي الوقت الذي كان الفرنسيون يتوسعون شرقا وغربا باسطين نفوذهم على الأرض، كانوا في الوقت ذاته يستولون على ذاكرة الشعب، كانوا ينهبون ويستولون على ماتحتويه المكتبات والزوايا والمساجد وما لدى أعيان الأمة من مخطوطات ووثائق والأدهى من ذلك أن العسكريين تنافسوا مع المدنيين من الصحفيين ومثقفين وإداريين على هذا النهب لإغراض تجارية حيث كانت تباع على المختصين بها في أوربا أو بغية دراستها لتسوية حقائقها وتوجيه مضامينها بما يخدم الاحتلال.

ومن باب ذر الرماد في العيون، وإيهام الرأي العام الفرنسي والغربي، يحرص الاحتلال على " تمدين" الجزائريين ونقل " الحضارة إليهم".

وتأكد منظرو الاحتلال الفرنسي أن سبل السيطرة على الجزائريين سيطرت تامة تكمن في تعليمهم اللغة الفرنسية إلى المستوى الذي يسمح لهم بالإندماج الناقص وينقلهم إلى التخلي عن اللغة العربية ثم تمكين الفرنسيين من تعلم اللغة العربية التي يتواصلون بها مع الجزائريين والمتمثلة في اللهجات الدارجة ، فهم يسعون بهذا حسب اعتقادهم إلى القضاء على التعصب الديني" الجهاد" وغرس " القيم" الفرنسية في النشأ، ومحاولة التقريب بين الفرنسيين والجزائريين، وخلق روابط بينهم من خلال اللغة.

ورغم محدودية المدارس الفرنسية، ومحدودية المنتسبين إليها من الجزائريين، ومحدودية البرامج، ورغم حرص المحتلين على تعليم أطفال الجزائر اللغة الفرنسية وقواعدها وتاريخ فرنسا وحضارة أوربا وإهمال كل مايتعلق بالجزائريين من تاريخ وثقافة ولغة ودين وحضارة، لم تفلح هذه السياسة وقوبلت بانتقادات شديدة من طرف المستشرقين وتم بناء على ذلك إصلاح التعليم مرا ت عدة، كما أن المتعلمين من الجزائريين —على قلتهم- تركوا مقاعد الدراسة بسبب الفقر و العنصرية، فالتعليم كان إجباريا على الفرنسيين و لم يكن كذلك بالنسبة للجزائريين، ومن استطاع أن يواصل دراسته، لم يكن له في نهاية المطاف إلا وظيفة بسيطة لفئات منها.

وبالموازنة مع المدارس الرسمية كانت الكنسية قد شرعت في فتح المدارس للأطفال بغية تنصيرهم " بتعليم البرنامج التمسيحي الصريح، أو برنامج لهدم العقيدة والأخـــلاق الإســـلامية، وبـــث التقديس للأمة الفاتحة، ولحضارتها وثقافتها"[1].

ومع أن هذه المدارس بكل أشكالها كانت في خدمة الاحتلال، إلا أن بعضا مـــن الفرنســـيين وخاصة المعمرين عارضوها واستكثروا على أطفال الجزائر أن يتمتعوا ببعض الثقافة ولو باللغـــة الفرنسية خوفا من انتشار الوعي لديهم،ودعوا إلى تعليم أبناء الفلاحين تعليما فلاحيا لخدمـــة مصالحهم، ومصالح المستعمر، لتكوين يد عاملة محلية رخيصة لمواجهة اليد العاملة الأوربية، التي تطلب أجورا أعلى، وإبقاء الجزائريين في الأرياف بعيدا عن الحواضر، حتى لا ينافسوا الأوربيين في الوظائف، إذا ما تابعوا التعليم العادي "[2].

أهداف الاحتلال الفرنسي من سياسته التعليمية في الجزائر

التعليم الفرنسي عامة

يعتبر القرن 19م فتحا جديدا ريادیا في أوروبا في مجال التربية والتعليم سواء كانت في فرنسا أم في ألمانيا أم في إنجلترا أم في روسيا و يعتبر قرن الإنجازات بمحافظته على مكتسبات القرن الماضي الإيجابية في مجال التعليم مثل أفكار روسو (Rousseau) وبابوف (babeuf) ، وأدخلو مجموعة من التعديلات فبرز في ذلك جان ماصي(Jean Macé) وبرودون (Proudhon) ودوبيكو (De Pécaut) ونادوا بمجانية التعليم و اجباريته و علمانيته[3] .

1- الإدمـــاج:

أما فيما يخص سياسة التعليم في الجزائر فالأمر يختلف كثيرا وطوال فترة الاحـــتلال لم تعـــدم الشعارات كما لم تعدم الأساليب المختلفة ليصبح الشعب الجزائري فرنسيا بل تابعا لا تتساوى درجته مع الفرنسيين، وبين المعلن والواقع بون شاسع، فسياسة الفرنسة وسياسة التنصير أمـــر، وسياسة الاضطهاد والتجهيل والتنصير أمر آخر، وهذه السياسة البارزة بعـــد احـــتلال الأرض

---

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج3 ، ص 375

2 - المرجع السابق ص 375

3 - Maurice Chavades ; les maîtres de l'éducation . P:145

الهادفة إلى الهيمنة الثقافية التي " هي أشد ما تكون مكرا وخداعا، لا يمكن إلا أن تكون أشد ضررا وأكثر فسادا، وأعمق أثرا من السيطرة السياسية والعسكرية"[1].

وإدماج الشعب الجزائري من خلال تأسيس المدارس ونشر اللغة الفرنسية، والقضاء على اللغة العربية ومن خلالها مقدسات الشعب الجزائري ،كان حلم المحتل منذ البداية، يقول " روفيغو" وهو ضابط فرنسي في رسالة نشرها "فيرو" في كتابه " المترجمون في الجيش الفرنسي" يقول :" إيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها،وحتى تتأقلم فيها الفنون والعلوم التي يقوم عليها مجد بلادنا،والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيا، ومتى كانت اللغة العربية لغة السلطة والإدارة، فإنها سوف لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي، ولاسيما إذا وجدت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد"[2].

وفعلا استطاع الفرنسيون أن يكونوا شرذمة من الجزائريين التابعيين لهم،المتنكرين لعروبتهم، حاولوا تثبيت وجود المحتل بين الشعب الجزائري،وإضفاء المشروعية لاحتلاله، وترويج سياسة، يقول أحد الفرنسيين " إن الغاية ليست لتكوين موظفين مختصين، وليس لتكوين مدرسين للتعليم العمومي، كما أنه ليس من أجل تعليم العربية للفرنسيين، ولا من أجل تعليم الفرنسية للعرب، لماذا إذن كل هذه الجهود وهذه العناية ؟ إنها من أجل تكوين رجال يكون لهم تأثير على مواطنيهم، ساعدونا على تحويل المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا"[3].

كما يسعى الاحتلال إلى توظيف هذه الشرذمة لزرع بذور الفرقة بين أبناء الشعب الجزائري، تنفيذا لمبدأ " فرق تسد" التي كانت وسيلة المحتل حيثما وجد، فاللعب على أوتار الجنس والعرق واللغة أوراق روج لها الاستعمار وفي ظلها " ركز الفرنسيون جهودهم على منطقة القبائل، وظهرت كتابات عديدة منذ السنوات الأولى للاحتلال مؤداها أن سكان هذه المنطقة هم أقرب إلى الأوربيين منهم إلى العرب، وعليه يجب فرنستهم وإعادتهم إلى النصرانية التي كانت سائدة بينهم خلال العهد الروماني"[4].

---

1 - المرجع نفسه ص 280

2- عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1999 ، ص 64

3 - بوعلام بسايح ، الثقافة الإفريقية، طموحات ومتطلبات ، مجلة الثقافة ،الجزائر ، العدد 96 ديسمبر 1986

4 - إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 ، ص 10 و 11

2 – إدعاء نشر الحضارة

شعارات كثيرة يرددها الغرب،ويجهر بها عاليا تبريرا لقهر الشعوب وإذلالها، وسلب ثروتها، شعارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

وهذه الشعارات غذتها عقدة التفوق عند الغرب واعتبار نفسه مشروعا حضاريا منقذا للبشرية من بؤسها وشقائها،وظلت أبدا مطية ترتكب تحت مظلتها أبشع الجرائم، وتداس في سبيلها كل الأعراف والقوانين والشرائع، فباسم نقل الحضارة، ونشر السلم وعولمة الديمقراطية، كان الاحتلال.

فرنسا واحدة من بين الدول الرافعة لهذه الشعارات، فتحت غطائها سلبت الجزائر في جنح الظلام، وادعت أنها باحتلالها لأرض الجزائر، إنما تنقذ الحضارة الغربية بنشرها" وإنها بهذا العنوان تتحمل مسؤولية التنوير والتحرير والتقدم، وكان مدنيوها وعسكريوها ورجال دينها ومستوطنوها يرددون هذا الشعار آناء الليل وأطراف النهار"[1].

إن المسلمين الجزائريين متعصبون متخلفون يجب تمدينهم بتعليمهم اللغة الفرنسية، وغرس الثقافة والحضارة الغربية بين الناشئة، ليشبوا على حب هذه الثقافة متشبعين بمبادئها، مدافعين عنها ناشرين لها بين أبناء جلدتهم ،وفي ذات الوقت يتنصلون لهويتهم وثقافتهم وحضارتهم، وينكرون على الأمة لغتها وتراثها، وبهذه السياسة يمكن تكوين عناصر قيادية، تعمل على تثبيت وجودهم والعمل تحت سلطتهم...تقوم مقامهم ليكون الجزائريون أتباعا وعبيدا للأسياد، يحترمون الحضارة الأوربية ويتبعونها"[2].

لقد جرب الاحتلال الفرنسي لفرنسة الجزائر ، لكن هيهات ، فالأمم الأصيلة لا تموت .

---

1 – علال الفاسي ، نشاط المبشرين ودورة الاستعماري محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي تيزي وزو 1973

2 – عبد القادر حلوش ، الكولون الفرنسيون والتعليم الفلاحي في الجزائر ، مجلة عصور، العدد 2 ديسمبر 2002

القصة الشعبية في الجزائر :

في ظل الجهل والأمية، وغياب المبدعين وضعف الكتابة الفنية، لم يجد الجزائريون أمامهم من سبيل للترويح عن النفس، والهروب من الواقع التعيس، إلا اللجوء للقصة الشعبية المتناقلة شفويا من منطقة لأخرى،ومن جيل لجيل، يرويها ويحكيها الكبار للصغار بشغف ،كإلحاح الصغار في طلبها بشغف،وانتشر هذا النوع من القصص في كل شبر من أرض الجزائر،وبين كل فئات الجماهير،لما فيه من متعة،ولما فيه من بطولات خارقة ومثالية لا متناهية وخيال فسيح،وفي هذا تسلية للنفس وتعويض عما لا يستطيع الجزائري المستكين،المحطم وجدانه ،المعطل والمغيب عقله قصرا، القيام به. و"تتميز القصة الشعبية في الجزائر بانتهاج خط عام تتمثل فيه رؤية إنسانية ،تعبر عن حالات نفسية واجتماعية وثقافية تشترك فيها كل الشعوب بصورة من الصور ،ورغم اختلاف البيئة الاجتماعية وتباعد المجتمعات زمانا ومكانا فان القصاص يعبر عن واقع نفسي تنعدم فيه النظرة الإقليمية والقومية بحيث يتسع مجال التصوير إلى رؤية أبعد من الحدود السياسية والجغرافية للشعوب"[1].

وكانت هذه القصص مستمدة من التراث تارة ومن الخيال ومن الواقع تارة أخرى، وكان لمعاني البطولة والفداء ومعاني التضحية والتحدي الدور الفعال في نمو هذه القصص، كما كان للقيم الإنسانية التي توارثها الجزائريون نصيب، ومهما كان مصدر هذه القصص لعب الخيال دورا كبيرا في نسيجها، كما لعب الموروث العقائدي دوره في إضفاء نوع من القداسة في تصوير شخصياتها وأبطالها، فالإيمان بالقضاء خيره وشره، زرع الآمال وأبعد اليأس، والثورات التي توالت ،وحقق فيها الرجال على المحتل بعض الانتصارات،وتناقل الناس بطولاتهم،وكذا التي منيت بالفشل، وتجرعها الناس مرارة،وان صابر وصمد زعماؤها،كل هذا كان موجودا بطريقة أو بأخرى.

القصاصون الشعبيون يتحايلون أمام واقعهم المرير،ولذا لم يتناولوا القضايا في بيئة محدودة زمانا ومكانا ،بل تناولوها بطريقة كان يامكان في غابر الدهر والزمان ،ليلبسوها طابعا إنسانيا يبعد عنهم الشبهات،ويبطنوها بكراهية الظلم والطغيان،وحب القيم النبيلة والاستماتة دفاعا عنها.

1- عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986 ص29

كل هذا لم يغب عن مخيلة الجزائريين،و لم تمزق صفحته في عقولهم،و لم تطفأ ناره في وجدانهم،و ظل رجاله حاضرين بما سجلوه من مواقف رائعة أصبحت تروى سيرهم بين الجماهير في المقاهي والأسواق والمجالس،ومن خلال تلك القصص الشعبية التي تحاكي نماذج هذا التاريخ، ولأن هذه القصص لم تخلق من عدم، إنما هي من صميم الفكر الجزائري وخياله، ومن صميم ارتباطه المتين بثقافته العربية والإسلامية وتميز انتمائه، كان على المستشرقين أن تكون لهم معه وقفة.

بداية الاهتمام بالقصة الشعبية في الجزائر

رغم عراقة القصة الشعبية في الجزائر و توارث الأجيال لها لقرون طويلة ، إلا أن الاهتمام بها وبالتراث الشعبي عموما من طرف الباحثين جاء متأخرا، و لم يكن إلا مع "بداية الاحتلال الفرنسي للبلاد في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، إذ كان لا بد للغازي من أن يعمل على استكشاف الخصم ، و معرفة من يقاتل معرفة تخدم إستراتيجيته العسكرية"[1] ، و الإستراتيجية العسكرية تقتضي أن يقوم بهذه المهمة أولئك المستشرقون المرافقون للحملة من عسكريين ومدنيين فرنسيين و عربا ، وكان هؤلاء يتلقون الثقافة الشعبية بكل أشكالها من أفواه السكان،و يقومون بتحليلها وفق مناهجهم العسكرية لإيجاد السبل الكفيلة بترويضهم واستغفالهم بشتى الوسائل للتمكن منهم ومن أراضيهم، و لأن الدين كان عاملا فعالا في حياة الجزائريين، اهتم هؤلاء بالقصص ذات البعد الديني ، كفن المغازي ، والقصص التي كان أولياء الله الصالحين و كراماتهم موضوعا لها.

وعليه انصب الاهتمام على المضامين ،كما اقتصروا على ترجمة النصوص ، و التعليق عليها دون الالتفات إلى الجانب الفني الجمالي لها.

"لقد كانت هذه الكتابات موجهة بالدرجة الأولى للقارئ الموظف بالإدارة الفرنسية في الجزائر ،لطابعها النفعي،وللقارئ المواطن الأوروبي في الجزائر بالدرجة الثانية ، لكي يعرف هؤلاء الناس الذين يعيش على أرضهم ، وقد تضطره الظروف للعيش معهم ، وكذلك للقارئ الفرنسي

1- المرجع السابق ، ص 29

العادي بأوروبا ، ليأخذ فكرة عمن يسميهم أصحاب هذه البحوث بـــ " المتوحشين" الـــذين تقوم بلادهم برسالتها الحضارية، تجاههم"[1]

لقد انكب المستشرقون الفرنسيون في الجزائر على جمع بعض هذه القصص،خاصة تلك المتعلقة بأدب البطولة المجسد في خير فنونه،فن المغازي، الذي يعد واحدا من أرقـــى أشـــكال التعـــبير القصصي لما حظي به من إقبال شعبي واسع،كما أن طريقة أداء فنانيه كانت ممتعـــة ومشـــوقة ،حيث كانت القصة تنشد باحترافية عالية تصاحبها الموسيقى التقليدية التي يأنس الجزائريون لها ويتفاعلون معها ،ومما يزيدهم شوقا لسماعها وشدة كنفهم وتعلقهم بها موضوعاتها المســـتوحاة من بطولات الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين،وكان في مقدمة هؤلاء الإمام علي ـــ كـــرم الله وجهه ـــ ،والإمام علي عظيمة مكانته عند كل المسلمين،وأخبار بطولاتـــه وبلائـــه أثنـــاء الفتوحات الإسلامية تملأ دنياهم.

إن أدب المغازي في جوهره ما هو إلا شكل من أشكال المقاومة الثقافية،يؤكـــد مـــن خلالـــه الشعب الجزائري هويته التي لا يرضى عنها بديلا،وما يفسر هذا، انتشاره بشكل جد واسع في فترة الاحتلال واهتمام المستشرقين الفرنسيين به.

أجل اهتم المستشرقون الفرنسيون به وشغل بالهم لما يمثله من عمق تاريخي في حياة الأمـــة،كما أفردوا له بحوثا ودراسات مطولة حاولوا من خلالها إبعاده عن مرماه خدمة للاحتلال.

يقول المستشرق ج .دسبرميه عن أسباب ظهوره :"منذ القرن الرابع عشر تقريبا وبالتحديد منذ أن بدأ الفتح العربي ينسحب أمام الهجومية للمسيحية ،أنتجت أرض الإسلام أدبا يحمل اســـم المغازي من نفس طبيعة الغزوات التي نتحدث عنها،وهو ادب مجهول بالنسبة لنـــا يختفـــي في التاريخ الأدبي تحت اسم طموح ومستعار،ويتمثل هدفه الوطني في إنقاذ ماء الوجه،والتـــذكير بالانتصارات الماضية لنسيان الذل المعاش في الحاضر،وقد انبت الغزو الفرنسي لهذا الجذع القديم لرواية الفروسية الإسلامية فرعا جديدا"[2].

مما لاشك فيه أن أدب المغازي بعود ظهوره إلى الفتوحات الإسلامية في عهدها الأول ،حـــين كانت أخبار الفاتحين تملا الدنيا،فالإسلام فجر معاني البطولة وهذبها منذ بزوغ فجره،ولنـــا في

1- المرجع نفسه ، ص 30

2– J .Desparmet "les chanson de geste de 1830 a1914" dans la Mitidja R.A.2ème semestre 1939 P:191

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الحي،كمالنا هذا المثل في سير الخلفاء والفاتحين من قادة وجند،و لم يظهر كما ادعى المستشرقون الى الصراع الحديث بين المسلمين والمسيحيين المحتلين في الماضي والحاضر،و لم يظهر أيضا ليعبر عن شعور سلبي للمآسي التي عاشها المسلمون والجزائريون خاصة،بل كان انتصارا للعزة وتسل وعزاء، انتظارا لليوم الموعود .

ثم توالت مراحل الإستشراق الفرنسي ، و لم يعد البحث كما كان على يد العسكريين مجرد نقل للروايات على طريقة الاستنطاقات البوليسية، التي كانت لا شك سببا جوهريا في عدم وجود تواصل حقيقي بين الراوي وهؤلاء ،بل أصبحت تخضع لمناهج البحث الحديثة ولكن نظرهم لهذا التراث ظلت دونية، فهو بالنسبة لهم ساذج ، أصحابه متخلفون، فهم " مثل جميع البشر ذوي الذهنية البسيطة يعشقون الحكايات الخرافية و القصص الخيالية و الأساطير الخارقة للعادة... إنهم سذج لا أكثر ولا أقل ، وهم اليوم مثلما كانوا قديما"[1]

واشتهر في مجال البحث الأكاديمي مجموعة من المستشرقين تناولوا القصة الشعبية في الجزائر منهم رونيه باصيه (Rene Basset) الذي نشر في المجلة الإفريقية " قصة بنت الخص" مترجمة إلى الفرنسية[2]، ومنهم " ألفريد بيل" (Alfred Bel) الذي نشر في نفس المجلة قصة "الجازية" وغيرهم من أمثال جوزيف دسبيرميه "J.Desparmet" الذي تناول المغازي.

و استمرت جهود المستشرقين حتى انتهاء الاحتلال لتتيح المجال للدراسات القائمة على نظرة الاحترام لتراث الشعب الجزائري.

---

1. Alfred , la djazia extrait du " journal asiatique" , Imprimerie National ,Paris .1903 P.5 –

2. Rene Basset , La legende de bent el-khass. R.A N°49/1905 OPU , P18 –

أشكال القصة الشعبية في الجزائر

تنوعت أشكال التعبير في القصص الشعبي الجزائري و تداخلت لتشابهها في كثير من الخصائص،ولاعتماد أشكال التعبير الغربية مقياسا لدراستها ،رغم أن الأصول مختلفة والمرجعيات متباينة، ولذا وجه الدارسون صعوبة في تصنيفها ، كما وجدوا صعوبة في تحديد المقاييس التي تتبنى عليها التصنيفات لتعدد المناهج ،ومن التصنيفات التي وضعها الباحثون الجزائريون المختصون في هذا الميدان ، تلك التي تبناها عبد الحميد بورايو و التي قسم فيها أشكال القصة الشعبية في الجزائر إلى أصناف رئيسية و أخرى فرعية حسب الجدول الآتي: [1]

الأصناف الأساسية	قصص البطولة	الحكايات الخرافية	الحكايات الشعبية
الأصناف الفرعية	-قصص البطولة البدوية -قصص المغازي -قصص الأولياء -قصص الزهاد -قصص الخارجين عن القانون	-الحكايات الخرافية الخالصة - حكايات الأغوال الغيبية	-حكايات الواقع الإجتماعي -الحكايات المحلية -حكايات الحيوان -النوادر

1-قصص البطولة:

عرفت الإنسانية عبر مراحل تطورها قصص البطولة منذ غابر الأزمان ، و السبب في ظهور هذا الشكل من التعبير مرده إلى صراع الإنسان مع الطبيعة ، ومحاولته إيجاد توازن بين الظواهر و القوى المتناقضة و المتعارضة ، والتي تعود أساسا إلى الصراع بين الخير و الشر.

أمام هذه الظواهر الطبيعية كان على الإنسان أن يواجه و يتخذ من البطولة مسلكا لتحقيق غلبته فكان أن صنع الأساطير .

وفي هذه الأساطير " يمثل الإنسان نصف الإله و جميع القوى المتواجدة في الكون ، وعلى رأسها قوى الآلهة أطراف الصراع في تحقيق البطولة الأسطورية ، و البطل في الأسطورة لا

(1)- عبد الحميد بورايو ،الأدب الشعبي الجزائري ، دارالقصبة ، الجزائر،ط 2007 ص 68.

يشعر بالحدود الفاصلة بينه و بين هذه القوى ،ولا بالحدود الزمنية ، و لا يكاد يميز نفسه كنقطة محدودة من الزمان و المكان ، بل يجعلها امتدادا أو صدى لمظاهر الكون"[1]

كان على الإنسان أن يحقق وجوده على الأرض ، ولابد له من وسائل ، والعمل البطولي وحده قادر على ذلك ، و البطولة تقتضي التعامل مع العالم الآخر دون اختلاط العالمين، وهكذا "أصبح الإنسان ثملا بوجوده على وجه الأرض ، و أصبح همه أن يصور النموذج البطولي للإنسان الذي يستطيع أن يحقق شيئا رائعا لعالمه الإنساني، ولا يعني هذا أنه انفصل عن العالم الغيبي ، فالإنسان القديم –ومثله الإنسان الشعبي – لا يشعر بوجوده إلا في ظل إحساسه بوجود الكون ، ولكنه في الوقت نفسه لم يعد يقاوم التفكير في ذاتيته بوصفه إنسان مميزا عن سائر الكائنات و قادرا على تحقيق العمل الكبير الذي يغير الحياة و ينقلها من طور إلى طور وكان هذا هو الدافع بعينه وراء نشأة القصص البطولي بكل إشكاله [2]

و هكذا جاءت قصص البطولة معبرة عن الشعور الجمعي بموضوعيه مع الجنوح إلى المبالغة .

أصناف الأدب البطولي في الجزائر :

1- المغازي :

أدب المغازي هو شكل من إشكال القصة الشعبية التي انتشرت بشكل واسع في التجمعات الشعبية في الأسواق وفي مختلف المناسبات ، وهو عبارة عن أشعار تنشد بمعية آلات موسيقية تقليدية ، وتتعلق موضوعاته بسير الصحابة رضوان الله عليهم و الفاتحين ، و يتصدر هؤلاء الإمام علي كرم الله وجهه .

ولقد كانت القصص و المغازي جزءا من علم أكثر رحابة وأوسع وأشمل من القصة منفصلة حيث كان الأدباء والقصاص والمغنون يتحصلون على كل العلوم ليبرزوا في واحدة منها.

وهذا إسحاق الموصلي[3] يقول عنه المستشرق هنري جورج فارمر[1]:"تلقى تربية رفيعة وثقافة واسعة... كان يبدأ دروسه اليومية "بسماع الحديث عن هيثم بن بشير غلسا، ثم يصير إلى

---

1)- شكري محمد عباد ، البطل في الأدب و الأساطير ، دارالمعرفة ، القاهرة، 1971 ص 76.

2) نبيلة إبراهيم ، البطولة في القصص الشعبي ، دار المعارف ، القاهرة 1977 ص 20

3- هو ابو محمد اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، ولد في مدينة الرسي عام 727هـ وقدم بغداد مع أبيه ، وهو عميد موسيقى البلاط بعد وفاة والده ، في مجالس هارون الرشيد و البرامكة .

الكسائي أو الفراء فيقرأ عليهما القرآن ، ثم يأتي عاتكة بنت شهدة المغنية المشهورة ليأخذ عنها أصواتها ، ويختم بالأصمعي وأبي عبيدة فيأخذ عنها الأدب والتاريخ"[2]

وبهذه الثقافة أصبح إسحاق الموصلي شاعرا يافعا وأديبا ولغويا وفقيها ، ومن أشهر رواة القصص و السير محمد بن إسحاق بن يسار الذي ذكره محمد بن سلام الجمحي والذي يقول عنه : أنه كان عالما بالسير و المغازي والقص ، ومنهم الأصمعي الذي كان راوية للأشعار وللأخبار معا، والمفضل الضبي وغيرهم من الرواة العلماء .ولقد ازداد خيال العربي الجامع بعد تطعيمه بروح الدين الإسلامي وضبط التزامه (إلتزام الشاعر المسلم) بمجموعة من المبادئ السيامية والأخلاق الفاضلة فأطلق لخياله العنان ليؤلف قصصا ربما لم تقع إلا في مخيلته .

وفي مشهد من مشاهد هذه القصص التي تقع بين الحقيقة والخيال ، قال هشام بن الأحنف، راوية بشار:

"إني لعند بشار ذات يوم إذ أتته امرأة فقالت: يا أبا معاذ! عبدة تقرئك السلام وتقول لك : قد اشتد شوقنا إليك و لم نرك منذ أيام ..."[3]

ويعلق المستشرق فارمر على هذه القضية قائلا :"وفي الحق فإن كل هذا لجد متواضع من أجل رواية حب ، إلا أن أجمل أبيات بشار في عبدة هي التي أشادت بأكثر أنواع الحب صفاءا ، إن تلك الأبيات المنتزعة من آثاره الشعرية أعطت إبراهيم الموصلي فرصة غناء نغم الهزج أي أنها افتتحت أسلوب الحياة الهنيئة في الموسيقي و العشق معا . وجرت الأمور كما لو أن الحب

1- هنري جورج فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة : جرجكيس فتح الله سنة 1928 ، ص:195 المحامي، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت.

2- هو جورج فارمر ولد في مدينة بر (BERR) بإيرلندا أبوه هنري جورج ،وأمه ميري آن فامر، انضرف إلى صناعة الموسيقى في مقبل عمره ، ثم دخل جامعة (جلاسكو)، سنة 1919 إلى 1921 ومنها اتجه إلى الموسيقى العربية ودرسها على أيدي كبار المستشرقين وأتقن اللغة العربية والفارسية وأصبح عضو في الجمعية الملكية الأسيوية (1930-1933) ، ترأس الوفد الانجليزي في مؤتمر الموسيقى العربية بالقاهرة سنة1932 ، وعين أستاذا محاضرا في الموسيقى في جامعة جلاسكو سنة1934 ، ومن أهم مؤلفاته في الموسيقى العربية:

1.الموسيقى العربية وآلات الطرب العربية ، نشر سنة 1916

2.التأثير العربي على نظرية الموسيقى ، نشر سنة 1925

3. المخطوطات الموسيقى في المكتبية البودلية – 1925

4. التأثير الموسيقى : من المصادر العربية .

5.تاريخ الموسيقى العربية (1919 – 1925)

6. حقائق تاريخية عند التأثير العربي للموسيقى :1930 وغيرها.

3- أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني.

الشعري عند بشار يعارض وجود معشوقة حقيقية ،فإن المعجبين البصريين ببشار كالأصمعي وابراهيم الموصلي وأبي العتاهية... هم الذين أعطوا عنه في بلاط الخليفة حيث قبل فيه ... صورة الذين أعطوا عنه في بلاط الخليفة حيث قبل فيه ... صورة مطابقة لأجمل قصائده الشعرية..." [1]

و أدب المغازي فن قديم تعود جذوره إلى صدر الإسلام في القرن الأول هجري وكان يروى شفهيا ، ثم وجد طريقه للتدوين ، وكان أشهر مدونيه [2]"أبّان بن عثمان" المتوفى في القرن الأول للهجرة ،و "محمد بن إسحاق" المتوفى سنة 150هـ الذي يقول عنه ابن سلام:" كان عالما بالسير والمغازي ..." [3] إلا أن المستشرقين الفرنسيين و على رأسهم ج .دسبرميه (J desparmet) يرجعون ظهوره إلى القرن الرابع عشر ، وهذا أمر مستبعد غير دقيق يتجاهل فيه معتقدوه الفترات الأولى للإسلام . وهي نظرة مشبعة بعقدة الاستعلاء، و الاحتقار خاصة وأنهم ربطوا ظهوره بتراجع المد الإسلامي أمام المد المسيحي،وهي نظرة استعمارية ممجدة للاحتلال ، يقول ديسيرميه "انه يجب ألا نبحث عن الفن من أجل الفن في "الغزوات " لكن الفن من أجل التنفيس عن شعور عنصري ثم الدعاية لفكرة وطنية وليدة ".[4].

و الواقع أن فن المغازي ارتبط بالسيرة النبوية و المعارك التي خاضها المسلمون ضد المشركين ، وفتوحات المسلمين ، وانتقلت من الخاصة إلى العامة ، يقول "مصطفى السقا " في تصديره لكتاب "المغازي الأولى و مؤلفوها " : "نشأت السيرة ، أول ما نشأت ، أحاديث في مجالس الخاصة ، وكانت تدار حول مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسأل بعض الولاة والأعيان في الأمصار الكبرى الإسلامية كالمدينة و دمشق ، عالما ممن اشتهر بالحفظ والرواية:كيف كانت غزوة بدر ؟ أو من الذين شهدوا الغزوة ؟ أو ما عددهم ؟ فيحدث القوم بما يعلم من ذلك مسندا الحديث إلى من أفاده إياه من الصحابة ، وكانت تلك الأحاديث أحيانا تفسيرا لبعض الآيات التي تضمنت شيئا من تاريخ تلك الوقائع وغزوات النبي ، مثل يوم بدر

1- ج.ك قايدة: الغزل عند العرب، ترجمة :إبراهيم الكيلاني منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشق ، ط1985/2 ، ص314

2) يوسف هوروفيس ، المغازي الأولى و مؤلفوها ، ترجمة حسين نصار ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة، 1949 ص 3

3) –إبن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، نشر: لجنة تحقيق التراث و نشره ، القاهرة ، ط 1916 ، المقدمة، ص:10

4) J .Desparmet "les chanson de geste de 1830 a1914" dans la Mitidja R.A.2ème semestre 1939 p

ويوم أحد ويوم حنين ، وكان بعض هؤلاء الرواة يزيد على البعض في جملة الأخبار وتفصيلها،و في دقة الإسناد ، على حسب المصادر التي أمدته.

ثم تقدمت السيرة خطوة إذ دون بعض هؤلاء الحفاظ ، وكلهم من التابعين ما ورثوه رواية عن أسلافهم" [1].

وإذا كان المؤرخون قد اعتمدوا على هذه الأخبار ونسجوا أحداث التاريخ الرسمي ، فان الجماهير اتخذها وسيلة لنسج تاريخ شعبي على طريقتها ، وهذا ما يؤكد أن أدب المغازي قديم.

و ازدهر فن المغازي في المغرب العربي عامة ، وانتشر بشكل أوسع زمن الاحتلال وأثناء حركة المقاومة في الجزائر ،و ارتبط فن المغازي بالشعر الملحون ، يقول محمد الفاسي :"وأهم نوع برز فيه شعراء الملحون ، الشعر الملحمي "الأبوبية"[2] و يسمونه" الغزوات " و الحقيقة أن القصائد التي موضوعها حروب المسلمين مع الكفار ليست هي كل الشعر الملحمي في الملحون"[3] ، ولا يمكن حصر مواضيع الملحون في هذا المجال الضيق ، وإنما شمل مجالات أخرى كثيرة على رأسها أيضا : القصص المتعلق"بسير الأنبياء و الأولياء تتخللها كثير من الخوارق ، ومن أشهر شعراء الغزاوت و القصص الملحمية سيدي عبد العزيز المغزاوي وله في ذلك الموؤودة و حرير والشدادية و الشباب الغساني و غيرها ، ومنها سيدي مبارك أبو الأطباق وقد كان له أثر على شعراء الملاحم ، ومن أثار سيدي مبارك أبو الإطباق غزوة الصيد بن سلامة المخزومي والإسرائيلية والراحة، وتسمى كذلك غزوة أبيض بن صلصال ، ويقصد بالراحة هنا شفاء سيدنا علي كرم الله وجهه من مرض ، وله فتوح إفريقية وغير هذا من قصائد رائعة في هذا الموضوع الخيالي "[4]،وهناك عدد كبير من القصاص وأصحاب المغازي و السير في الأدب الشعبي عامة و الملحون خاصة وكانت أغلب هذه القصص تؤلف شعرا أو تتخللها أشعار كثيرة بأوزان الملحون الشعبي ، ومن هؤلاء الذين برزوا في هذا المجال أيضا سيدي أحمد بن يخلف الذي اشتهر بقصائده الملحمية مثل "الراهب والضيافة" أي ضيافة الله عز وجل لعباده ، قصة

---

1) يوسف هوروفيتش ، المغازي الأولى و مؤلفوها ، ص 10

2) الأبوبية: قصة شعرية طويلة مليئة بالأحداث غالباً ما تقص حكايات شعب من الشعوب في بداية تاريخه وتقص عن تحرك جماعات بأكملها وبنائها للأمة والمجتمع.

3) –المرجع السابق ، ص:10

4) –محمد الفاسي ، شعر الملحون في الأدب المغربي، مجلة مجمع اللغة العربية ،ماي 1985 ، ص: 87

"أبوجهل" وقصة "أبو زيد السماطي مع رهبان الدير"، وغيرها... وكان ابن يخلف من الـــذين يؤرخون لقصائدهم ، وتذكر المصادر أنه عاش في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وأوائـــل القرن الثاني عشر[1].

هذا ما اشتهر في بلاد المغرب وهو يمثل الامتداد الطبيعي للجزائر من حيـــث العـــرق والـــدين واللغة، وإذا كنا قد استعملنا القياس في المجال فلأن شعوب المغرب العربي تتشابه ،إلى حد بعيد وتتدخل، نذكر على سبيل المثال الشاعر عبد الرحمن المجذوب من أصل مغربي نشط في الجزائر والرحالة أحمد السكيرج[2] مغربي نشط في الجزائر ايضا.

هذا حديث عن فن المغازي في المغرب أثناء فترة الاحتلال و الجزائر بحكـــم الجـــوار وحكـــم الظروف هي في نهاية الأمر لا تختلف عن المغرب فيما يسري فيه من فنون ، وما يجـــري مـــن أحداث ، وما يؤكد هذا هو اشتراك الشعبين في كثير من المغازي ، وتشابههما في طرق إلقائها واستعمالها من أدوات النضال ضد الاحتلال .

خصائص أدب المغازي[3] :

إن الفنان هو راوية للأخبار أو للأشعار أو للقصص ، وغالبا ما يتميز بحس مرهـــف وقريحـــة وذكاء حاد ليتمكن من الوصول إلى القلوب و الضمائر "إن المبدع الشعبي هو القادر على جمع العناصر التي تعيش بالفعل في حياة الشعب وفي ضميره لكي يكون منها تعبيرا متكاملا ذا مغزى يهم الجماعة ، وربما اشترك في هذه العملية أكثر من فرد ، وتمت على مراحل ، ولكن عنـــدما تتم ويستقبلها الشعب تصبح على الفور تراثا شعبيا"[4]

وهذا التراث تتعدد موضوعاته حسب الغايات المرجوة منه .

---

1) – المرجع نفسه ، ص: 88

2) – للمزيد انظر : د.عبد القادر سكران ، الرحلة التجانية الوهرانية لأحمد سكيرج ، مخطوط ، رسالة دكتوراه دولة ، جامعة وهران 2007 ، ص: 120

3) – ينظر : عبد الحميد بورايو ، الأدب الشعبي الجزائري ، ص: 120

4) – د.نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار المعارف القاهرة، ط3 ،1981، ص: 10

1-موضوعات أدب المغازي:

استلهم أصحاب المغازي والقصاصون موضوعاتهم من التراث الإسلامي خاصة و إنتقى الرواة . من التاريخ ما يخدم قصصهم ولكنهم يقدمون هذه التواريخ في صبغة من الخيال تلعب فيه المبالغة والخوارق الجانب المهم و الدور الفعال البارز ، ويتفاعلون معها على أنها حقائق ، والمتلقي مؤمن بوقوعها ولا يقبل النقاش في أمرها ، وتترجم هذه التواريخ حقبة زمنية تمتد من ظهور الإسلام إلى الفتوحات الإسلامية، و أعظم شخصية استقطبت اهتمامهم الإمام علي كرم الله وجهه ، وأفراد عائلته ، والصحابة رضوان الله عليهم ، ويسميهم الرواة بأسمائهم ويضفون عليهم ما يستحقون من قداسة و إجلال ، و يركزون في سيرهم على المعارك التي خاضها هؤلاء ضد جحافل الكفر و الشرك الذين يمثلهم في زمانهم الاحتلال .

2- وحدة الموضوع :

الغزوة قصة شعرية ترتبط أحداثها ارتباطا وثيقا كأي قصة فنية ، إذ نجد لها بداية تنمو طبيعيا لتصل جوهر القصة و أهم الأحداث (الوسط) و لها نهاية،و الأحداث هي عبارة عن مجموعة من المواقف البطولية الخارقة ، يتوحد فيها البطل ، أو تتكامل الأبطال بطريقة فنية رائعة.

3- البطولة و تداخل العوالم :

يتميز القصص الشعبي غالبا بتداخل العوالم ،العالم البشري والعالم الأسطوري، أي الألهة والخوارق وتغذي البطولة فيه العقول لأنها لا تميز فيه بين الفردي و المطلق، والحلم واليقضة، والحلم واليقظة، فيتحدث البطل والحيوان الشجر والطيور وتساعده على تجاوز العقبات[1]. "ويأتيه السحاب بالماء فهنا الرغبة تقود ،و تسقط الحواجز الواقعية ، ويصبح الزمان خادما للبطل، و الطبيعة صديقة مطيعة ، تتداخل العوالم الحيوانية و النباتية و البشرية و العينية ، فكل عالم منها يصبح متفتح على الأخر ، مساعدا له ، وبذلك تلغى السببية الحتميات ، وقوانين الطبيعة و سنة الأقدار ومعطيات التاريخ " [2]

---

1) علي زيغور ، علم البطولة في الذات العربية ، عرضه و منهجه ، مجلة دراسات عربية ، دار الطبيعة ، بيروت العدد 1981/10

2) المرجع السابق، ص:112

البطولة في فن المغازي هي العنصر المحرك للإحداث ، و الملفت للأنظار ، و المسيطر على وجدان الملتقي و عقله ، و يتفنن الرواي في الاحتفاء بها ، و إعطائها ما تستحق من اهتمام كونها مركز القصة و علامات عظمة الشخصيات ، هذه الشخصيات المدافعة دائما عن الحق ، المقاتلة في سبيل إعلاء كلمة الله ، الصابرة والمصابرة أمام مكائد الكفار المشركين ، تتمتع بقوة بدنية و قوة روحية خارقتين رغم الصعاب التي تعترضها ، و رغم العقبات و المحن ، ولان عمادها على الله من خلال البسملة أو ذكر اسمه تعالى ، يأتي الفرج و تحدث المعجزات سواء تعلق الأمر بتحقيق النصر على الأعداء الذين تكاثر عددهم أمام قلة من جيش المسلمين ، أو من خلال قطع المسافات البعيدة مثلا عند اشتداد حاجة المسلمين إلى واحد من أبطالهم ليخرجهم مما هم فيه ضيق حين يحاصرون، في هذا الجو الحماسي ، يمزج الراوي بين كل العوالم والعناصر، بين المعلوم و المجهول ، و بين ما هو تاريخي و خرافي و اعتقادي وواقع ، كل العوالم هنا تتداخل و لا تستطيع التمييز بينها إلا من خلال منهج علمي يبتغي صاحبه الدراسة .

4-الشخصيات

و لان فن المغازي من الفنون الملحمية القائمة على القتال و المعارك ، استوجب اشتراك كثير من الشخصيات لصناعة الحدث ، شخصيات تمثل جيش المسلمين و فيه مجموعة من الأبطال على رأسهم قائد ، و جيش المشركين فيهم أبطال لا يستهان بهم على رأسهم قائد.

ومن روعة ما في هذا الفن أن المسلمين ينتصرون على قلتهم، و المشركون كثرة و لكنهم ينهزمون، ومن روعته أيضا أن للمشركين رجال صناديد لا يقلون شجاعة و حنكة و معرفة بالحرب ، و هذا ما يجعل للقصة طعما و ذوقا خاصين ،يضفي على نهاية الغروة وانتصار المسلمين رونقا وجمالا ،وينتشي المتلقي وتقر عينه ،أملا في نصر كهذا على الكفرة المحتلين.

ثم إن شخصيات المغازي ، ككل الناس ، تأكل و تنام و تعيش حياة عادية ، إلا أنها تتميز بالصراحة و الصدق و التمسك بحبل الله و قوة الإيمان بالنسبة للمسلمين ، بينما شخصيات المشركين فيها عجرفة و تحيز و غرور و ارتكاب للمحرمات خاصة شرب الخمر ،و ذلك الشخصيات على تواضعها ، تقوم بأعمال بطولية ، تتوق من ورائها تحقيق المثل العليا ، والانتقال بالإنسانية إلى ما هو أفضل،و إلى : "الموازنة النفسية ، بين ما هو كائن و بين ما ينبغي

أن يكون ...بين واقع مرير مكدود و بين حلم يعتصم بالمثال الذي قدر له أن يخلص الأجسام و النفوس و الأرواح من ربقة الحاجة و الظلم و الاستعباد" [1].

و مثلما يبتغي البطل إشباع حاجته النفسية في طلب العلم ، يبتغي المتلقي و هو يتابع القصة إشباع حاجته النفسية ، بالتعويض عن الحالة المزرية التي يعيشها ، ولو من خلال التحليق بخياله في هذه العوالم هروبا من حياة الجحيم و الظلم و الاستعمار، و هي لهذا عامل مهم "لحاجة النفوس إلى التوازن في فترة تحيف فيها الدخيل جانبا من الوطن العربي احتكر فيها غير العربي الجاه و السلطان و الرزق " [2]

و أعمال الشخصيات الممثلة الرافعة لراية الإسلام مبررة ، بل هي من المقدسات ، بينما كل أعمال المشركين لا مبرر لها ، كونها تدخل دائما في خانة الكفر و المحرمات .

5- ارتباط المغازي بواقع المسلمين :

رغم قدم فن المغازي و ظهوره في القرن الأول الهجري ، إلا أن المخيلة الشعبية ظلت مرتبطة به، تجدده حين الحاجة فيزدهر و ينتشر ، خاصة حين تلم بها المصائب ، تمسكا بثقافتها وأصالتها خوفا من الضياع ، وممانعة و رفضا للاحتلال ، وتنفيسا عن حالة كبتت ما تريد ، ورضيت بما لا تريد .

و هكذا ازدهرت المغازي في فترة الاحتلال لان الجزائريين المسلمين دخلوا في صراع مع المشركين الكفار ، شانهم في ذلك شان المسلمين الأولين و هناك وجه شبه قوي مأمول من طرف الجزائريين أن يكونوا يوما أشباه أبطال المغازي ، يصارعون الكفرة فيصرعونهم ، ويناجزونهم فينتصرون ، رغم الضعف و قلة الحيلة .

يقول دسبرميه في مقال له بالمجلة الإفريقية: "إن هؤلاء المتشددين المغمورين المتجولين هم على أقل تقدير يقومون بعمل أدبي يعني بالنسبة لمواطنيهم نوعا من الرسالة السياسية و الوطنية ، رأيناهم يمجدون النصر العسكري الإسلامي ، وذلك في أثناء الغزو الفرنسي ، ويرفعون المعنويات مؤكدين أن الضعيف يصرع القوي بعون الله ، أنهم يحيون فكرة الحرب و حب المخاطرة و الطعن بالسيف ، ويوقظون غريزة السلب ، ويداعبون الأحاسيس الحسية ،

---

1) عبد الحميد يونس ، الطاهر بيبرس في القصص الشعبي ، دار القلم ، القاهرة ، د.ط 1968 ، ص 58

2) المرجع نفسه ، ص 59

ويبشرون بالسيطرة الفكرية التي تتستر خلف حجة الدعوة الدينية ، أنهم يعملـــون علـــى زرع الاحتقار على المنتصرين و أنصارهم في قلوب إخوانهم في الدين ، فيقدمونها في صـــورة بشـــعة وعلى أنهم متوحشون يحملون ملامح "رأس الغول " أو دنيئون ، أخلاقهم و أجسادهم عفنة ، انهم من اجل ضمان استمرار كراهية الأجانب في المستقبل خلقوا صورة للشهامة و الثقـــة في النفس و تقديس علي ، و السند المنتقم لشرف المسلمين المهان .

ليس هناك شك في أنهم أنقذوا شعور الانتماء للجماعة الإسلامية عند القبائل البربريـــة الـــتي تعربت... في الظاهر ، هذا الانتماء الذي لا زال وليدا ، وقد أصبحت السيطرة الأجنبية تهدد بخنقه ، أنهم تعهدوا ولادته و غدوا عناصر بدائية وافقت الوعي الذي يعمل العلمـــاء الآن إلى فكرة وطنية"[1]

ان المستشرق الفرنسي ديسمريه في هذا المقال تبنى جملة من الافتراءات و جملة من الحقـــائق في نفس الوقت ، أما الافتراءات فاهمها :

1- إن المسلمين في الجزائر يحب فكرة الحرب و حب المخاطرة ، و الطعن بالسيف ويوقظـــون غريزة السلب ، ويداعبون الأحاسيس الحسنة ، و في هذا القول إساءة لفن المغـــازي و إســـاءة للجزائريين وللمسلمين، وكأنه بهذا القول يجعل المسلمين الأولين مجرد قطاع طـــرق ، يحبـــون الحرب ، ويعيشون على السلت ، وهم بهذا أناس متوحشون و كذلك الجزائـــريين ، المعتـــدى على أرضهم و على حقهم في الحياة ، وهكذا يساوي بين الجلاد و الضحية و يجعل المعتـــدي عليه معتديا ، و ينكر على الجزائريين حقهم في المقاومة .

2- استعماله لفكرة "فرق تسد " التي يتبناها الاستعمار حيثما حل ، وهذا حين الإشارة إلى أن البربر حديثو العهد بالإسلام ، و ينكر عليهم إسلامهم ، ورفضهم المحتل ، وتمسكهم بوحـــدة الوطن

3- النظر إلى رفض الاحتلال من طرف الجزائريين على انه جريمة منكرة ، تبناها أناس بدائيون متخلفون ، رافضون لمدنية المحتل .

أما الحقائق التي اقر بها قاصدا تشويهها و تفسيرها بما يخدم مصالح الاحتلال فهي:

1-استخدام الجزائريين لفن المغازي لأغراض سياسية و اجتماعية و نفسية

---

1) ديسبرميه ، مرجع سابق ،ص65

2-حرص الجزائريين على التشبث بتراثهم و أصالتهم و تميزهم

3-رفض المحتل رفضا كليا ، إنسانا و سلوكا ومدنية ، وهذا حق مشروع لان الجسم يـــرفض كل غريب رفضا كليا .

1- قصص البطولة البدوية[1]

عرف المسلمون خلال الفتوحات و بعدها رحلات كثيرة ، و كان من نتائجها اختلاط الشعوب و امتزاج الثقافات ، لعل ابرز هذه الرحلات الهجرة الهلالية و ما كان لها من دور في ظهور قصص البطولة البدوية في الجزائر .

دخلت قبائل بني هلال صحراء الجزائر عن طريق الصحراء الليبية منذ القرن الحادي عشر ، واستقرت منتشرة في مناطق واسعة ، ومع استمرارها انتشرت سيرة بني هلال الدائر موضوعها حول هجرة هؤلاء من المشرق إلى المغرب ، وكيفية استقرارهم بالشمال الإفريقي .

كانت هذه القصص تحظى بمكانة خاصة في حياة البدو ، حيث كان الراوي يحتفي به احتفاء العرب بشعرائهم في الجاهلية ، وكانوا يستضيفونه و تقام لأجله الولائم و تذبح الذبائح ، وكان يقيم بين الحي مدة طويلة ، يروي قصص البطولة بينهم على حلقات متتالية ، وكان يجتمع لسماعه الرجال و النساء و الأطفال ، وابرز قصص البطولة البدوية ، قصة "الجازية وذياب الهلالي" و هذان الشخصيتان تمثلان الأصول التاريخية لنسب للبدو ، كما يمثلان المثل الأعلى عندهم، و ذياب الهلالي هو رمز لما انتشر في الجزائر من اختلاط بين العرب و البربر ، والروايات تقول أن أباه عربي و أمه بربرية ، و تتخلل القصة الغاز لا يستطيع فكها إلا الذكي أمثال ذياب ، يقول عبد الحميد بورايو[2] "تستند عملية " الترميز" و فك " الرموز "في ألغاز قصص السيرة الهلالية إلى أطراف هلالية ، ومعنى ذلك أنها حاملة لسر هذه الجماعة ، يتم التعريف بين من هو منها ، وهو خارج عنها عن طريقها ، يعجز أخوال ذباب عن حلها لأنهم ينتمون إلى قبيلة أخرى هي زناتة البربرية ، وتظهر هذه الألغاز كأنها موجهة أساسا لذياب الهلالي لتؤكد انتسابه وانتمائه للنسب الأبوي الهلالي ، و ذلك لأنه يشغل موقع مفترق الطرق بين أعمامه الهلاليين و أخواله الزنانة الأمازيغ ، ويمكن القول إذن أن المتطور الفكري الذي تنطلق منه رؤية العالم في السيرة الهلالية و في بقايا قصصها يتأسس على القيم القبلية ، و هكذا يرجع انحلال السيرة إلى أقاصيص مجزأة و ألغاز و أمثال، إلى ما أصاب البناء الثقافي للمجتمع

---

1) -عبد الحميد ، الأدب الشعبي ، ص97

2) -ينظر :المرجع السابق ، ص99

القبلي الهلالي من تصدع بسبب وضعه الجديد بعد استقراره في شمال إفريقيا ، و تغير شـــروط وجوده ، إلى جانب اتجاه البدو و شيئا فشيئا إلى الاستقرار و ممارسة الزراعة " [1]

و مع الاستقرار و ممارسة الزراعة و احتلال الأرض تحولت السير الهلالية من خصوصـــيتها إلى مايشبه فن المغازي مقاومة للمحتل و محا فظة على التميز الإسلامي و توحدا مع أبناء الشـــعب الجزائري.

2-كرامة الأولياء وقصصهم:

الكرامات عنصر من المناقب ،والمناقب هي كل ترجمة لصوفي شيخا كان أو عالمـــا أو وليـــا ، ذكر أبو القاسم لفظ المناقب في قوله " قد سألني سائلون أن أؤلف لهم ما انتهى إلي من مناقب الشيخ الصالح الجليل ، أبي إسحاق بن إبراهيم بن احمد الجينياني رضي الله عنه في حفظه و علمه وسيرته ، في نسكه وزهده ، و انقطاعه في العبادة " [2] و قد شمل هذا التفصيل كـــل منـــاحي وجوانب مساحة المناقب ، ويمكن إدراج المناقب ضمن فن التراجم و هـــي عامـــة أو خاصـــة بالأولياء و العلماء و الشيوخ الصالحين و مما يذكر عنهم :النسب ، تاريخ و مكـــان المـــيلاد ،مراحل الدراسة و التعليم ، الشيوخ و الأساتذة، الأسفار و الرحلات، التـــدريس و التـــأليف الآثار وذكر كل ما خلفه لمن بعده، شهادات معاصريه، أراء و انتقادات لإنتاجه و مواقفه .

و المناقب هي " أوصاف الشيخ و نسبة الكرامات إليه ، من عجائب الأفعال و خوارق العادات و هي مجموعة المؤلفات الصوفية " [3]

و للمناقب أهمية كبيرة في مجتمعاتنا لأنها مجتمعات دينية ، تسعى جاهدة إلى التمسك بالكتـــاب والسنة ، و الاقتداء بالسلف الصالح ، ووجدت في هذا النوع من الأدب غايتـــها ، و المتلقـــي لنصوصها شغوف بها ، يشتد و يقوي إصغاؤه أكثر مما يقوي و يشـــتد لأحـــداث التـــاريخ فأحداث التاريخ لا تثير مشاعره مثلما تثيرها المناقب ، حيث يتطلع من خلالهـــا إلى الانتقـــال بالروح و العيش في كنف الصالحين ، وعليه كان الخطاب فيها أكثر دلالة و إقناعا .

أن أولى السير في حياة المسلمين بالاهتمام.هي سيرة النبي صلى الله عليه و سلم

---

1) عبد الحميد بورابو، البطل الملحمي و البطلة الحية في الأدب الشفهي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1998 ص 57 .

2) Aboul qasim Allarbidi , Manaaqib , Abou Ishak Al-Jabiniani , Imprimrie " la rapide, Tunis P 02

3) أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، تحقيق عادل أحمد ، منشورات ، دار الكتاب ، ج 8 ، 2001 ،ص127

والخلفاء الراشدين بعده ،ثم التابعين ،وهي نماذج أصيلة ،يتكرر ذكرها ويرجع المسلمون إلى متونها في كل زمان ، و هذه النماذج الأصيلة التي تقاس عليها أقول المسلمين و أفعالهم ، هي القياس في المناقب ، إذ وجب أن يكون لكل إمام،إمام يقتدي به .

و أدب المناقب يختلف عن السير التي أسلفنا ذكرها ، بكونه يتصف بالجمع بين الواقعي والخيالي ، البشري و الإلهي و هنا تدخل الكرامة بوصفها حكاية تشترك مع الخارق العجيب الذي يختلف عما نعرفه من عجيب الأجناس الأدبية الأخرى .

في هذه المناقب يجد المتلقي ذاته الأخرى ، التي يبحث دوما عن وجودها أو تشكيلها ، لينتقل بجسمه و روحه إلى فضاء روحي أوسع و أعمق ، في طهر و صفاء ف :"الحكاية المنقبية تمثل استهلالا لمجال جديد للتنقل ، ينعدم ضمنه الفضاء الملموس و يبدأ السلوك العمودي باتجاه السماء [1]"

الكرامة :

الكرامة لغة : حاء في لسان العرب كرم : الكريم من صفات الله و أسمائه و هو الكثير الخير الجواد [2] . و في أساس البلاغة للزمخشري مادة : ك.ر.م كرم علينا فلان كرامة و له علينا كرامة و أكرمه الله و كرمه و أكرم نفسه بالتقوى و أكرمها عن المعاصي و هو ينكر عن الشوائن ، و إن أجل المكارم اجتناب المحارم ، و هم الأطيبون الأكارم ، يقال كارمت فلانا و في الحديث أن الذي حرمها حرم أن يكارم بها و فيه أيضا إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه " [3] و في معجم العين " الكرم شرف الرجال و تكرم عن الشائنات أي تتره و أكرم نفسه عنها ورفعها : [4]

الكرامة اصطلاحا :

للكرامة مفاهيم عديدة ، تتماثل و تتداخل لتلتقي كلها في ذلك الفعل الخارق و السلوك المميز الذي يعتقد بان الله خص به صفوة من خلقه هم أولياؤه.

---

1) عيسى لطفي ، أخبار المناقب ، دار شيراس للنشر ، تونس 1993 ، ص15

2) إبن منظور ، لسان العرب ، ج7، ص125

3) الزوخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، ص 54

4) الفراهيدي، العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي ، م 5 ، مكتبة الهلال ، 1986 ، ص 366

ويقصد بالفعل في هذا السياق مات يخرج عن عادة القوم ويفوق طاقتهم الفكرية و العضـــوية مثل قطع مسافة زمنية طويلة في أقل من لمح البصر بدون وسيلة أو مركب . أو الطيران في الجو ، أو التحكم في حركة وسكون طير أو حيوان إلى غير ذلك مما يفوق قدرة البشر ، كما تشتد الكرامة إلى المعجزة لما بينهما من تشابه و تلاقي فكلاهما من الخوارق إلا أن المعجزة تكـــون للأنبياء و الكرامة تكون للأولياء .

و الأولياء من عامة الناس بل إن في كثير من الأحوال تنسب الولاية لشخص عرفه الناس ، بل إن في كثير من الأحوال تنسب الولاية لشخص عرفه الناس فاقد العقل ، يقول إبن خلدون :" من هؤلاء المريدين المتصوفة قوم بها ليل معتوهون ، هم أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهـــم مـــع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية ، وأحوال الصديقين"[1].

ويشترك الأولياء و الأنبياء في أن لهم مدارك أهل العلوم الدينية و المعارف الربانيـــة ، غـــير أن الأولياء حصلت لهم هذه المعارف و العلوم بالهداية ، بينمـــا حصـــلت للأنبيـــاء بـــالفطرة ، "وكرمات القوم أمر صحيح غير منكر و إنكارها نوع مكابرة "[2]

و المعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة وكذلك الكرامة إلا أن المعجزة للأنبيـــاء و الكرامـــة للأولياء و المعجزة أسبق فللأنبياء خوارق مخصوصة كالصعود إلى السماء و النفوذ إلى الأجسام و إحياء الموتى وتكليم الملائكة و الطيران في الهواء "[3].

ويقول الجرجاني في هذا الشأن :"الكرامة هي أمر خارق للعادة من قبل شخص غـــير مقـــارن مدعوة النبي فملا يكون مقرونا بالإيمان و العمل الصالح يكون إستدراجا ، وما يكون مقرونـــا بدعوى النبوة يكون معجزة "[4]

وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من معجزات أنبيائه ورسله كما ذكـــرت هـــذه المعجـــزات في الأحاديث النبوية الشريفة .

---

1) http://www.al-eman.com/IslamLib/viewchp.asp?BID=163&CID=5 تاريخ ابن خلدون

2) المرجع السابق.

3) نفسه.

4) الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت 1978 ص 184 .

ظهور قصص الأولياء (الكرامة) في الجزائر:

كانت بداية ظهور قصص الأولياء في الجزائر مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، عند ظهور عقيدة الولاية و انتشارها بسبب ازدهار الطرق الصوفية .

وقد ظهرت في أول الأمر في مجالس الجماعات الصوفية التي تدور موضوعاتها حول أقطاب الطرق الصوفية ثم شاعت و انتشرت بين الجماهير عن طريق دعاة الطرق الدينية و الرواة المحترفين .

ويميزالدارسون بين نوعين من قصص الأولياء ، قصص شائعة منتشرة في كل الجزائر ، تمثل شخصياته أقطاب التصوف المشهورين أمثال : الشيخ "عبد القادر الجيلالي" ، الشيخ "أحمد التيجاني" ولهؤلاء رواة محترفون ، أما النوع الثاني فأقطابهم جهويون أو محليون لا يتعدى ذكرهم جهة أو منطقة محدودة ويروي قصصهم رواة محليون .

ومن نماذج قصص الأولياء ما كتبه عبد الحميد بورايو في واحد من بحوثه: [1]

1- قصة "سيدي عبد القادر و العجوز"

تحكي القصة أن "الشيخ عبد القادر الجيلاني" و "الشيخ بومهدي" و"الشيخ السبتي بلعباس" و"الشيخ عيسى" و جميعهم من الأولياء المعروفين التقوا في أحد الأيام ، و ترافقوا يبحثون عن من يقبل أن يستضيفهم وكانوا متنكرين في زي رجال عاديين ، و لم يقبل أحد استضافتهم فيما عدا عجوز كفيفة فقيرة تعيش مع إبنتها في كوخ و ليس عندها في البيت سوى عترة وحفنة من شعير ، رحبة العجوز بالضيوف ودعتهم للجلوس في كوخها وخرجت لعلها تجد من يمنحها طعاما لضيوفها ، ولكن جميع سكان القرية امتنعوا عن إعطائها شيئا فعادت المرأة إلى البيت و الحيرة تملؤها ،فسألها ضيوفها عما يقلقها فشكت لهم ضيق ذات اليد، فطلب منها "الشيخ عبد القادر الجيلاني" أن تأتي بحفنة الشعير التي كانت تحتفظ بها وأن تحضر الرحى ثم قام وفرش ثوبه تحت الرحى ، وشرعت ابنتها تطحن حفنة الشعير ، وفجأة وبفضل بركة الولي الصالح تكاثر الشعير و إذا بالبنت مستمرة في الطحن لمدة طويلة بينما كان الدقيق يترل من الرحى بغزارة ، فملأت كل ما في البيت من أوعية واستمر الدقيق يفيض على جوانب الرحى وحفنة الشعير باقية كما هي عند ذلك أمرت المرأة ابنتها أن تذبح العترة الوحيدة التي تستفيد

---

1) عبد الحميد بورايو ، الأدب الشعبي الجزائري ، ص100-101

من لبنها، على الرغم من محاولة الجيران أن يمنعوها عن الفعل و عندما حضر الطعام طلب منها "سيدي عبد القادر" أن تستدعي جميع سكان القرية ليشاركوهم الطعام وجاء الناس ليشـــهدوا على غباء العجوز التي قضت على آخر ما عندها من رزق في سبيل استضافة هـــؤلاء الغربـــاء الذين امتنعوا هم عن استضافتهم رغم فقرها و سوء حالها ، ولشدة دهشتهم وجـــدوا طعامـــا وفيرا فأخذوا كلهم يأكلون حتى شبعوا وتفرق الناس و قضى الأولياء ليلتهم ،وفي الصباح قاموا ليغادروا الكوخ ولكن قبل أن يغادروه اتفقوا فيما بينهم على أن يقدم كل واحد منهم خدمـــة لهذه العجوز فأحضر لها "الشيخ عبد القادر" ابنها الذي جندته فرنسا في صفوف جيشها وصنع لها "الشيخ السبتي بلعباس" بيتا يقوم على ركائز من ذهب ، ورد لها "الشيخ بومهدي" بصرها ، وأحضر لها قطيعا من الغنم انتقاه من قطعان الناس الذين لا يؤدون فريضة الزكاة.

الحكاية الخرافية

الحكايات الخرافية هي شكل من أشكال التعبير القصصي ذات الطابع العالمي، وقد عرفت شعوب العالم كلها على اختلاق أجناسها وبلدانها هذا النوع من الأدب الشفهي في مرحلة ما من مراحل حياتهم، ووجد هذا النوع من القصص الشعبي عناية و اهتماما أكثر من أي شكل آخر من طرف العلماء و الباحثين والانتروبولوجين.

والحكاية الخرافية هي ترجمة للمصطلح الفرنسي Conte merveilleux و Conte de fees وأطلق عليها العرب في مصطلحاتهم : الحكاية العجيبة، الخرافة،الحكاية السحرية ،حكاية الجن،وسماها المجتمع الجزائري،حجاية،خرافة، حزيفية، وبالأمازيغية أما شهوش[1].

وتتداخل الحكاية الخرافية مع الأسطورة لتقاطعها :"فالحكايات الشعبية (الحكايات الخرافية) في مجتمع ما أساطير في مجتمع أحر ، و العكس صحيح ، وهذا هو السبب الأول لإدراك التصنيفات العشوائية ، إضافة لذلك ، فإن المتخصص في علم الأساطير يلاحظ عادة أن نفس الحكايات ونفس الشخصيات ونفس الموتيفات تظهر في حكايات و أساطير مجتمع ما في صيغة شبيهة أومعدلة ، وعلاوة على ذلك، فإن المرء في محاولته معرفة السلسلة الكاملة لتحولات الموضوع(Thème) الأسطوري ، نادرا ما يحصر نفسه في الأساطير (المقيدة إلى هذا الحد من قبل القبائل) فبعض هذه التحولات يجب أن تمتد إلى حكايات ، رغم أنه من الممكن أن نستنتج وجودها من الأساطير الحقة[2].

تعتبر الحكاية بصفة عامة جنسا ادبيا مستقلا عن الأسطورة وعن غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى ، وتعتبر علما لا جنسا أدبيا فحسب، يرجع هذا الإختلاف بينها إلى أن:

"الحكايات مبنية على تقابلات أضعف من التقابلات الموجودة في الأساطير ،وهي أيضا، ليس كزمولوجية ولا ميتافيزيقية أو طبيعية ولكنها في أكثر الأحايين محلية و اجتماعية و أخلاقية ، إضافة إلى ذلك ، فالحكاية الشعبية تحويل ضعيف لموضوع (thème) يكون تحقيقه الأقوى خاصية للأسطورة ، ولهذا السبب فهي ، أي الحكاية ، تخضع خضوعا صارما بدرجة أقل من خضوع الأسطورة للاعتبارات الثلاثية المتمثلة في الترابط المنطقي والمعتقد الديني و الضغط

---

(1)- ينظر، عبد الحميد بورايو ، الأدب الشعبي الجزائري ،ص107

(2)-كلود ليفي ستروس و فلاديمير بروب ، مساجلة تصدد علم تشكل الحكاية ، دارالبيضاء ،دار قرطبة للنشر، 1988 ، ص307.

الإجتماعي ،والحكاية تسمح بامكانات التلاعب ، و مقارنة بالأسطورة، فإن تغيراتها الأساسية لها حرية أكبر وتكتسب بمرور الوقت صفة عشوائية معينة ، ولكن إذا كانت الحكاية تعمل بتقابلات أقل يصبح التعرف على هذه التقابلات من الصعوبة بمكان ، وتزداد هذه الصعوبة لأن هذه التقابلات، عندما تصبح ضعيفة جدا، تتميز بعدم ثبات يجعلها قريبة من الإبداع الأدبي"[1]

الأسطورة :

الأسطورة هي : "حكاية الأزمنة الخرافية و البطولية وهي حكاية وهمية في أسلوب مجازي تبسط معارف تاريخية و جسدية وفلسفية عامة وهي التاريخ في صورة تنكرية وهي فكرة بدوية تاريخية صيغت بصيغة الإطناب و المغالات لإظهار أهمية الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس وهي تصوير لعالم المانا (mana) في المفهوم البولبيزي ، أي عالم القوى الخارقة للعادة و المجهولة التي لا تستطيع تحديدها وهي أخيرا حكاية خرافية ذات أصل شعبي ، تعرض لأشخاص يرمزون إلى قوى الطبيعة و أحوال البشر"[2]

إن الأسطورة أقدم من الحكاية الخرافية ،فهي تضرب بجذورها في أعماق الماضي البعيد ، حيث نسج إنسان هذا الماضي البعيد تعبيرا عن خيال الجماعة قصصا حول الآلهة و الكائنات المقدسة وهذه القصص لها علاقة قوية متينة بمعتقدات الجماعة وطقوسها ، وهي تتعبد آلهتها ، ومع الزمن تحولت الأسطورة إلى خرافة وقد يتعايشان معا.

ويرجع الطاهر وعزيز حقيقة نشأة الأسطورة إلى عجز الفكر عن التعبير المجرد ، حيث لجأ الأولون كثيرا إلى التعبير المجازي فهم يقولون " إن الشمس تحب وتعانق الفجر بدل أن يقولوا إن الشمس تتبع الفجر"[3]

هذا الرأي يذهب فيه الطاهر وعزيز إلى أن الأسطورة لا وجود لها إلا في ضفاف التعبير على سبيل المجاز المقصود أما عند المسلمين فالاسطورة هي ضرب من ضروب الوهم و الكذب الباطل وهذا ما جعل المفكر محمد أكون يؤاخذهم على موقفهم هذا ويدعوهم إلى تفعيل العقل في هذه المصطلحات .

---

(1)- المرجع السابق، ص 308.

(2)- مصطفى الجوزو،من الأساطير العربية و الخرافات، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، لبنان،ط2، 1980،ص 8-9

(3)- الطاهر وعزيز، بنوية كلود ليفي ستروس ، دارالكلام ،الدارالبيضاء ،المغرب،1990 ص 145.

من الأساطير (الجزائرية) القديمة: [1]

أسطورة النفس و العشق لابولي دومادور(Psyché et Amour . Apole Demador)

اشتمل التراث القصصي الشفوي الجزائري على بعض الأساطير القديمة ومنها هذه الأسطورة :

تروي القصة أن امرأة بارعة الجمال ظهرت قديما في أرض اليونان وجلبت انتباه النـــاس إليهـــا وشغفتهم بها إلى حد أنهم نسوا آلهة الجمال عندهم و معبودتهم فينوس (Vinus) وأصـــبحوا لا يلهجون إلا باسم هذه المرأة التي تنتمي إلى عالم البشر وقد تمادوا فعبدوها وقدموا لهـــا قـــرابين الولاء و أهملوا عبادة فينوس وتركوا معابدها وأنصابها معرضة للتلف و الإهمال ولما بلغ الخـــبر مسامع الآلهة فينوس استشاط غضبا وحرضت ولدها كيوبيد إله الحب على الانتقام لها من هذه المرأة وكان كيوبيد مراهقا ترفا ومتهورا وماجنا وخليعا عرف بتزواته و سلوكه العدواني تجـــاه البشر و الآلهة معا لقد كلفته بأن يعمل على أن يزوج هذه الفتاة بأقبح كائن على وجه الأرض، بلغ أهل سبيشي نبأ غضب الآلهة فتملكهم الرعب وأحجم الشباب عن التقدم لطلـــب يـــدها للزواج منها خوفا من انتقام الآلهة و قصد الأب المعبد ليتوسل للآلهة ، فسمع هناك نبوءة تتوقع شرا سيلحق بالفتاة الجميلة التي تطاولت على الآلهة وأمرته النبوءة بأن يحمل ابنتـــه إلى جبـــل ليتركها للريح المأمورة فتحملها أينما رسمت لها المقادير نفذ الأهل وصية الآلهة وحملوا ابنتهم إلى جبل لتحملها الرياح حيث وجدت نفسها زوجة لشخص خفي امتنع عن الظهور أمامهـــا في ضوء النهار فكانت لا تحس به إلا ليلا في سرير الزوجية فكان دائم التحذير لها أن تسعى لمعرفة حقيقته وأن تتصل بأختيها ، استقدمت أختيها اللتين حاولتا معرفة أسرارها و التأثير عليها لكي تسعى بمختلف الوسائل لمعرفة حقيقة زوجها فوفرتا لها قناديل لكي تستعملها أثناء الليل للتعرف عليه نفذت اقتراحهما وحملت القنديل وكشفت عن وجهه وهو مستغرق في النوم ، وجدتـــه بارع الجمال فذهلت عن نفسها وأمالت القنديل فنزلت منه قطرة زيت حاميـــة تســـببت في استيقاظه وإحراق موقعا في وجهه فغادرها غاضبا والتحق بأمه فينوس وهو يعاني من ألم الحرق. عوقبت الفتاتان المتسببتان في ألم الآلهة كما سلط العقاب على سبيشي (النفس) فظلت هائمة على وجهها تبحث عن زوجها الهارب وقد ساعدتها بعض الآلهة في إرشادها على الطريق الذي سلكه ولما وصلت إلى عالم الآلهة أين كانت تقيم الآلهة فينوس كلفتها هذه الأخيرة بمجموعـــة

(1)- عبد الحميد بورايو ، الأدب الشعبي الجزائري ، ص 151.

من المهام الصعبة التي كادت تؤدي إلى هلاكها غير أنجزتها بمساعدة كيوبيد نفسه وعدد من الآلهة المتعاطفة مع قضيتهما وفي النهاية رضيت عنها الآلهة وعن كيوبيد و تقرر ما أسسته علاقتهما فتزوجا من جديد وعاشا سعيدين وأنجبا بنت سمياها اللذة"[1]

تطرح قصة الأسطورة قضية زواج الإله كيوبيد" اله العشق" من امرأة إنسية زواجا يبدو في بداية القصة غير مرغوب فيه من طرف الإلهة" فينوس" وتعمل كل ما في وسعها لإبطاله ومعاقبة الفتاة. غير أن التحولات التي حدثت في القصة أنهت الصراع عن طريق دمج الفتاة في عالم الآلهة بعد نجاحها في مجموعة من الاختبارات ومن المهام الصعبة التي كلفتها بها" فينوس" وزواجها من كيوبيد.

وتعلن القصة منذ البداية عن علاقة تسلط الأم وولدها. إنها علاقة سلبية تضطر الابن أن يتزوج سرا من الفتاة الإنسية، مما يجعله عرضة لمؤامرات أخوات بسيشه فيصيبه الضرر ويضطر إلى الهرب، وهنا إشارة أيضا إلى تسلط المرأة في الأسرة الملكية التي تنتمي إلى العالم البشري، يؤكد ذلك ما نسبته الأسطورة للأب من موقف يتسم بالخضوع للقدر والقبول بالمصير الذي ينتظر ابنته خلافا لإرادته. يمكن أن نستنتج من ذلك بأن العلاقات الأسرية المعبر عنها في بداية القصة تنتمي للنظام الأسري وقد ربطت القصة بين تدهور مصائر الشخصيتين الرئيسيتين(بسيشه وكيوبيد) من ناحية وخضوعها لهذا النظام، وكشفت القصة في نهايتها، واثر التحولات التي حدثت عن تحسن مصير الشخصيتين المذكورتين، وهو تحسن مقرون بظهور سلطة" كيوبيد" التي كانت تخضع مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وطيور، وكذلك خضوع بسيشه لإرادته وتعليماته، ثم انتقالها إلى المكان الذي فيه مع أهله إلى جانب قيامها بوظيفتها المتعلقة بالأشغال المترلية، ثم في الإنجاب في النهاية، وهي جميعا سمات تميز علاقات النظام الأسري الذي يبدو أن القصة الأسطورية تبشر به وتقدمه على أنه هو الأفضل؛ فالأسطورة تميز بين الأفراد على أساس الدور الاجتماعي وهي محاولة تحديد الأشكال الأسرية الرئيسية في المجتمعات من أجل التقرب من القوانين الاجتماعية كما أنها تعكس النمط الاجتماعي الذي يضمن ثبات البناء من خلال الاستقرار الديناميكي القابل للتغير.

---

(1)- لوكيوس أبوليوس ، الحمار الذهبي ترجمة أبو العيد دودو ، منشورات الإختلاف ، الكتاب الخامس ، الجزائر ، 2001 ص 133-167 .

الإستشراق الفرنسي والقصة الشعبية في الجزائر (نمـــــــاذج):

إذا كان لأدب المغازي مكانته المحترمة في الأوساط الشعبية ،فان بقية الأنواع القصصية لهـــا مكانتها بدورها،فقصص البطولة العربية البدوية حاضرة بقوة بين البدو،وســـيرة بـــني هـــلال نموذجها.

اهتم المستشرقون بالسيرة الهلالية ومن بين هؤلاء المستشرق الفرنسي فيسير الذي ترجم قصة الجازية وديباب ونشرها في المجلة الإفريقية تحت عنوان: أولاد رشاش[1] وهذه ترجمتها:

أولاد هلال جاءوا من مصر، وأقاموا جميعهم بالصحراء الليبية، وفي هذه الأثناء أستقر بعضـــهم لمدة في الصحراء الجزائرية وكان من بينهم فتاة من نبلاء الأشراف وتســـمى جازيـــة بنـــت صحران، وكانت قبيلتها فخورة بها، وكانت أجمل الأغاني تؤدى ليلا في حسنها وجمالها علـــى جلسة تشعل فيها النيران.

وفي يوم من الأيام استدعت جازية أربعين بنتا جميلة من النبلاء للسمر، وكان في هذه القبيلـــة شاب يدعى دياب بن غانم، وهو يتيم لا يملك إلا أربعين شاة وعجلا واحدا، أخـــذ الشـــاب قطيعه إلى المرعى قريبا من مسكن جازية، ولاحظ في هذه الأثناء من بعيد جماعة الفتيات اللواتي استدعتهن جازية، أقترب منهن ودنا ليرى عن كثب خالة جازية كما لاحظ أن جازيـــة قـــد غرست بعض نبات الخرشوف وكانت مهتمة بذلك كل الاهتمام، فاقترب وقطف أربعة حبات من الخرشوف بسكينه وأكلها، ولما رأته جازية صرخت وطردته، بطريقة فجة وقحة فأجابها.

الهيف للي ما يطعم الضيف النفس خضراء والربيع للضيف

فغضبت جازية من رده وقالت للفتيات اللواتي كن معها، علينا بأخذ نعجة لكل واحـــدة مـــن قطيعة ،وتم ذلك و لم يبق له إلا العجل، ثم قامت كل بنت بذبح نعجتها ، وذبح هـــو عجلـــم وأنشد وقال: [2]

الغنم لحم الوداييد والسمن فيها بزايد
خرفان وحليب رايب ومعاش للعرب ديما
خرجوا لهم قوم عاصب بعدد ذيل الغنيمة
خلوا فحلها يصيح بصياح لم الحنينة

1 – فيسيير، أولاد رشاش ، المجلة الإفريقية 1892 ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص312–324

2 – المرجع نفسه، ص314

هذاك بسهمي معهم الفحل للفحل ديـــما
صحوا عليهم الكل ضحيت فحل الغنيمة
هكذا شأن الدنيا غني وفقير ديـــما
مالي كلوه الحرائر هذيك عنذي غنيمة

هذا الكلام وهذا الاعتزاز بالنفس دفع جازية للتفكير في القول مليا ثم قالت: "إن دياب بـــن غانم رجل"، وأقنعت زميلاتها البنات المقيمات في الخيمة الكبيرة بأن تطلب كل واحدة ناقة من أبويها لتقدمها لدياب تعويضا عن النعاج التي ذبحها والتي كانت تشكل كل ما يملك من ثروة، وما قيل فعل، إذ قامت كل واحدة من البنات بإعطائه ناقة وكذلك فعلت جازية التي قدمت له جملا ذكرا.

وهكذا وبفضل الفكرة التي استقاها دياب عن غنمه وكرمه، أصبح لديه قطيع من الإبل بـــدلا من قطيعه الصغير من الغنم، والذي كان ذا ثمن بالنسبة إليه، هذا ما وقفت عليه جازية.

واصل دياب بن غانم كما اعتاد، رعي قطيع الإبل، وبعد عام من ذلك وحيث كان يأخذ أبله إلى المرعى، لمح رجلا يقترب منه وهو يسوق مهرتين آخذا بناصيتها، وكانـــت واحـــدة مـــن المهرتين بيضاء اللون.

و كانت تسحب على الأرض ثم تنهض و لم يكن صاحبها يدري ما يفعل بهما ، فقال دياب بن غانم أن هذه المهرة من فصيلة جيدة وذات سرعة فائقة، فقام وطلب مـــن صـــاحب المهـــرتين والذي كان يهوديا إن كان يريد أن يبيعهما، ورد عليه اليهودي بالإيجاب أيه يريد بيعها، فقال دياب بن غانم: كم تطلب من في المهرة البيضاء؟ أو ما ثمن المهرة البيضاء؟ فؤاد عليـــه الرجـــل اليهودي: أعطني كل القطيع الذي تملك أعطيك المهرة البيضاء، ثم أعاد دياب بن غانم الطلب، وبعد محادثات مطولة، قيل اليهودي بثمانية نوق مقابل المهرة البيضاء.

وكان دياب بن غانم يرافق دائما هذه المهرة بقطيع الإبل علما فرج للرعي وكان يعطيها بـــدل الشعير حليب الناقة وبعد مرور ثلاثة إلى أربعة أعوام أصبحت المهرة فرسا جميلـــة، وفي هـــذه الأثناء تضاعف قطيع دياب بن غانم وأصبح غنيا فأخذ لنفسه امرأة وعين راعيا كان يخلفـــه في رعي الإبل، بينما كان هو يقضي وقته في العيد وكان ليشارك في الهجمات التي كان يقيمهـــا رجال فرقته ضد الشعوب المجاورة وبعدها ذاع صيته وذاعت شجاعته في كل القبيلة.

وفي هذه الأثناء، ذاع صيت جمال جازية الجارف حتى بلغ أسماع اليهودي التاجر الذي كان يجب القبائل من أجل التجارة، وكونه لا يستطيع الزواج من جازية راودته فكرة خطفها، ولتنفيذ مشروعه قدم إلى دوار جازية على ظهر حصان جميل قوي وسريع والذي لم يكن لدى أي شخص آخر مثله.

فما اقترب من الخيمة طلب كعادته "من يريد شراء الجواهر وأسورة من ذهب والفضة"؟

ولما سمعته جازية أرسلت إليه إحدى خادماتها من جهة لتختار لها سوارين من الذهب، ذهبت الخادمة تقتفي البائع وطلب منها لمن يشتري السوارين، فأخبرته أن ذلك لسيدتها، فأعطاها إياهما لتقدمها لسيدتها.

هذه الأخيرة (السيدة) وجدتهما، كبيرا جدا فأعطى التاجر للخادمة سوارين آخرين، كانا صغيرين أيضا بالرغم من قال اليهودي: أطلب من سيدتك المجيء حتى تجرب بنفسها السوار ين، ولما أرى يديها أتمكن من أن أختار لها ما يناسبها.

ولما قالت ذلك لسيدتها، خرجت السيرة واقتربت من الغريب الذي بقي راكبا جواده.

مشدوهة مما رأت سألته: لماذا لم تزل من على الجواد؟

فرد عليها: أنا في عجلة من أمري وتجارتي ليست كثيرة، جربي السوارين أولا لأني سأذهب إلى دوار آخر قبل حلول الليل، جازية مدت يديها لليهودي لتربية مرفقيها، أخذها اليهودي وجذبها إليه على راحلته واختفى يسارع الرياح، وفي الحين ركب رجال الدواوير آخر المجاورة.

وفي ذلك اليوم كان دياب بن غانم قد خرج للصيد مع اثنين من أصدقائه زيد وأبو زيد، وكانوا قد اصطادوا غزالا وقد توقفوا في الطريق لشواء إحدى القطع من الغزال وكانت بجانبهم والرصن مربوطة إلى الأرض وكانت تمضغ ما أكلت وحتى لحظة من الزمن رفعت الفرس البيضاء رأسها ثم سوت أذنيها وأطلقت صيحة طويلة، فقال دياب بن غانم: [1]

البيضاء أوحت وإلا استوحت أما النجع إتخذ ولا الجازية عدت

الرجال الثلاثة ركبوا أحصنتهم صوب الدوار وعند وصولهم علموا باختطاف جازية، وبدون انتظار فرجوا هم أيضا في البحث عن الفاعل، و لم يمضي وقتا طويلا حتى بلغوا أولاد هلال وهم يتبعون أثارهم والذين تابعوا التاجر اليهودي، وقبل حلول الظلام كان دياب بن غانم على

1 - المرجع نفسه، ص317

صهوة فرسه قد بلغ اليهودي فتاوى على جازية التي كانت تدير رأسها لترى هل هنـــاك مـــن يقتني أثر اليهودي فقال دياب بن غانم:

وكان دياب بن غانم بالرغم من وصوله إلى اليهودي تابع المسير خلفه حتى لا يلحق به الآخرون ولن يكون له الوقت الكافي للاجتماع بالفتاة ، فتابع المسير حتى حلول الظلام لكنه خـــاف أن يختفي عن نظره اليهودي مع حلول الظلام زاد من سرعته فلما بلغه ضربه برمحه.

بعدها إجتمع دياب بن غانم بالفتاة التي لطالما أحبها من أول لقاء، وفي عمق الليل وبعيدا عـــن الأنظار الحاسدة، عاشت جازية لحظات الحب واللقاء الذي كبر بعد أن حررها الحبيب دياب بن غانم من أيدي هذا المغتصب، أرادت النزول من على الحصان الخاص باليهودي الذي كانت لا تزال تمتطيه لترتمي في حضن من حررها.

ولكن دياب بن غانم الذي ضمها بقلبه، أثر الصبر على أن يفعل ذلك و لم يرد التفاهم مع تلك التي كانت الشرف بالنسبة لها أكثر من الحياة.

فعرف كيف يسكت حبه ويفرض الهدوء على رغباته الجارفة التي كانت تعكس ما يريد فقـــام وترجى الفتاة أن لا تنزل من على صهوة الحصان للوصول إلى القرية وتفادي الالتقاء بالرجـــال الذين كانوا من خلفهم فقير المسار للدخول إلى القرية أو الدوار.

وسارا جنبا إلى جنب حوالي الساعة، كان دياب بن غانم ليسمع رفيقته حلو الكلام وكانـــت هي ترد عليه بتنهدات وبكلمات متقطعة من فرط ملء قلبها بالحب.

وفي غفلة منهما وبينما هما يسران معا اقترب الحصانان من بعضهما انحنى دياب بن غانم وأخذ الفتاة من جسمها، قربها منه ووضع شفته على شفتي الفتاة لفترة ليست بالقصيرة.

وكانت الفتاة ترتجف فارتعت مما كان يجول بخاطرها وقالت يا دياب بصوت ضعي النســـمات في صيف الصحراء.

يا دياب: يا رقيق أحلامي العذراء، أنت الذي أحببت منذ فترة طويلة بدون أن تعلـــم أمـــي بذلك، حبك أرق من ذراعك، أنا ملك لك أنا أحد أغراضك، لا تدعني أعاني أكثـــر، ضـــع رجلك على الأرض واقترب من قلبي" فرد دياب عليها: ريقك أحلى على شفتي من بارد المـــاء في الواحة".

لقد أحببتك منذ أن رأيتك لأول مرة، وكامل جسمي يرتعش لما أعرف أنـــك لي، أريـــدك- أرغبك فيك حتى الموت".

سيلحق فرسان قريتنا أثارنا ويعلموا ما فعلنا، و لم يسكتوا عما فعلنا أو الشك حتى مـــا فعلنـــا أوقمنا به، يجب أن يجعلنا الحب ننسى التريث ويمكننا أن تكون مسرورين بعيدا عن أعينهم.

قال ذلك وهو يتكئ على رمحه ثم اقترب قليلا من حصان جازية وجعلها تترك له مكانا خلفها لأنها كانت تعرف ما يقصد ثم استدارت إلى الخلف وضمته بذراعيها وقبلته في فمه وتاهت من حبها له مغمضة العينين الواسعتين كأنها عينا غزال، وبعد أن قضيا من الحب ما أراد عاد دياب بن غانم إلى فرسه التي كانت مربوطة إلى رمحه المغروز في الأرض وركبها وتابعا طريقها عائدين إلى القرية التي وصلاها عند الليل وعند العودة رآها الهلايلية وشكرا في أن تكون جازيـــة قـــد (أعطت جائزة) جازت دياب غنام عن صنيعه إذ أنقذها من أيدي الشرير ابن الحرام.

وقد ارسل الهلايلية فارسين يقتفيان أثر المسير للتأكد من توقف الرفيقين (ديـــاب بـــن غـــانم) وجازية خلال الجادة ووضعا أرجلهما على الأرض وهل ارتاحا جنبا إلى جنب بعد ثلاثة أيـــام أبلغ الفرسان القرية أن كل الآثار كانت تدل على تنافس السير و لم يحدث أي توقف.

إن فرقة من الهلايلية وافقت على الأقوال التي أتى بها الفارسان بأن جازية خرجت من المغـــامرة سليمة بينما قال الفريق الآخر باستحالة بقاء شخصين معا وخاصة جمال جازيـــة الأخـــاذ و لم يستغل دياب بن غانم الفرصة لينقض عليها خلال ليلة كاملة، وقال خليفة زناتي أحد قادة زناتة أن جازية لم تكن نقية وهو احد المحاربين الذين يحسب لهم ألف حساب، ومن ذلك اليوم وهو يحب جازية خفية بينما كان قلبها يتعلق بشخص آخر والذي كانت تتعذب من أجله، وقيل أن جازية لم تصبح عذراء، ودارت ملاسنات بين الزناتة الذين يقولون سواء عن جازية وأهل دريد الذين يدافعون عن شرفها وعزتها، وتقورت إلى أن أصبح السب والغرب ع التقاتل إلى أن مات العديد من الفريقين في معارك بين القريبين.

ونظرا للقتل الذي طال القبلتين، إقترح خليفة زناتي أن يكون بن غانم هو البطل وأن يلتقيـــا في مقابلة خردية فقيل دياب بن غانم العرض، والتقى المحاربان في اليوم الموالي في ساحة دائرة كبيرة كانت تجمع أفرادا من القبيلتين.

أهل زناتة وأهل دريد، وقد حضرت جازية المعركة وكانت وكأنها تحكم بينهما أو تقرأ سهما.

ونظرا للتحكم من السيف والخفة والرشاقة التي طبقت المتصارعين داوما على ذلك لمدة أسبوع كامل دون أن يصاب أحد بأذى أو يجرح.

وعن صباح اليوم الثامن أرسلت جازية قلادتها إلى دياب بن غانم الذي قبلها ووضعها بين شفتيه ثم أشتم عطرها طويلا، الذي كان عطر حبيبته ثم قبل أن يدخل المعركة وضع القلادة على عنق فرسه.

وعند بدء المعركة دياب بن غانم ضرب طوق الفرس التي كان يمتطيها منافسه ولمس الفرس، حيث أثرت شدة الغرفة على الفرس وسقطت أرضا و لم تنهض لعنف الضربة وبقيت رابضة على مؤخرتها.

خليفة زناتي لم يتمكن من متابعة المعركة، لأن الفرصة لم تكن متساوية وتوقفت المعركة، فطلب دياب من خصمه تحديد توقيف آخر للمتابعة فرد عليه بأنه سيفكر.

ولما لم يجد خليفة زناتي فرنسا يضاهي قوة فرسه، بعث بنفسه ابنته إلى دياب بن غانم طالبا منه بيعه فرسه، ولما كان دياب بن غانم أحد الكرماء والخيالة المعروفين، كان يوف خليفة أنه لن يرد طلب فتاة شابة. ولما علمت جازية قصده عن طريق أحد الخدم السريين، انتقلت في مساء ذلك اليوم إلى خيمة دياب بن غانم التي كانت مربوطة إليها فرسه وفرس أخرى بيضاء، ثم أخرجت إبرة من لباسها وغرزتها في فخذي الفرس المرغوبة ثم غطتها بالقطران بحيث تخفي الإبرة وينتفخ الفخذان، وجاءت في اليوم الموالي ابنة خليفة زناتي إلى دياب بن غانم الذي استقبلها أحسن استقبال وبعد أن طلب منها الجلوس وسألها حتى طلبها.

في أثناء ذلك دخلت جازية مع مجموعات من رفيقاتها للسلام على ابنة الخليفة زناتي، هذه الأخيرة التي قفزت أمامها لتسلم عليها، ثم أخذتها جانبا لقربها الفرسين البيضاوتين اللتان كانتا مربوطتين إلى الخيمة وطلبت أن تريها أي الفرنسيين كان يمتطي عادة دياب بن غاتم، جازية أشارت إلى الأقل جودة قائلة أن الأخرى كانت ضعيفة وكانت دائمة مريضة بانتفاخ في الفخذين.

حينها دخلت ابنة خليفة زناتي الخيمة وطلبت من دياب أن يبيعها ... فرد عليها أنه لا يرفض لها أي طلب وأشار إلي الفرس المريضة بأنها هي الأحسن. عليك أن تختاري ما تشائين وبعد فترة من التفكير والتريث اختارت الفتاة الفرس التي كان فخذاها سليمان قام دياب بتركيب الرصن للفرس وأرسلها إلى الخيمة خليفة زناتي.

ولما رآها والدها (خليفة زناتي) رد عليها أن هذه الفرس ليست لدياب بن غانم، لقد خدعك وهو لا يستحق المكانة والرفعة والنبل الذي أعطيناه إياه.

صدقني يا أبي إن دياب بن غانم هو أنبل رجل عرفته القرية وقد كانت الفرسان أمـــام خيمتـــه فخيرني إحداهما فاخترت السليمة المعفاة وتركت المريضة، فرد عليها أبوها كنت أســـديت لي خدمة لو اخترت الفرس الأخرى حتى بفخذيها المريضتين.

فركبت صهوة الفرس وعادت إلى دياب بن غانم، ويتعين خليفة زناتي أنه لن يجد أحسن مـــن فرس دياب بن غانم مهما بحث بعد أن غادرت ابنة خليفة زناتي الخيمة قامت جازيـــة بـــترع الابرتين من فخذي الفرس ونظفتهما بالماء الفاتر ووضعت شيئا من الحنة حتى تتعـــافى الفـــرس وشفيت بعد ذلك.

إلتقى المتنافستان بعد ذلك وكالعادة في مكان كسابقه يعج بالمتفرجين من القبليتين، ومن القرية الأولى أسقط دياب بن غانم منافسه انقض عليه وراحا يتصارعان وهما يلتويان علـــى الأرض، وكان الجمع الحاضر ينتظر ليشفف من منهما سيكون المنتظر من هذه الواقعة القائلة بالرغم من ذلك لا أحد من رجال الفريقين كان يتكلم وبعد مرة طويلة نادى أصحاب الزناتة على الخليفة زناتي "قم" أنهض فسمعته من بين رفيقاتها ونادت دياب الذي سمعها وأنشد يقول " أنا ديـــاب الهلالي فالديب عنده عزمه" وكان نجاح وتغلب دياب على خصمه خليفة الزناتي عند الهلايلية كنوع من العدالة الإلهية، بحيث وضعت حدا لشرور الزناتة الذين لم يتوانوا في الاعتراف بجازية كامرأة ذات أخلاق وكذلك أنقذ دياب بن غانم سمعته جازية حبيبته في نفس الوقت بقيمتـــه وتأنيه وكافأته بأن واصلت حبها له. [1]

عينين جدي الغزال كالشمس ضياء الخدود
سنين ياقوت جالي وزنور سيف الهنود
معشوقتي في هيلالي سهور في الحاش يقدي
يا الجازية لا تخافي بيدي نبكي اليهودي
وتروحوا للتزال لأعراشنا في العويدي

أنا دياب الهلالي كالليث عزيمة
صنديد عند القتال بالرمح عندي سمسمه

1 - المرجع نفسه، ص320

سكين بها نشال	دائم جراحه عديمة
قتلت فرس الزناتي	في يوم حربه طميمة
ومنع هو من يدي	والحرب ماله بقيمة
كجاء نهارا لمينة	وما بقى عنده سليمة
ضربت برمحي الثاقب	في الحين طائع رميمة
ماله يا خليفة الزناتي	رحلت وناسك مقيمة

كما ترحم كور Cour قصة شعبية بين حال قريته قسنطينة سنة 1802 وهي للشيخ بلقاسم الرحموني الحداد وعنوها بالأتي:[1]

وهذه ترجمتها : قسنطينة في 1802م عن قصة شعبية للشيخ بلقاسم الرحموني الحداد.

كان لإعلان الخرب على فرنسا من طرف ألمانيا في أوت 1914 التأثير الشديد على العالم الإسلامي في شمال إفريقيا، وتزامنا مع هذا الإعلان ظهرت أغاني مناهضة لفرنسا والتي انتشرت تقريبا في كل الأوساط، كانت هناك أغاني باللهجة المحلية وبالعربية الفصحى وبالأمازيغية... وقد كانت هذه الأغاني موجهة لكل طبقات المجتمع، وقبل هذا أيضا ظهرت بعض الأغاني مع ثورة 1871، كما كانت موجودة بعض الأغاني المناهضة للأتراك، أسلاف الفرنسيين في الجزائر.

من بين هذه الأغاني المنتشرة جدا في قسنطينة بتاريخ: 1802 كانت أغنية معروفة بقيمتها الاجتماعية، وكم من المهم أن نعرف أن بعض الأشياء عن صاحب هذه الأغاني قبل إعطاء بعض أشعاره.

هذا الشاعر يدعى بلقاسم الرحموني الحداد ولد في قسنطينة وفيها عاش أيضا، توفي أبوه وهو في سن مبكرة، فأعادت أمه الزواج من رجل يمتهن صرفة الحدادة وال=ي تبنّ الشاب بلقاسم كأنه ابنه الحقيقي وعلمه الحدادة والتي ينحدر اسم شاعرنا من هذه المهنة الحدّاد).[2]

كان بلقاسم ينشد الأغاني في السّر .. وبعد هذا توفي زوج أمه فبقي وحيدا ولازم الفراش فأصابه العمى فلم يقوى على العمل، بعد هذا أصبح بلقاسم يتردد على أماكن الحشاشين

1- Constantine en 1802 d'après une chanson populaire du chantier Belgacem Errahmouni El Hadad, R A N° 60 Année 1919 OPU page 224/240

2 – المرجع نفسه، ص224

(مدمني الحشيش) أين كان يستمع للقصص والأغاني الشعبية، وقد كان مولعا بهـــذه الأخـــيرة وبعد هذا بدأ هذا الشاعر في تنظيم شعره الخاص و لم يمض وقت كبير حتى أصبح شعره علـــى كل الألسن في كل مكان.

وفي وقت قصير أصبح بلقاسم شاعر مميز، ممّا أثار خوف بقية الشيوخ من انتشـــار شـــعره ... كان بلقاسم يهاجم بشعره من يشاء ويهجوهم ... حتى أنه في يوم كان جالس عند حلاّق في محله فدخل رجل وطلب من الحلاق حلق رأسه وبعد أن انتهى الحلاق من عمله نهض الرجـــل ووضع في يد الحلاق مبلغا كبيرا من النقود وخرج فتبعه الحلاق وصاح " سيدي أظن أنـــك أخطأت الحساب، لقد منحتني مبلغا كبيرا" فالتفت الرجل له قائل " لم اخطأ ... وإنما أعطيت لك ذلك المبلغ خوفا من أي يهجوني الشيخ بلقاسم الحدّاد حتى لا يهجوني في أبياته".

في هذه الفترة كانت قسنطينة مليئة بالمشاكل بسبب نشوب فتنة في بعض المدن الداخلية خاصة بلاد القبائل الصغرى من طرف الشخصيات الدينية المعادية للأتراك، هذه الاضطرابات استمرت حتى السنوات الأخيرة من حكم "صلاح باي"، كما أن هذه الحركة السياسية لقيـــت تأييـــدا واسعا من طرف السكان الأصليين خاصة السكان البسطاء بالإضافة إلى بعض الدعم من أعضاء جمعية الإخوان الدينية. "ابن الباي" إنقليز Englise وبسبب ضعف سلطة أبوه طغى في المدينـــة ... لم يرد أي ردّ فعل سلبي من طرف القسنطينيين غير كرههم للعناصر مختلطة الأجناس الذي كان مشروعا.

كانت هذه الفترة مناسبة لشاعرنا لمدح سيدي عبد الرحمان مؤسس جمعية الإخـــوان الدينيـــة الرحمانية وتأليف القصيدة الشعبية وهي عبارة عن أغنية عن قسنطينة إليكم بعض مقاطعها: [1]

عامر مكبرة هاي سيدي بالكساد وغلات النعما

كيف نخبر هاي سيدي بالفساد في كمان صوما

باح كل شيء بلا كتما في بلد قسنطينة الدّهما

وعني كلمة "هاي" قلبي اللهجة الجزائرية "أيها" في العربية الفصحى وكلمة "النعما" أصلها نعمة ولكن بسبب القافية تم الاكتفاء بالألف. [2]

---

1 – المرجع نفسه، ص225

2 – المرجع نفسه، ص226

ركاب

واس تنظروا فيها هلكت راهي فسدت

ما بقات تسمى بلدة

من كثير العبد إندخلت رغما عمرت

كل جنس جاها يتهدا

تعمرت كثير بكل خبث وقوى الغوات

تخلطت ورجعت كيف الدا

وأهلها انهزمت وإندمرت والبدو لها حدث

والقضاة عليها يتعدا

إذ حشت بارهوط انعدمت فيها سكنت

هذا يجي وهذاك يغدا

- وكلمة "ركاب" تقال عند ما يريد الشاعر أن يبدأ الغناء[1]

ترفيسة

بالقبايل راهي تحشات والشاوية كلتهم جات

والسوافة ذوك الأزفات حتى مزيتة زادو

مغارية وشراقة حفلات جايين ليها بالكثرات

فازعين ليها الكل بإثبات مثل هيس اجرادوا

بني مزاب أقوات بسلعات الخومس عرات الأمات

مخلفين نساهم وأبنات وبعدهم بولدوا

توريدة

فيها تنبصروا هاي سيدي قالوا أحنا لينا الحرما

راهم يغيروا هاي سيدي في العباد يبليهم بالعما

كل من حضر في ذي النقما في بلد قسنطينة الداهما

واش تنظر هاي سيدي

1 - المرجع نفسه، ص227

وكلمة ""توريدة" تعني اللازمة التي يرددها أو يعيدون غناءها المستمعون في الجوف وبالموازاة مع هذا كان أعداد الشيخ بلقاسم الحداد كثيرون سواء من الأجانب الذين هجاهم شاعرنا أومن أعضاء الجمعية الدينية الذين غاروا من نجاحه وشهرته، كان الشيخ بلقاسم صديقا للبسطاء صديقا، عدوا "للبابوات" ومؤيدهم وهذا ما أدى إلى التبليغ عنه فمطارته فما كان عليه سوى الهرب أين لجأ إلى جبال "شطابة" عند الشيخ "زواوي" رئيس جمعية الإخوان الدينية الحنصلية، أين بقي لفترة طويلة كانت مناسبة لتأليف عدة أشعار خاصة في المدح ولكن إن كنا فعلا نجهل تاريخ وفاته فإننا نعلم علم اليقين أن قصائده منتشرة في كل شمال إفريقيا بدءا من تونس لغاية المغرب وأن قصائده في مدح الأولياء الصالحين في قسنطينة لا يزال تداولها لحد الساعة. [1]

وكعادة كل الناس في ذلك الوقت الذين كانوا مستاءون جدا من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي آل إليها مجتمعهم فإن الشاعر بلقاسم الحداد كان مثلهم بل أشد منهم وهذا ما يتضح من خلال قراءتنا لأشعاره فهو يتأسف بابتعاد الناس عن الدين والفساد أخلاقهم وفي هذه الأبيات أيضا هاجم شاعرنا الغزاة دون أن يسمىّ الأتراك كما تحدث عن اجتياح المدينة من طرف الأجانب القادمين من الشرق والغرب، من بلاد القبائل "مزيتة" بلاد الشاوية (سوف – مزاب) أتوا إلى قسنطينة للبحث عن لقمة العيش قبل العودة إلى الحيال الفقيرة أين يسكنون أو واحاتهم المعزولة بين الرمال. [2]

---

1 – المرجع نفسه، ص240

2 – نفسه، ص240

الشعر الشعبي اصطلاحا :

اختلفت الآراء في تحديد مفهوم القصيدة الشعرية الشعبية ودافع كل فريق عن رأيه بالحجة الموضوعية المقبولة،وكانت مجمل الآراء تنظر إلى هذه القصيدة على أنها"زجل" أو"ملحون" أو "شعبية" ثم فرع أصحابها العنوان الأساسي "زجلا" كان أو "ملحونا" أو شـــعبيا" إلى أنواع أملتها طبيعة النص الشعري نفسه"[1]

إلا أن المصطلح الشائع في بلاد المغرب العربي هو مصطلح "الشـــعر الملحـــون"، يقـــول المرزوقي :"إن الشعر الملحون الذي نريد أن نتحدث عنه اليوم فهو أهم من الشعر الشعبي إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله ، وسواء دخل في حياة الشغب فأصبح ملكا له ، أو كان من شعر الخواص ، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي"[2]

لقد اعتمد المرزوقي في تحديده للمصطلح على مجموعة من الركائز هي من خصـــائص هذه الشعر وهي :

1- أن هذا الشعر منظوم باللغة العامية.

2- أن مؤلفه قد يكون معروفا وقد يكون مجهولا.

3- أن هذا الشعر قد يدخل في حياة العامة أو الخاصة.

4- أن هذا الشعر اعم واشمل من الشعبي.

وكان قبل هذا قد أقر .بمصطلحين فحسب هما " الملحون"و"الشعبي" وأهمـــل مصـــطلح "الزجل".

أما التلي بن الشيخ فيقول :"اختلف الدارسون حول المصطلح الخاص بالشعر غير الفصيح، أي ذاك الذي تداوله الناس شفاهيا وكان باللسان الدارج العام ، فمنهم من سماه "الشـــعر الملحون " ، وسماه آخرون "الزجل " وسماه بعضهم "الشعر الشعبي "،" و في اعتقادنـــا أن تسمية الشعر الشعبي تنسجم مع الإطلاق العام للأدب الشعبي و الأدب العربي معا ، ونحن في حاجة وحيدة إلى وحدة الثقافة و الفكر التي نشكو من عدم قدرتنا على تجســـيدها في

---

[1]) العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، ج 1 ، 1989 ص25.

[2]) محمد المرزوقي ، الأدب الشعبي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط5 ،1967 ص 25

الواقع بالرغم من الأحاديث العامة التي تركز على وجود عوامل الوحـــدة في التـــاريخ والدين و المصير ، لكنها تعجز عن بلورة الفكرة في واقع الحياة "[1].

هذا ما ذهب إليه التلي بن الشيخ في تحديده للمصطلح الواجب إطلاقه على هذا النوع من الشعر،ويقدم لهذا الرأي مجموعة من الحجج والبراهين ، ويخالف بعض الآراء إذ يقـــول: "لست مقتنعا بالتعليل الذي يورده الدكتور عبد الله ركيبي في اختيار كلمة الملحون (وهو شيوع مصطلح الملحون في بلدان المغرب العربي)،علما بأن بعض الدارسين يســـتعملون مصطلح الشعر الشعبي و مصطلح الزجل فالأستاذ محمد المرزوقي استعمل مصطلح الشعر الشعبي ، بينما دعا الدكتور عباس بن عبد الله الجراري ، إلى استعمال الزجل أي أننا حتى في المغرب العربي لم نتفق على مصطلح الملحون ، وهكذا يبقى الشيوع قضية اجتهاديـــة شخصية "[2]

والسؤال الذي لم يجد له الباحثون إجابة هو : ما معني"الملحون" وما معنى"الشعبي".

فكلا المصطلحين لا يستجيبان لخصائص هذا الشعر ، فمصطلح "الملحون" "لا يحقق كل عناصر الشعبية المتوفرة في القصيدة الشعر به الشعبية"[3]

أما مصطلح "الشعبي" فغير دقيق أيضا ولا يستجيب لركائز هذا الشعر والاختلاف حوله يمكن إرجاعه إلى عدم تحديد مفهوم الشعبية في الأدب .

ورغم هذه الاختلافات يرجح أكثر الباحثين مصطلح الشعبي علـــى بقيـــة المصـــطلحات فـــ"الثقافة الجماهيرية بسفح الهرم ، وعند القمة يوجد الأدب الشعبي فهو ذلـــك الـــذي يستطيع أن يتخلص من القمة هابطا ليملأ السفح كله ، أو ذلك الذي يستطيع أن يرتقي من القاعدة صاعدا ومنشرا على السفح بأكمله "[4]

أما أولئك الذين أطلقوا مصطلح "الزجل" على القصيدة الشعبية فكانت حجتهم توحيـــد المصطلح بين الدول العربية ، إلا أن هذه الدعوة لم تلق صدى كون الدراسات الشـــعبية حديثة ، وكون المصطلحات تختلف داخل الأقاليم الواحد فما بالك بكل الدول العربيـــة

---

1) التلي بن الشيخ ،منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، ص 42

2) المرجع نفسه ، ص 42 .

3) محمود ذهني ، الأدب الشعبي العربي مفهومه ومضمونه دار الأدب العربي للطباعة ، مصر ط1972 ، ص 49

4) ينظر : عباس بن عبد الله الحراري ، الزجل في المغرب ، القصيدة ، مطبعةالامنية الرباط ، المملكة المغربية ، دون تاريخ ص47 ، 48 .

التي نجد أن هذه التسمية "تختلف في القطر الواحد بين جهة وأخرى في بعض الحالات"[1] ولهذه الأسباب كانت صعوبة الاتفاق حول المصطلح موضوعية.

و لم يتوقف هذا الاختلاف عند الدارسين بل وجدنا أن الشعراء أنفسهم قد اختلفوا في تسمية أشعارهم ، ففي الجزائر استعمل الشعراء تسمية "الميزان" و "اللغا" و"الكلام" و"القول" و"الشعر" و"القصيدة"[2]

أما المغاربة فأطلقوا بدورهم تسميات على أشعارهم ومنها"الزجل" و"الملحون" و"الموهوب" و"التسبيحة" و"الكلام" و"النظم" و"الشعر" و"القريض" و"الأوزان" و"اللغا" و"العلم" و"الكريحة "[3]

ولا شك أن بلاد المشرق العربي بدورها تختلف تسميات هذا النوع من الشعر.

نشأة الشعر الشعبي و ظهوره في الجزائر:

مثلما اختلف الدارسون حول تحديد مفهوم جامع مانع للشعر الشعبي ، اختلفوا حول نشأته وظهوره في بلاد المغرب العربي عامة وفي الجزائر خاصة وانقسموا في آرائهم إلى ثلاثة فرق: [4]

يرى الفريق الأول أن أصول القصيدة الشعبية في الجزائر تعود إلى الشعر الأوروبي وقبل الهلاليين ، أما الرأي الثاني فيقول أن الشعر الشعبي في الجزائر ظهر مع الفتح الإسلامي، أما الرأي الثالث فيقول أن هذه القصيدة ظهرت مع الزحفة الهلالية.

ولعل أبرز الآراء القائلة برأي الفريق الأول هو رأي "ديسبارمية" الذي قال :"إن الشعر المغربي بصفة عامة والشعر الجزائري على وجه الخصوص إنما يستمد أصوله البعيدة من أشعار بربرية وقبل احتلال الرومان الجزائر "[5]لكن ديسبارميه لم يقدم الدليل القوي الذي يثبت هذا الرأي ،لأنه يكتفي بما هو موجود،والموجود لا يمكنه أن يكون بعيدا عن مختلف الثقافات التي عرفتها المنطقة وعلى رأسها الثقافة العربية الإسلامية التي تركت بصماتها قوية، فكل "الذين حاولوا المحاولة نفسها ، واثبتوا نصوصا في مجال دفاعهم عن البربرية لم

---

[1]) العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى ص27

[2]) ينظر:عبد الله ركيبي،الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر،ط1981 ،ص535

[3]) عباس الجراري ، الزجل في المغرب ، ص47

[4]) العربي دحو ، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس ، ص32.

[5]) المرجع السابق ، ص32 /33 .

يخالفهم الحظ ، لأنهم أعطونا نصوصا بلهجة بربرية فعلا ، ولكن مضمون هذه النصوص إسلامي "[1] .

وفي نفس الاتجاه يذهب الصادق المرزوقي مدعما أصحاب الرأي الأول حين بين أن ميل الإنسان هذه الأشعار طبيعية بشرية ، وأن الغناء و الموسيقي فطرة في الإنسان ،خاصة أن هذه الفطرة المتمثلة في الميل إلى الشعر الشعبي أكدتها الدراسات العلمية ، يقول المرزوقي:"على أن العلم أيد أن ميل الإفريقيين للهو والسرور هو غريزي في أنفسهم ، واستعدادهم للموسيقى والأغاني فطري ، لذلك كان هذا الفن مطمح أنظارهم ومحط رحالهم، فما انفكوا مقبلين عليه ، متابعين لا طواره التي تطور فيها ، سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده"[2].

وإذا قارنا بين الرأيين وحدنا أن صاحب الرأي الأول ينفي تفاعل أصول الشعر الشعبي الجزائري البربرية مع الحضارات التي تعاقبت على بلاد المغرب العربي وما حملته من تنوع ثقافي وعلى رأس هذه الثقافات ،الثقافة العربية الإسلامية ، التي أكدها المرزوقي حين أشار إلى التكامل الحاصل بينها من خلال الأطوار التي مر بها.

إن الرأي الأول الذي تبناه "ديسبرميه" لم يصدر عن بينة علمية أو حجة منطقية إنما صدر عن نظرة استعمارية متعالية لا تريد أن تقر بوجود ثقافة عربية إسلامية في الجزائر خاصة ، أما المرزوقي فنظر إلى التطور الحاصل في القصيدة الشعبية على أنه امتزاج ثقافات وأن الثقافة الإسلامية كان لها أثرها في مسيرة هذه القصيدة .

وأما الفريق الثاني القائل بظهور القصيدة الشعبية مع الفتح الإسلامي فنجد له ما يسنده من رأي فيما ذهب إليه عبد الله ركيبي حين يقول :"وبالنسبة للجزائر ، يمكن القول بأن الشعر غير المعرب جاء مع الفتح الإسلامي ، ثم انتشر بصور قوية واضحة بعد مجيء الهلاليين إلى الجزائر حاملين معهم لهجاتهم المتعددة ، حيث تغلغلوا في الأوساط الشعبية وساهموا في تعريب الجزائر بصورة جليه اعترف بها كثير من الدارسين بحيث أصبح الأدب الشعبي منذ ذلك الوقت ثمرة من ثمار الثقافة العربية"[3]

---

[1]) محمد دبوز ، تاريخ أدب المغرب الكبير ، مطبعة عيسى البابلي وشركاؤه ، تونس ، 1964 ، ص49.
[2]) المرجع نفسه ، ص49.
[3]) عبد الله ركيبي ، الشعر الدشعبي الجزائري الحديث ، ص368 .

لقد اقر عبد الله ركيبي بما لا يدع مجالا للشك أن الثقافة العربية جلية في الشعر الشـــعبي الجزائري ، وأن الفاتحين المساهمين في تعريب الجزائر كان لهم الفضل في انتشاره ولكنه لم ينف وجود شعر قبل هذه الفترة ، لان حديثه كان في صميم الشعر الديني .

وغير بعيد عن هذه الرأي يذهب التلي بن الشيخ دون أن يستبعد وجود الشعر قبل الفتح الإسلامي إلى مجموعة من الاحتمالات ضمنتها رأي الفريق الثالث القاتل أن الشعر الشعبي في الجزائر مرتبط بالزحفة الهلالية .

وتجاوزا لهذا الخلاف الذي خاض فيه الباحثون ، سأساير الرأي المـــذكور و الـــذي يسمى هذا الشعر "الشعر الشعبي".

وهكذا غابت المعالم الأولى للشعر الشعبي في المغرب العربي عامة و الجزائـــر خاصـــة لأسباب تاريخية وموضوعية، لأنه لا يعقل أن يكون للسكان الأصليين في هذه البلاد شعر قبل اعتناقهم الإسلام ، وقبل الهجرة الهلالية على الخصوص ،خاصة و أن ما وصلنا مـــن شعر شعبي يرتبط بقوة بالثقافة العربية الإسلامية في موضوعاته و في محتواه، و لا يمكن أن نميز بين ما هو إسلامي ، وبين ما كان متداولا قبل الإسلام و تأثر بالفكر الإسلامي .

هذا ما أورده الباحثون في تبريرهم لعدم قدرتهم على تحديد البدايات الأولى لظهور الشعر الشعبي في الجزائر، إلا أن بعض الدارسين يربطون ظهوره بالقرن الخـــامس الهجـــري أي بالهجرة الهلالية سنة 433 للهجرة و يرجع التلي ابن الشيخ عدم وجود نصوص شـــعرية شعبية سابقة لهجرة القبائل الهلالية إلى مجموعة من الاحتمالات : [1]

الاحتمال الأول :

يعتقد التلي بن الشيخ أن انقراض الشعر الشعبي الذي كان موجودا قبل القرن الخامس الهجري سببه أن الشعر تعبير ذاتي يرتبط بالنفس و القبيلة ، وهذه الأغراض حاربها الإسلام ، لما فيها من رياء و مجون حين يتعلق الأمر بالمرأة مثلا.

---

[1]) المرجع السابق ص 24

الاحتمال الثاني

أن الشاعر الشعبي كان أميا ، لم يدون أشعاره ،و المتلقي كان أميا أيضا و بـــدخول الإسلام وانشغالهم به وهجرهم للشعر، انقرض وانتهى و هكذا نلـــتمس أن النصـــوص الشعرية المتواجدة تعود إلى القرن الخامس للهجرة و ، وان الأشعار التي ســـبقت الفتـــرة مجهولة .

و عن عوامل ظهور الشعر الشعبي في الجزائر يرجع الدارسون ذلك إلى عاملين اثنين الهجرة الهلالية والهجرة الأندلسية

الهجرة الهلالية :

" معلوم أن قبائل بني هلال كانوا خليطا من القبائل العربية ذات اللهجات المختلفة وهو ما ساعد سكان إفريقيا على تقليد هذه اللهجات و إتقانها باعتبارها لهجـــات لا تتطلـــب معرفة الكتابة مثل اللغة العربية، يضاف إلى هذا أن الهلالين كانوا ينظمون الشـــعر بهـــذه اللهجات"[1]، و هكذا تأثر سكان المغرب العربي خاصة أهل الجنوب بهـــذه اللـــهجات و هذه الأشعار و نظموا على منوالها، ولا شك أن عامل الإعجاب و عامل انخفاض وتـــيرة الحماس الديني كان سببين في ذلك .

الهجرة الأندلسية :

لقد ابتكر الأندلسيون فن الزجل ، و الزجل هو شكل من الأشكال الشعرية التي تعتمـــد على اللهجة العامية ، و لا يخضع لقواعد اللغة ،وحين خروج هؤلاء من الأندلس ، عادوا إلى بلاد المغرب العربي وتعايشوا مع سكانه بأمن و سلام ، فهم إخوة من قبل ومن بعـــد ،وهكذا تأثر سكان الجزائر بالزجل ، وأعطوه مكانة في حياتهم ، وقلده الشعراء الشعبيون و " و لا يزال تأثير فن الزجل الأندلسي واضحا حتى اليوم " [2].

---

[1]) المرجع السابق، ص 25
[2]) المرجع نفسه ، ص 26

بدايات الاهتمام بالشعر الشعبي في الجزائر :

نال الشعر الشعبي في الجزائر مرتبة عالية من اهتمام الدارسين مقارنة ببقية الأشكال الأدبية الأخرى لما له من أهمية تاريخية واجتماعية ، ولما له من انتشار في الأوساط الشعبية وكـــذا للجانب الجمالي المعبر عن مشاعر الناس و المستجيب لأذواقهم.

وقد كانت بدايات الاهتمام مع الحملة الفرنسة على الجزائر منتصف القرن التاسع عشر ، إذ عكف المستشرقون الفرنسيون "لأغراض سياسية"[1] على جمعـــه وتدوينـــه وترجمتـــه "باعتباره مصدرا اجتماعيا ولغويا وإثنيا"[2]، و لم يستثنوا في مسعاهم هذا منطقة أو لهجـــة فاهتم المستشرق "جولي بالشعر الشعبي في الجنوب، مناطق الحضنة والأغـــواط وتيـــارت وبسكرة وعين الصفراء"[3] ، وكان بعض هؤلاء المستشرقين يستعينون ببعض الجزائريين في جمع الأشعار وشرحها ، "فاهتم لوسياني بالشعر البربري... وكذلك استعان في ترجمتـــه لنماذج الشعر الزواوي بالشيخ محمد بن السعيد بن زكري"[4]

أما منطقة الشمال فاهتم بشعرها الشعبي المستشرق ديبارمي الـــذي"تخصـــص في الأدب الشعبي عموما ومنه الشعر في منطقة متيجة ، بما في ذلك البليدة والمدية و أوطان الحجوط والخشنة و القليعة وبودواو ويسر"[5]

إن هذه الجهود التي بذلها المستشرقون تمخضت عن "حركة تدوين نماذج من الشعر الشعبي الجزائري ونشره موثقا والتعليق عليه وتقديم انطباعات حول طبيعته"[6]. وكانـــت هـــذه الحركة تنتقي أشعارها انتقاء ، فلا تعتني إلا بما يؤرخ للجزائريين ويؤرخ للصـــراع بـــين الشعب الجزائري والاحتلال الفرنسي مركزة "على الأشعار ذات الطبيعة الوثائقية، والـــتي قيلت حول أهم الوقائع التاريخية"[7] ، وحرص هؤلاء المستشرقون على نشر النصوص التي جمعوها سواء كانت باللهجات العربية أو البربرية بحروف عربية ثم ترجمتها إلى الفرنسية ، وكانت "المجلة الإفريقيـــة revue africaine والجريـــدة الأســـيوية Journal asiatique

---

[1]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج8، ص26

[2]) المرجع نفسه ، ص 26

[3]) نفسه ، ص 26

[4]) نفسه ، ص 26

[5]) نفسه ، ص 26

[6]) عبد الحميد بورايو ، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر، ص280

[7]) المرجع نفسه ، ص 280

والنشرة الجغرافية Bulletin géographique"[1] هي المستقطبة للمستشرقين على صفحاتها خوطب المعمرون وجيش الاحتلال وكذا الفرنسيون من خلال أشعار الجزائريين الشعبية.

ولما أطل القرن العشرين "ظهر أول مطبوع للشاعر الشعبي الذائع الصيت في الجزائر والمغرب الأقصى (أبو عثمان بن سعيد بن عبد الله المنداسي) [2] يتضمن قصيدته المطولة المسماة "العقيقة" وقام بترجمتها والتعليق عليها "فور بيقي Faure Biganet" سنة 1901"[3]

وتواصلت الأعمال في هذا المجال "وكانت سنة 1904 سنة الشعر الشعبي الجزائري"[4] .

في هذه السنة ظهرت كثير من المؤلفات منها: [5]

1- الديوان المغرب في أقوال عرب افريقية والمغرب لصونيك Sonneck

2- كتاب كشف القناع عن آلات السماع لأبي علي الغوثي بن محمد

3- مجموع الأغاني والألحان من كلام الأندلس لـ(يافال ناثان ادموند Yfil Nathan E وصورو Seior)

4- مجموعة أشعار قبائلية لسعيد بوليفة

وعلى أساس ما تقدم نلمس أن المستشرقين الفرنسيين أولوا أهمية كبرى للشعر الشعبي لما فيه من دلالات ورموز ، ولأنه خير معين على فهم نفسية الشعب الجزائري ، كما نلتمس أن أهداف المستشرقين الفرنسيين لم تكن بريئة ، و لم يكن جهدهم إلا خدمة للاحتلال.

---

[1]) نفسه ، ص 26

[2]) هو أبو عثمان بن سعيد بن عبد الله المنداسي ،عاش مابين 1583 م و1677م أقام في بداية حياته بمدينة تلمسان، ثم إلتحق بحاشية سلطان فاس، له اشعار فصيحة و شعبية

[3]) المرجع السابق ، ص 280

[4]) المرجع السابق ، ص 281

[5]) ينظر المرجع نفسه ، ص 281

أغراض الشعر الشعبي في الجزائر:

تعددت أغراض الشعر الشعبي في الجزائر وتنوعت موضوعاته تلبية لحاجة الإنسان الجزائري النفسية و الاجتماعية وتماشيا مع ذوقه ورغباته ، واستجابة لبيئته وظروفه التي جعلت يزدهر على حساب الشعر الفصيح ،فـ:" كثرة أولائك الأعراب وتغلبهم على افريقية وانتشارهم في مناكبها، عرب البلاد وكاد يذيب العنصر البربري الأصل في العنصر العربي الغالب ،فسادت لغتهم ، وانتشر شعرهم ، و لم يبق بعد قرن من استقرارهم بالبلاد مكان للشعر الفصيح إلا في الحواضر حيث تواجد الثقافة و دواليب الحكم"[1]

في هذا الوضع الذي كاد يخلو من الشعر الفصيح ، شاع الشعر الشعبي متفاعلا مع المناخ الجديد المساعد على التعبير عن عواطف العامة ، بلغة سهلة و أسلوب لا يحتاج فيه صاحبه إلى معرفة الكتابة و قواعد اللغة و علم العروض ، وفنون البلاغة، إذ تكفي السليقة والأذن الموسيقية و الإحساس الرهيف.

ودون تكلف خاض الشاعر الشعبي في كل الأغراض خاصة تلك المرتبطة بذات الشاعر وتجاربه كالغزل ، و الفخر ،و الهجاء، و هي أغراض أجاد فيها وتفوق ، لأنها لا تحتاج إلى معرفة دقيقة بصيرة بالأحوال،مطلعة على الأحداث الكبرى، متفتحة على العالم، و لا تحتاج إلى ثقافة واسعة وفهم عميق للحياة ، بينما لم يستطع الخوض في أغراض أخرى بنفس الإلحاح،إذ تضعف نظرته ويقل عطاؤه حينما يتعلق الأمر بالقضايا السياسية والاجتماعية ، التي تحتاج إلى إدراك لكل العوالم المحيطة به " و الملاحظ أن الشاعر تحكم في رؤيته موضوعات الشعر نفسه ، و بمعنى أوضح فان تصويره للقضايا خاضع للتجربة ، فقد يجد في موضوعات الغزل ، و الهجاء ، لكنه يضعف في موضوعات أخرى ،تبعا لإدراكه الجيد في موضوعات الغزل و عدم قدرته على إدراك الموضوعات السياسية والاجتماعية بنفس الدرجة " [2] .

و ما يهمنا من هذه الأغراض ، شعر المقامة و الجهاد و هذا لأسباب موضوعية أهمها :

1- أن المستشرقين الفرنسيين أولو اهتماماتهم و عنايتهم لهذا النوع من الشعر الشعبي.

2-أن شعر المقاومة يمثل الوجه الأخر لتاريخ الشعب الجزائري أثناء فترة الاحتلال.

---

[1]) محمد المرزوقي الشعر الشعبي ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1967 ص 57

2_ لتلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي في الجزائر ص 30

3- أن الموضوع محصور في الشعر الشعبي بعد الاحتلال، ودوره في المحافظة على الشخصية الوطنية ومقاومة المحتل.

شعر المقاومة و الجهاد و عوامل ازدهاره بعد احتلال الجزائر :

مثلما سجل الشاعر الشعبي في الجزائر ، ما يثلج الصدور و يدخل إلى النفوس البشرى والحبور،سجل ما يدمي الفؤاد ، من مآسي شهدها البلاد و العباد ، بعد افتقاد الحرية،ومحاولة طمس الهوية ، من طرف استعمار حاقد ، بغيض و جاحد ، لا يرعى للإنسان حرمة ، و لا يحفظ عهدا و لا ذمة ، أمام هذا الوضع " لم يجد الشعب متنفسا لمكنوناته إلا في القصيدة الشعبية ، تسير بها الركبان و تتجمع حول رواتها الحلقات، يتغنى بها المداح في كل شعب من شعاب الأرض الجريحة ليضعها ضمادا على شفاف كل قلب مكلوم " [1]

و شعر المقامة و الجهاد لم يكن مبتدعا جديدا في الشعر العربي الفصيح منه والشعبي، بل تعود جذوره إلى فجر الإسلام ، إلا أن الدارسين اختلفوا حول المصطلح و نوعه فمنهم من أطلق عليه شعر الحرب ، ومنه من سماه شعر الثورة و منهم من وصفه بشعر الجهاد ومنهم من قال شعر المقامة .

أما مصطلح الحرب فمردود عليه ، لأنه بعد الجاهلية انتهى أمر الحروب ، وحل محله الجهاد في سبيل الله ، فالحرب يخوضها الظالم و المظلوم بلا عقيدة معلنة و ركائزها ثلاثة هي الإنسان و السلاح والقتال كما اتفق الباحثون " لقد اتفق الباحثون في الحروب من الناحيتين الاجتماعية و النفسية على أن الحرب عمل اجتماعي و نشاط ذهني ، وأنها ذات مرتكزات ثلاث هي ، العنصر البشري،والسلاح ، والقتال ، وان هذه المرتكزات في أي وجه منها ، تعتمد على وجدان المقاتل سواء في فعاليته القتالية الجسدية أو في استخدامه للسلاح و إجادته للقتال و أن تربية هذه الوجدان وتشكيله على الصورة المطلوبة يحتاجان إلى وقت قبل المعارك ، والى وقت خلالها و إلى وسائل لهذه التربية والتشكيل أهمها الكلمة في كل مجالاتها و النظرية الفكرية و الفنية "[2].و هكذا يسقط مصطلح الحرب ، إذ الحرب

---

1) صالح خرفي ، شعر المقاومة الجزائرية ، من و ن ت الجزائر دون تاريخ ص 26

2) حنا مينه و نجاح العطار ، أدب الحرب ، منشورات وزارة الثقافية ، دمشق ، سوريا ،1997 ، ص132

تتطلب استعدادا للقتال ، بينما الجهاد لا يشترط فيها الاستعداد المسبق ، إذ المسلمون كلهم معنيون ، رجالهم و نساؤهم حين يعتدي عليهم .

و الشعر الشعبي الجزائري يستمد مقومات و جوده من الإسلام ، كما استمد أفكاره من تراث المسلمين ، مثلما يستمد المجاهدون الجزائريون رفضهم الاحتلال من عقيدتهم الإسلامية، و عليه ارتأيت تسمية هذا الشعر شعر المقاومة و الجهاد.

و قبل الخوض في الموضوع لابد من الوقوف على أسباب ازدهاره بعد الاحتلال .

عوامل ظهور شعر المقاومة و الجهاد في الشعر الشعبي و ازدهاره :

1-الاحتلال الفرنسي :

مع احتلال الفرنسيين للجزائر ساءت الأوضاع و تفكك المجتمع بعد زوال مؤسساته،وانحلال الدولة و الجيش ، و أصبح الجزائريون في أرضهم يعيشون على هامش المدنية مقارنة مع المعمرين الذين أصبحوا بمؤسساتهم و كأنهم أصحاب الأرض والجزائريون دخلاء غرباء .

و سعى المحتلون من خلال قوانينهم إلى القضاء على كل مقومات الشعب المضطهد في أرضه ،فأغلقوا المدارس و استولوا على المساجد و الزوايا و مؤسسات الأوقاف ، وهكذا استطاعت ثقافة الاستعمار أن تغزو مراكز الثقافة القومية و أن تقصيها من المدارس والجامعات ثم بدأت تشوهها في عقول المواطنين و أذواقهم " [1] و هم بذالك يريدون إحلال ثقافة المحتل محل ثقافة الجزائريين ونظمهم،واجتهد لتحقيق هذا باحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية .

لقد فتح الفرنسيون مدارس للغة الفرنسية و دعوا الجزائريين إليها ، في محاولة لدمجهم بالمجتمع الفرنسي و القضاء على مقدساتهم ، إلا أن المدارس لم يدخلها إلا القليل القليل من أبناء المقربين من إدارة المحتل. .

و برفض الجزائريين الانتساب لهذه المدارس، يكونون قد علموا خطرها و قاوموا بطريقتهم الامتزاج بالفرنسيين و الانتساب لثقافة تمسخ شخصيتهم ، محتملين نتائج هذا

---

[1]) ابو القاسم سعد الله ، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 ص 78

العزوف و عواقبه من تشريد وتهجير و طرد ، لأنهم أدركوا " أن الهيمنة الثقافية و هي اشد ما تكون مكرا أو خداعا ، و لا يمكن إلا أن تكون اشد ضررا و أكثر فسادا و أعمق أثرا من السيطرة السياسية و العسكرية "[1]

و هكذا رغم ما لحق الثقافة الجزائرية من أضرار – فوتوا على الاحتلال بعض أحلامه التي عبر عنها أحد ضباطهم "روفيغو " في رسالة له نشرها " فيرو " في كتابه " المترجمون في الجيش الإفريقي" إذ يقول " إن ايالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها، و حتى تتأقلم فيها الفنون و العلوم التي يقوم عليها مجد بلادنا ... والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية تدريجيا، و متى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة فإنها سوف لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي ، و لا سيما إذا وجدت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد " [2]

إن هذا العدوان على ثقافة الجزائريين فسح المجال أمام الشعب ليجد أشكالا أخرى من التعبير ، وعلى رأسها الأدب الشعبي عامة ، و الشعر الشعبي خاصة .

و في ظل تقهقر الأدب الرسمي ، التفت الجماهير حول هؤلاء الشعراء الذين لم يكونوا إلا استمرارا للثقافة العربية الإسلامية ، و خاصة أن المقاومة تبنتها المساجد والمدارس و الزوايا حفاظا على الهوية.

2- المدارس و الزوايا :

الشعراء الشعبيون لم يكونوا مجرد نكرات في أوساط الأمة ، بل كانت لهم مكانتهم الاجتماعية بين أقوامهم ، كما كانت لأقوامهم مكانة عالية بين أوساط المجتمع أو الجهة على الأقل التي إليها ينتسبون، فهم عادة خريجو مدارس قرآنية و زوايا لها شهرة وصيت .

و لهذه المدارس و الزوايا يعود الفضل في استمرار المقاومة و الجهاد ، و الحفاظ على هوية الشعب الجزائري .

و الحقيقة التي لا ينكرها أحد ، أن جهاد الشعب الجزائري و مقاومته للاحتلال اتخذت أشكالا منذ أن وطئت أقدام عساكر المحتلين ارض الجزائر فصوت البارود و الحديد لم

---

1) بوعلام بسايح الثقافة الإفريقية ، طموحات و متطلبات ، مجلة الثقافة ، العدد 96 نوفمبر ، ديسمبر 1986

2)إسماعيل العربي ، الدراسات العربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ص 10 -11

يسكت يوما ، وأصوات القراء المرتلين للذكر الحكيم لم تختف من كل ربوع الجزائر، والشعراء الشعبيون بطريقتهم يجوبون المدن و المداشر و يعلنون رفضهم لثقافة العدو ويدعون إلى الجهاد .

و ما ساعد على استمرار هذا الجهاد و تواصل حلقاته حتى الاستقلال، هو أن الدين الإسلامي و الثقافة العربية الإسلامية تحمل في ثناياها أسباب البقاء كما تحمل من أسباب الحياة ، و هذا الدين وهذه الثقافة حافظت عليها المدارس الشعبية و الزوايا.

لقد أعلن الجزائريون المخلصون الأوفياء النفير، وأسسوا المساجد و المدارس "كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير و التمسيح و الفرنسة و حماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر و لمقاومة سياسة التجهيل التي كانت تتبعها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في البلاد"[1] .

و رغم الصعاب و محدودية الإمكانات ، ساهم الجزائريون في تعزيز المدارس والزوايا ، والالتفاف حولها و رفضوا بدائل الاحتلال ، رغم ضعف اللغة و محدودية العلوم ، لقد "عاد الجزائريون إلى وسائلهم القديمة في التعليم باللجوء إلى الكتاتيب والزوايا التي و إن لم تعطهم علما نافعا في الدنيا فإنها أشبعت نهمهم الروحي و ظلت تربطهم بماضيهم ، كما أعطتهم سلاحا قويا في استمرار المقاومة و الوقوف ضد ذوبان الشخصية الوطنية في شخصية المستعمر " [2].

و يكفي هذه المدارس ويكفي رجالها فخرا أنهم ابقوا شعلة الجهاد حية في النفوس ، وحافظوا على الشخصية الوطنية من الذوبان في شخصية المستعمر .

3-العودة إلى الأدب الشعبي :

أعلن الاحتلال الفرنسي عداءه للشعب الجزائري و لمقومات وجوده من دين ولغة، وحورب المثقفون المخلصون و عجزت العقول و اضطربت النفوس و ساد الضعف وعم، و لم يعد للأدب الفصيح تلك المكانة التي كان عليها قبل الاحتلال ، بل أن بعض ضعاف النفوس مدحوا المحتل وأعلوا مترلته .

---

1) يحي بوعزيز ، اوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين 19 و 20 ، مجلة الثقافة العدد 63 ماي ، جوان 1981 ص 14 و 13

2) أبو القاسم سعد الله ، أفكار جامحة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ص 27

وأمام هذه المأساة عاد الشعب الجزائري ليحيي وسائله التقليدية البسيطة المعتمدة على للتعبير الشفهي " و قد ناضلت النخبة التقليدية الجزائرية بواسطة الأدب الشعبي والقصص الوطني و التعلق الغامض بالماضي ، ولكن قبل كل شيء بواسطة تحميس الفخر الوطني"[1] و التعبير الشفهي في الأدب الشعبي يمثله فنان رئيسيان القصة بكل أشكالها و الشعر الشعبي، وهكذا شد الشعراء على ساعد الجد و راحوا يتجولون في أسواق الجزائر ، في مدنها ومداشرها وقراها،وينسجون على كل حادثة و ثورة قصة أو قصيدة ، يروونها في حماسة للناس ، و الناس يتناقلونها و تتخذونها سببا للاستعانة على تجاوز المرحلة التعيسة أملا في غد أفضل .

و وجد القاص الشعبي في هذه المعاني معينا لا ينضب و زادا راسخا بقوة في وجدان الناس، حين عاد إلى الغزوات الإسلامية يحييها ليؤكد أن الله سيمن على الجزائر برجال أشبه بأبطال المغازي يخلصون الشعب من استبداد الكافر ، وهكذا ازداد الجماهير فرحا بإخبار انتصارات رجال المقاومة ، و تتأسى عن أخبار الهزائم ، وهم بهذا الصنيع إنما يلجؤون للنموذج الأمثل ،و" النموذج الأمثل هو عصر النبوة و عصر الخلفاء الراشدين وسيبقى هذا النموذج أمثل في مخيالنا و في أحلامنا و تطلعاتنا .هذا لا شك فيه " [2].

و لم يقتصر الأمر على القصة الشعبية بل شارك هؤلاء الشعراء بتسجيلهم لأحداث المقاومة والثورات.

---

[1]) أبو القاسم سعد الله ، أفكار جامحة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983 ص 69

[2]) محمد عابد الجابري ، إشكالية الفكر العربي المعاصر ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، ط 2 بيروت 1990 ص 187

شعر الحماسة في الجهاد والمقاومة الشعبية:

الشعر الشعبي و تاريخ الجزائر:

يعتبر الشاعر الشعبي مؤرخا للأحداث الثورات التي خاضها المجاهدون دفاعا عن وطنهم الجزائر، فبطريقته الخاصة سجل الانتصارات و الهزائم، وكان شاهدا على جرائم الاستعمار بعفوية و بساطة أيضا.

كان شاهدا على ما تعرضت له الجزائر و شعبها من ظلم و تغيير للحال من الطمأنينة والسكينة إلى التعاسة و الشقاء ، و هذا هو ذا الشاعر عبد القادر الوهراني يروي بداية القصة في مرثية طويلة:[1]

الأيام يا إخواني تبدل ساعتها و الدهر ينقلب و يولي في الحين
بعد إن كان سنجاق البهجة و أوجهاقها الأجناس تخافها في البر و بحرين
منين راد ربي و أوفى ميجالها واعطاوها أهل الله الصالحين
الفرانسيس حرك لها و خذاها لا هي ميات مركب لاهي ميتين
بسفاينه يفرض البحر قبالها كي جا من البحر بجنود قويين
غاب الحساب و درك وتلف حسابها الروم جاو للبهجة مشتدين
راني على الجزائر يا ناس حزين

وعلى الرغم من طابع المحلية أو الإقليمية التي طبعت الشعر الشعبي في الجزائر إلا انه ظل يدعو إلى التغيير ، رافضا حياة الذل و الهوان يسجل بصدق و إخلاص أهم المحطات المتميزة لتاريخ الشعب الجزائري و عليه" ما كان أدب العرب و لا شعرهم من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم ، إن كل قصيدة من قصائدهم مربوطة بحادث يمت التاريخ ويمسه من قريب أو من بعيد"[2].

الإقليمية في الشعر الشعبي الجزائري :

بحكم ظروف الشعب الجزائري التاريخية ، وبحكم ثقافة الشاعر الشعبي ومحدودية نظرته ورؤاه لم يستطع أن يتجاوز بيئته الضيقة حيث "تؤكد نصوص الشعر الشعبي الجزائري قبل

1) جلول يلس والحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعرالملحون ، ش. و. ن.ت الجزائر 1975،ص36
2) زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، دار المعارف ، مصر 1961 ص 05

ثورة 1954م أن الشعر الشعبي يغلب عليه طابع الروح الإقليمية ، حيث لا نكاد نعثر على نصوص تطرح قضايا قومية أو عالمية"[1].

الإقليمية، الجهوية ، العشائرية ، كلها من سمات الشعر الشعبي الجزائري، وذلك أن الشاعر الشعبي كان محدود الرؤية ، غير مدرك لحقيقة الأحداث في بعدها الواسع، كل ما في الأمر عنده أن الكفار احتلوا أرض المسلمين الجزائريين ، و أن رجالا شرفاء في هـــذه الجزائـــر قاموا بمجاهدتهم و قتالهم ، والعالم عند هؤلاء يحكم ثقافتهم لا يتعدى العشيرة أوالجهـــة أوالوطن في أحسن الأحوال ،ثم إن الاحتلال الفرنسي مزق الأمة إلى قبائـــل وعشـــائر، والجميل في هذا أن الشاعر حين يفاخر بنفسه وهكذا وردت أشعار الجزائريين الشـــعبية ناطقة باسم الجهة وباسم المقاومة و رجالها.

الثورات الشعبية في الشعر الشعبي الجزائري :

لم يستطع النظام القائم في الجزائر سنة 1830 لهشاشته و ضعفه و ابتعاده عـــن الشـــعب والصمود في وجه الغزاة الفرنسيين، و تخلى هؤلاء عن مسؤوليتهم مستسلمين، فانتشرت الفوضى و اضطربت الأوضاع و عم الفساد ،و في هذه الأثناء كان الاحتلال يتوسع شرقا و غربا و جنوبا ، وكان المخلصون لهذا الوطن يراقبون الوضع عن كثـــب و يترقبـــون، ويتابعون الأخبار المتواترة عن جرائم الاحتلال من قتل و سلب و نهب و اختراق للاتفاق الموقع بينه و بين الداي حسين .

كانت غيرة هؤلاء المخلصون قوية ، و إيمانهم راسخ، و حبهم للوطن متجذر في النفـــوس فراحوا يستنهضون الهمم ،و يدعون إلى الجهاد حماية للمقدسات و الـــوطن و العـــرض، وظهرت المقاومة منظمة أحيانا و شعبية محلية أحيانا، و" هكذا أصبحت القبائـــل القـــوة السياسية و أصبحت الزوايا القوة المعنوية لمواجهة الغزو الأجنبي" [2]

و أصبح الشاعر الشعبي ناطقا باسمها يتغنى بزعمائها و يشيد بانتصاراتها حاملا البشـــائر، ويحفز النفوس، و يشد على القلوب، و يؤازر متوكلا على الله أملا في النصر.

---

[1]) التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، ص 32

[2]) عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر –منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1971 ص 18

أصبحت قصائد المقاومة "تأتي على ألسنة الشعراء و المداحين من القصاص و شعراء الملحون الذين يتجمعون بمناسبة المواسم و في الأسواق و غيرها ،يثيرون عواطف الناس، فيستحثون هممهم و يثيرون فيهم الحماس ليشدوا على جهادهم ضد المستعمر الغاصب، وأن الإرادة اللاهية ستبعث فيهم ذات يوم منقذا على أية حال " [1] .

نقلت القصيدة الشعبية صدى المقاومة وجراحات الشعب فكانت أشبه ب "أم ثكلى تتوسم ملامح وحيدها في زحمة القتلى .. و ترفرف على هذه المسرحية الدامية و تطبق جناحيها لتقع على زواياها الخفية و أبعادها الغائرة لتنقل إليك الملحمة في بيئة حزينة ... وتستفز فيك العزيمة المتهالكة وذاك أقدس مضمون للمقاومة في محنة قصرت اليد فيها عن السلاح ، وتطاولت اساليب القتل الاستعماري على شعلة في الاعماق بغية اطفائها وتكديس أكوام الرماد على وجهها "[2]

وكانت القصيدة الشعبية مقاومة أوصد و صدى للمقاومة، ولاهمية الشاعر الشعبي و دوره اتخذ زعماء المقاومة شعراء لهم .

إن من ابرز زعماء المقاومة الامير عبدالقادر بن محي الدين الذي انطلق من الغرب الجزائري سنة 1832 بعد ان بايعته القبائل ليتصدى للاحتلال و كان جهاده طويلا حريرا خاض اثناءه معارك صارمة و كانت له فيها وحشيته بطولات و انتصارات عظيمة هذا الزعيم الروحي و العسكري اتخذ له شاعرا " اما الشاعر الرسمي للامير فهو طاهر بن حوا و قد كان الامير شاعرا و فارسا و كان يقدر الشعر ويعرف قيمته الدينية و الاعلامية" [3].

ومن القصائد التي مدح فيها الطاهر بن حواء[4] الامير ودعا له بالنصر على اعدائه ككل التي يقول فيها :

يا من درى شيئا من يوم سلطان مبارك

ممزوج بالمصارات و الرضى مبروكا

---

[1]) عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج 4 ص 292

[2]) صالح خرفي ،شعر المقاومة الجزائرية ، ص 22

[3]) ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 8 ، ص 315

[4]) الطاهر بن حواء: شاعر شعبي من الغرب الجزائري ، من قبيلة أولاد سيدي بن يخلف ، بناحية معسكر وهو الذي تلا صك بيعة الأمير عبد القادر في سيدي الحسين بمعسكر المعروف الآن بمسجد البيعة في 1830/11/27م

و من القصائد الشعبية التي سجلت بطولات المقاومة الجزائلرية في وجه الاحتلال ، قصيدة شاعر شعبي مجهول يمدح الزعيم بوزيان ،و يدافع عنه فيقول

هذا الرومي جا علينا يدور يرفد بوزيان

راه واعر ماهوش مهمول للخزيان

عنده سرب في شانو و اهلو كامل شجعان[1]

كما نضمن الشاعر الشعبي محمد بن عمر و من واحة اليشانة القريبة من الزعاطشة قصيدة في مدح بوزيان قبل نهاية المعركة و بعد ان انتهت و علقت القيادة الفرنسية اس بوزيان (و راس ابنه و راس الحاج موسى) على مدخل المعسكر انشد محمد بن عمر القصية في حقل قرى سنة 1851 واعتقله الفرنسيون و سجنوه بتهمة تهديد الامن العام[2]

و في سنة 1864 اندلعت ثورة اولاد سيدي الشيخ و كان لها شعرائها

و من المعارك التي خلدها الشاعر الشعبي معركة الشلالة ي هذه السنة و صاحب الشعر هو احمد بن دالة العامري " [3]

مما جاء في هذه القصيدة

يا الحاضرين عاودو الاخبار وشتاهو صار

و علاه النهار الشلالة في الزمان لمعدود

سعد النهار الشلالة خرجة المحلة

جات ثم خايلة ما بقا مجحود [4]

و عن نفس الثورة يول الشاعر الشعبي المقاوم محمد بلخير بعدم هرم الفرنسيين لقب سيد الشيخ سنة 1881 و سيد الشيخ هو جدهم

يا الفارس حشمتك عيد لخبار

واش حال القرماصي رايس القوم

يانك من ابيض فرحة و تبشار

---

[1]) جلول الحفناوي و امقران ، و المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، ش.و.و ن..ت 1975 ص 36

[2]) ابو قاسم سعد الله ، المرجع السابق ص 324

[3]) نفس المرجع ص 325

[4]) عمار يزلي، جريدة الوجه الاخر الحلقة 6 ، العدد 24 سبتمبر 1994

و الشيخ اتبنى و لا مازال مهدوم

توبة ان دارو بالقبة الكفار

غير غار النمل و لا فرق جحموم [1]

و في سنة 1871 وقعت ثورة اخرى ابتدأت في البرج ثم عمت زواوة و البابور و معظم الشرق و الوسط .

و كان من ابرز قادتها الحاج محمد المقراني و اخوه احمد ثم الشيخ محمد الحداد و ابنه عبد العزيز و قد تحالف خلالها رجال السيف و رجال الدين [2]و عن هذه الثورة يقول شاعر شعبي مجهول

قال العزيز الحداد يا لكرام الاحواد

من الظلم و الفساد شعبنا تنقذوه

فرسان عزار شداد في وجوه العناد

نحفرو له الالحاد نخليو دار بوه

المقراني بسلاح عول على الكفاح

قام ودار البراح يا اهلي موت خير[3]

بناء على هذه النماذج القليلة نتبين ان الشعر الشعبي لعب دورا بارزا وساهم بفعالية في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

1) وين راهم الابطال ، قصيدة ، نشر مصلحة الثقافة ، ولاية البيض 1988

2) ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج 7 ص 326

3) جلول يلس و الحفناوي امقران ، المرجع السابق ص 16

الاستشراق الفرنسي و الشعر الشعبي في الجزائر:

للشعر الفصيح في الجزائر –إبان فترة الاحـــتلال –رواده ، وللشـــعر الشـــعبي مريـــدوه ومبدعوه، و مثلما كان الشعر الفصيح تعبيرا عن خوالج النفس و آهاتها ، و عن تطلعـــات الأمة وانشغالاتها ، كان ميدان الشعر الشعبي فسيحا ، وكانت أغراضه متعـــددة ، فمـــن الغزل ، إلى الفخر ، إلى الشكوى ، إلى المدائح ، إلى الشعر الاجتماعي و السياســـي إلى الحماسة و المقاومة والجهاد في سبيل الله، نجد ألوانا وأشكالا ، و كان هذا النـــوع مـــن الشعر ملتقى كل فئات الشعب القارئ منهم و الأمي ، لأنه يفصح أحيانـــا و بحكمتـــه البالغة و مشاعره المتدفقة ومعانيه المتنوعة المتزاحمة، عما لا يستطيع الفصحاء الإبانة عنه .

و إذا علمنا أن الأمية في الجزائر –زمن الاحتلال –ارتفعت بشكل رهيب، علمنا اثر الشعر الشعبي في النفوس و العقول، ودوره في مجابهة المحتل، وكشف جرائمه، ورفضه الصريح و المبطن له.

ويتميز الشعر الشعبي في الجزائر بأنه شعر إقليمي لم يتعرض أصحابه إلى القضايا القومية، أو الإنسانية،ولم يتناول قضايا الجزائر ومحنة شعبها مع الاحتلال، وثورات أبنائها المتعاقبة بنظرة شاملة،بل كانت نظرته مقصورة على الجهة التي قاومت وانتصرت أو انهزمت، وكأن أمر هذه الثورات محدود لا يعني بقية الجزائريين،ورغم هذا كان مدركا "لأهداف الغزو الاستعماري البعيدة من انه غزو للإسلام"[1].

ويستمد الشعراء الشعبيون موضوعاتهم من الثقافة العربية الإسلامية،وكانت هذه الثقافة مرجعهم وملاذهم،بها يستعصمون واليها ينفرون في عسرهم ويسرهم،وهذه الروح جعلت الباحثين يرجحون ظهوره إلى الفترة التي دخل فيها الهلاليون إلى إفريقيا،يقول محمد المرزوقي:"لم يترك لنا التاريخ أي اثر لشعر منظوم باللغة الدارجة قبل منتصف القرن الخامس الهجري ،أي قبل الزحفة الهلالية سنة 443هجرية"[2].

ولان مهمة المستشرقين –غالبا– في خدمة الاحتلال، راحوا يستقرؤونه ، باحثين بين سطوره عن مواقف الجزائريين ، و عن نفسيا تهم ، و نمط تفكيرهم ، وسلوكياتهم ،

---

1 - التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، ص23

2 - محمد المرزوقي ، الشعر الشعبي ، ص67

وعقائدهم ، و تقاليدهم ، ليكتشفوا مدى قابليتهم للاحتلال ، و ليبحثوا عن السبل الكفيلة بإدامة عمره و إطالتها .

ومن الموضوعات التي استرعت المستشرقين تلك التي تناولت القضايا السياسية، و تلك التي يتغنى أصحابها بالثورة و الثوار، و مجدوا فيها بطولات الشعب الجزائري وأرخوا بطريقتهم لنضالاته و رفضه للمحتل ، وهاهو شارل فيرو يترجم قصيدة طويلة يتغنى فيها صاحبها ببطولات محمد بوخنتاش و مساعده المنصوري ، و قد قتلا في ثورة 1864 بالحضنة ، و مما جاء فيها "[1]:

ياراعي الملجوم رض امهل لي	و عودك من الابعد جاء عرقه يقطر
يعلمني ما صار في الحضنيـــة	فنماش الناصرة و اولد اعمـــــر
خبر جاني مع النجوم الحق لي	و حرقة الابطال عامت على البـــر

و بعد هذه الافتتاحية التي تسير فيها إلى تلقيه أخبارا عن اندلاع معركة حامية الوطيس في الحضنة بين الجزائريين و الفرنسيين، راح يرثي شهداء المعركة ، و يذكر بخصالهم فيقول :

ضاعوا لي سادات طلبة سنيـــــة	دربه رحاب شريف من الني الطاهـــر
هم راحوا و في فوادي حات كبة	و فرسان المحمول ستين بعد ماية قادر
باعوا الحياة من دار الدينـــــــة	قصد و للجنة للمقام الاخضـــــــر

ثم يذكر بطل الثورة و قائدها فيقول :

محمد درغام اسد البراكتية	و اللبة سوداء تصاحبه و تكركر

و لا ينسى استعدادات الجيش الفرنسي للمعركة ، إذ جمع عدده و عدته فيقول :

جاونا زوج محال من العساكرية	و قعهم الاعراش فرغت عن الاخر
فتنة خنق حمام قعدت محكيـــة	و بامعناه نهار في حر ام عمـــــــر

أما المستشرق كور فقد اهتم بشعراء الأمير عبد القادر بن محي الدين و ترجم أشعار شعرائه ، و خاصة شاعره الطاهر بن حوا ، الذي كان من رواد الشعر الشعبي و من

1 - L.Charle feraud,R.A,N° 30 , 1886 , P114-118

الفرسان المجاهدين الذين يقدرون الكلمة و يدركون أهميتها من الناحية الدينية ،/ لقد كان " ابن حوا " شاعر جهاد و أمير و فكرة"[1]

و من أشعاره في الأمير قوله : [2]

يا من درى شي من سلطاني مبارك ممزوج بالمسرات و الرضا مبـــروك

بلي نحب و الي تريد يجمع شملـــك و يديرلك مولاك في المضيق سلـــوك

تنال كل الصاعبة يقوي نصـــرك تقبض الخير و العقل مفكـــــــوك

تبلغ منازل تريدها يعظم ملكـــك بالعز و الظفر لا نجا لمن عـــــدوك

و يعم الارض قبلة جرف وابل فضلك بالفخر و الهنا و الثنا لمن يضـــروك

و بهذه الافتتاحية التي يدعو فيها الشاعر للأمير بالنصر و الفوز على الأعـــداء ، وبنـــاء الملك، و تحقيق أسمى منازل العز ، ويدعو لأنصاره بالخير ، راح الشاعر يمدح الأمير و يثني على خصاله و يشيد بمنزلته إذ يقول :

و حييت سنة الدين في الزمان الهالك نقمة لمن بغى يا عذاب من يعضوك

إلى أن يقول:

عمرت دار لشراف و العرب بانصالك عفريت صول زدمة على العدو وكدوك

و عن تحالف قولى الشر في وجه الخير و استعدادات جيوش الاحتلا لقتاله يقول :

البر و البحر كل حشدت لعفـــارك عيـــات ما تناقر و حارت الملـــــوك

و في صمود رجال الأمير و جنده و طاعتهم له يقول :

رجال واقفين العهود صدقوا ظنـــــك ما خالفوك ما فارقوك ما علوك

هانوا عمارهم في رضى النبي و رضانك الله حبهم و الرسول كي حبوك

و يدعو للأمير في خاتمة قصيدته قائلا :

ربي يباركنا يزيدلك في عمرك و اعمارنا من الموت بالفدا يفدوك .

---

1 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج 8 ص316

2 - A .Cour , la Poésie populaire politique au temps de l'émir Abdelkader ,R.A,N°59 , 1918 , P 478 - 480

و لكن ما يلاحظ هو أن المستشرق كور " A.Cour " قيل أن يترجم قصيدة سي الطاهر بن حوا رحمه الله كان تعرض الى قصيدة نسبها لقدور بن محمد البرجي المعروف بنونقاب و هي قصيدة استعطف فيها الأمير عبد القادر بعد هجائه له ، و قد نشرها تحت عنوان: [1]

من كلام ولد أمحمد النقليبي البرجي أصلا و مسكنا

و مما جاء في مطلعها :

عييت صابر و انانراعي فيك الافتصال يا قريب الضحكة و ابعيد في رضاك

ما سمعت و لاشفت القسى كقساك يظن فيك الطامع كيما بغا ينال

يحب قلبك يعفو و نخاف من جفاك

و تحت عنوان ملاحظات على القصيدة المعاصرة عند الجزائريين الرحل [2].

عكف "الاسكندر جولي Alexandre Jolly " على دراسة الأشعار الشعبية في الجنوب وعدد أنواعها و التي حسب قوله[3] :

الزعوية Zaz'ouia " "و المسماة أيضا تزعويت Tazarouite " " و النم بكسر النون le nemm "و المدح le medah " "و القول le goul " " و الهجرة le hedjera " والقطاعة " la guettaa " و الغناء le réna " " و العيدي " le à'idi " .

و ساق بعض النماذج الشعرية لسنين هذه الأنواع فاختار قصيدة من شعر " القول " لسي بن ناصر حرز الله الذي نسبت إلى الحرازلية و هي قبيلة كبيرة من الأرباع[4] و مما جاء فيها قول الشاعر"[5]:

قلبي قلبي باغي الدنيا مستعفي و عربان شاو الخريف محدودة للتقبال

أما عن " النم " و هو نوع من الرحلة كما أسلفنا فاختار نموذجا لبوزيان الذي ينتسب إلى اولاد يعقوب الزرارة القاطنين بجبل عمور و الذين ينتسبون بدورهم الى أولاد فاطمة[6] ومطلع أبياته [7]:

1- المرجع السابق ، ص 463 ، 469

2 -Alexandre Jolly , Remarques sur la poésie moderne chez les nomades Algériens R.A , n°44/1900 , P283-311

3- المرجع نفسه ، ص 384

4- نفسه ، ص 289

5- نفسه ، ص 285

6- نفسه ، ص 292

7- نفسه ، ص 291

ياربي يا اله يا عالم المقدر

سلك الواجلين في يوم الشدة

إلقى بيني و بين و لفلي مسعودة

كما أورد نموذجا عن شعر " القطاعة" لسي بوزيد بن الحاج بلاسم من قصر سيدي بوزيد بجبل عمور[1] و منه هذه الأبيات:[2]

و نطالع للجبل غير بعيني

من وحش الريم ال جات في قاسي الاوطان

بين الكيفان في القصور الغريبة .

و عمد جولي قبل سرد هذه النماذج إلى تعريف أنواع الشعر الشعبي في الجنوب الجزائري اذ يقول عنها : [3]

1-القول " le goul "هو قصيدة شعرية قصيرة تسند وفق إيقاع موحد ، و هو ليس غناء حقيقيا ، و على هذا الأساس يتميز عن بقية أنواع الشعر تتناول أي موضوع باستثناء موضوعات الهجوة " le hedjoua "[4] .

2-النم بكسر النون " Le Nemm " : هو حديث النفس او المناجاة يؤدى بصوت منخفض كشعر الحب ، و هو نوع من الزعوية أو ما يسمى الحداء أو غناء الطريق[5] .

3-القطاعة " Le Guettaa " : هو نوع من الزعوية أو الحداء أو غناء الطريق و هو شعر يرتجله الرحالة للتغلب على مشقة الطريق و طولها ، و موضوعه في أكثر الأحوال قصة عن الرحلة تعدد فيها أسماء الأماكن [6]

1- نفسه ، ص 306

2- نفسه ، ص 299 – 300

3- نفسه ، ص 284 ،290، 298

4- Le goul est un petit poème récite sue une sorte de rythme très cadence plutôt qu'un chant véritable

5- Le nemm n'est pour ainsi dire qu'une variété de la lar'ouia , que nous verrons plus lion , il ne se compte que d'un tres petit membre de vers aux Rivers ordinairement entrecroisées ou, pour mieux dire enchevêtrerais

6- Le Guettaa est la chanson de route sauvent improvisée, que les arabes aiment e réfuter en voyageant pour se distraire des longueurs en chemin , le sujet en est toujours lui un récit de voyage

كما جمع جولي مجموعة من القصائد لشعراء من الجنوب الجزائري دائما و منها قصـــيدة برواية باعفوين سليمان لشاعر مجهول و هي من نوع الغناء " Le Réna " و مطلع هـــذه القصيدة المكتونة من (14) أربعة عشر بيتا "[1]:

املاح الناس الي بي ساكنين السد الوعر

طاعنين الاوطان القبلية ناس فاطنة زهو الخاطر

نفظت دماغي الزيدية حبها على قلبي جوار

في الضمير ناره مقدية بي فاطنة طير مزعفر .

و في نفس الموضوع و تحت العنوان السالف الذكر نشر جولي قصيدة و ترجمها وأشـــار سعد الله أو القاسم إلى أن صاحبها هو دحمان معاوز الذي ينحدر من ســـتيتن جنـــوب وهران و قال بعضهم حسبه أن صاحبها هو وليد محمد مـــن معســـكر و منـــها هـــذه الأبيات"[2]:

يا مرقوم الريش اسعاني حشمتك اد عنواني

خفق بجناحين

تغدالي لسبان محاني ميشومة اليدين

الطفلة الي عشقها جني منها رحت مكين

و تحت عنوان "أغاني مدينـــة الجزائـــر و نواحيهـــا" [3]" Chansons Du Répertoires Algérois" نشر جولي سنة 1909 و ترجم مجموعة من الاغاني الجزائرية الاندلســـية والأنغام العاصمية المتداولة و قتها مثل انقلاب صيكة و مصدر مجنيـــة و بطـــيح رصـــد وانصراف حسين ودرج حسين و صياح ، و مما ذكر من المغنين اسمي عائشـــة و يامنـــة وساق أمثلة لهذه الأنغام و هذه نماذج من ذلك :

---

1 - Alexandre Jolly , Remarques sur la poésie moderne chez les nomades Algériens R.A , n°47/1903 , P171

2- المرجع نفسه ، ص 178

3 - Alexandre Jolly , Chansons du répertoires Algérois R.A , n°53/1909 , P46-66

انقلاب صيكة

ضمان على عينيك الي عاني صرفت الى ايدى العناء غيابي

و قد كنت ارجو الوصل نيل غيمة فحسبي منه اليوم نيل اماني

مصدر مجنية

بعد الديار زادني اشتياق واعيت من هذا السفر

و القلب مني في احتراق صرت ما فادي صبر

ربي قضى لي بالفراق هو يهون لي الامر

بطيح رصد

م للغمام يبكي بكا المزن نعير حزن

دمع السحاب ينهمل من افق

صب الشراب و املالنا و اسق

قول الصواب يا معشر الخلق

انصراف حسين

اسمع بلابل لفراح و ما هي تقول

ما يفنى الذهب في الراح الا اهل العقول

درج حسين

الورد يفتح في الخدود و الثغر باسم

بشراك باسعد طالسعود يا الفرح دايم

صياح

باسم الاه رب الأعلى ملك الملوك الأكبر

هو الجليل هو المولى يغني من يشا و يفقر

و جمع المترجم القضائي بقصر البخاري سيدون" M.Sidoun " مجموعة من المقاطع الشعرية نسبها إلى سي الحاج عيسى الاغواطي و ترجمها إلى الفرنسية و جعل عنوانها : أنشودة الصيد الصقر [1]

1 - M. Sidoun , Chants sur la chasse au faucon R.A , n°52/1908 , P272,294
Chants sur la chasse au faucon Attribues a sid El Hadj Aissa Cherif de Laghouat

و من هذه الأناشيد قول الحاج عيسى الاغواطي في القصيدة الأولى .

الحمد لله وحده

نحوا مهامري و تماشى عيايا و اليوم تعبة يا بو كلتوم
صبحوا مراكزي بسبوعة بنايا يتخازروا براني بصدور نجوم
ريحت يوم يومني و قلت اخانا و اعييت غير راقد راسي مذموم

و قال ايضا :

يا دوصوار هيج طيرك بالزين و اركب جواد لا زمني في السيرة
تحتي عنان من خيل اذا دنيت تلقى الدموع من عيني هدارة

و قال في قصيدة أخرى :

لي يا مالك العلا افتح لي طير من صناديد مصيل
لابس حلة مفصلة من كم تزين مخبلة ماضي يفصل
افتح لي باش لفجوح ننيه نزهى و انروح للعيال ملان
طي احمر ما يكون ليه شبيه مثله معدوم سلطاني مكان .

و من القصائد الهامة التي أولاها المستشرقون عنايتهم و اهتمامهم تلك التي دارت أبياتها حول دخول الاستعمار أرض الجزائر و احتلاله عاصمتها ، وهذه القصيدة المنسوبة للشيخ عبد القدر جديرة باهتمام كل دارس ، لأنها تعكس أحوال الشعب الجزائري بعد الاحتلال على طريقة رثاء المدن التي عرف بها الشعر الفصيح خاصة بين شعرا الأندلس حين تهاوت أركان الحضارة الإسلامية،وبين شعراء بغداد بعد سقوطها بيد أعدائها،وهي تعكس بحق جانبا مهما من تاريخ الشعب الجزائري،وهذه القصيدة نشرها ديسبارمي J.Desparmet تحت عنوان "دخول الفراتصيص للجزائر من كلام الشيخ عبد القادر رحمه الله"[1]

---

1 - J. Desparmet L'entrée des français à alter » par le Cheick Abdelkader R.A N°71/ 1930 P 225/256

L'entrée des français à alger par le Cheick Abdelkader

وتتشكل من عدد من المقطوعات الشعرية و كانت افتتاحيتها مألوفة عند الشعراء الشعبيين و تمثلت في الحمدلة و الصلاة على الرسول المصطفى صلى الله عليه و سلم :

بالحمد نبدا القصة و نعيدها استغفروا و توبوا يا مسلمين

نوصى على صلاة احمدلا ننساوها تفك من القصايص و نصب الوازنين

هو يفك من جهنم و اهواها سيد الرجال شفيع المذنبين

صلوا عليه قد الدنيا بتمامها صلوا عليع الف يا مذنبين

صلوا عليه قد الدنيا و امحاها ما دمنا نشوفوا واحنا حيين

و بعد هذه الافتتاحية المباركة الطيبة دعا الشاعر الشعب الجزائري إلى التوبة فالزمن زمن فتن و محن لم تسلم من مصائبه أي قبيلة ،و المستريح المطمئن فيه من مات ، و يواصل حول هذه المعاني ليتأسف في أسى و حسرة على ما أصاب مدينة الجزائر التي وقعت في قبضة النصارى الفرنسيين الأعداء فيقول :

توبوا استغفروا للمولا هذا اخر الزمان ادركنا

فيه المحاين و كل بلا منا لفوق ما كان اهنا

التعب لطم كل قبيلا ماحا الا زمان الفتية

من عاش حالته لا حالة و الي مات ذاك تهنا

امن داره يا فضلا حسراه و ينها مزغنا

سلطانتا مدون ولات غير في يد اععدانا

ولات للنصارى شينين الدين

و يواصل الشاعر آهاته مجريا مقارنة بين حال المدينة الجزائر و من خلالها كل المدن الجزائرية و حال الشعب الجزائري بين ماضي العز و السؤدد و حاضر مظلم ، فيسلط الضوء على تاريخ الشعب الجزائري حين كان ذا صولة يخاف سطوته الملوك و الجيوش وكيف أصبح مهانا فيقول

الايام يا اخواني تتبدل ساعاتها و الدهر ينقلب و يولي في الحين

بعد كان سنجاق البهجة ووجاقها الاجناس تخافها في البر و البحرين

منين زادني ووفى ميجالها و اعطاوها اهل الله الصالحين

ثم يواصل الشاعر راصدا عدد جيوش المحتل و عدته مؤكدا ان الفرنسيين اعدوا لهذه لمعركة عدتهم و جندوا كل ما يملكون

الفرانسيس حرك ليها و خداها لا هي مياة مركب لاهي ميتين

بسفاينة يقرنص في البحر قبالها كي جا من البحر بجنود قويين

غاب الحساب وادرق و لف حسابها الروم جا و للبهجة مشتدين

و ختم هذا المقطع بلازمة ستكرر ترجمت احزانه بمرارة

راني على الجزاير يا ناس حزين

ثم بعد ذلك وصف الشاعر عملية احتلال مدينة الجزائر ، هذه المدينة التي كانت محصنة بالمدافع و السفن ، ومستعدة للموجهة ، و لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، فالاحتلال لم يدخل المدينة من الشرق كما كان متوقعا و مخططا له ، بل دخلها من سيدي فرج .

و حدث ذلك يوم السبت و لقي مقاومة شرسة استشهد فيها كثير من المسلمين الجزائريين، واستمرت هذه المقاومة ليومي الأحد و الاثنين وسط زغاريد النسوة وتكبيرات المجاهدين ، و لكن حماس الجزائرؤيين لم يدم ،و انقلب إلى أحزان و هم ، فالفرنسيون قد نجحوا في اقتحام المدينة ، وواصلوا زحفهم نحو أحيائها :

الكلب غير رقب للمرصى شافها شاف المدافع لوجهة منصوبين

من جهة البحر قاع الناس تخافها برج الفنار منه كي مضعورين

برم سفاينة و تقدم قدامها بي سيدي فرج نزل ذا اللعين

اسواحل البحر تحكي لك غطوها الاوطان و السهل ثم شعال احزين

ثم المحال في يوم السبت و جابها و السبت ماتوا شي من المسلمين

إلى أن يقول : ضل الطراد يوم الحد و الاثنين

ثم يواصل :

ماذا ابطال ماتت و اخلات ديارها راحوا تزجوا مع حورات العين

الى ان يقول في اسى :

زل الكلام و درق عنا و افترقت الفروع وراحت

ماشي هكذا طنينا في المومنيين هذا فايت

تحسبنل على مزغنة خلقا كثر يبقى ميت

و قد فرح اليهود لسقوط مدينة الجزائر وارتفعت زغاريد نسائهن استبشارا:

حتى اليهود فرحوا الينا و نساهم الكلاب تزغرت

لقد هزم الجزائريون بعد بذل دمائهم رخيصة دفاعا عن مدينة :

حسراه على رجال البهجة اعطاو ما فيه و نغلبوا

الفرانيس ولد العلجة من كل جيه جانا يدبوا

كي البحر فايض الموجة و الواد كي ترنحي بشعابوا

لقد عاث الفرنسيون في الارض فسادا لقد استباحوا المحرمات ، ودنسوا المقدسات ، وأذلوا الأعزة و شابت الولدان :

حسراه على المفاته و على قضاها علمات البلاد مصابح اليدين

حسراه على الجوامع و على خطباها و منائر الرخام الى مرفوعين

حسراه على الصوامع و على اذاها و على ادراسها ثم الحزابين

حسراه على المساجد غلقت بيباها ضحاو اليوم يا سيدي منيين

إلى أن يقول :

سكنوا الروم فيها و تبدل حالها شهدت غير ذوك الي منجوسين

و كانت الخاتمة بالتوسل إلى الله عز و جل و التضرع له بان يرزق الجزائر سلاطين صالحين يعيدون عزها و مجدها و ينشرون العدل بين أهلها :

يا خالق العباد نتوسل يطه رب و جيب ليها سلطان حنين

و يعود في السراية هو سلطاها يحكم بالشرع و الحق المبين

إن هذه النماذج تعكس بجلاء مدى اهتمام المستشرقين الفرنسيين بالشعر الشعبي في الجزائر، هذا الشعر الذي عبر عن مواقف الجزائريين من الإحداث و تطلعاتهم ، كما عبر عن عواطفهم و هواجسهم و أفكارهم و في الأحوال مرآة تعكس مواقفهم ، و تمكن المحتل من إيجاد البدائل و الحلول التي تمكنه من أحكام قبضته على الجزائر .

لقد كانوا المستشرقين صادقين حين تعاملهم مع الشعر الشعبي الجزائـــري و رواده ، لان مصلحة فرنسا تقتضي نقل تقارير سليمة لا غش فيها و لا تزوير ، وهذا ما دفعهـــم إلى جمع هذه الأشعار دون استثناء ، تلك المعبرة عن رفض الشعب الجزائري للاحتلال وتلك الممجدة للمقاومة و رجالها .

ومن القصائد التي اهتم بها الفرنسيون، تلك التي نظمها سيدي محمد بن إسماعيل عن حرب القرم وترجمها إلى الفرنسية محمد بن أبي شنب تحت عنوان[1]:

وحرب القرم كانت قد اندلعت بين الدولة العثمانية وروسيا، ودخلتها فرنسا وانجلترا إلى جانب الدولة العثمانية، وأقحم الفرنسيون فيها الجزائريين، وأقاموا لهم الاحتفالات حـــين الذهاب وعند الإياب، وهذا خدمة للاحتلال وجعل الفرنسيون من ذلك وسيلة دعائيـــة لجلب مسلمي الجزائر إليهم لأنهم(الفرنسيين) قد نصروا خليفة الإسلام ضد روسيا[2]

ومطلع هذه القصيدة:

بسم الله نبدا الحلة للعاشقين ببشاير النصر يذهب كل غيار

صلوا على النبي محمد ضاوي الجبين وارضوا على أصحابه جملة لحرار

ثم دعا بالنصر لجيوش المسلمين فقال:

يا رافع السما بالقدرة الموفين ليك تتارع

انعم على الغزاة بنصرة الإسلام كلها تضارع

أجل على العباد الكشرة لا منع غير حضنك مانع

وعن الأخبار السيئة التي لا تسر المسلمين والتي كانت ترد عن المعركة يقول:

طابت قلوب الأعباد عيات ما تهترف

في كل يوم جداد بخبار سوء يزعف

رب سيد الأسياد فيما قضيت وألطف

رب ألطف بجال عبادك وأنت الحنين لا خبر زين يحلي به التقصار

لسفاين الفتن في حضون محضنين والغام تحت الأرض زلق للتطيار

وتندلع المعركة:

---

1 -La guerre de Crimée et les Algériens , cheikh Sidi Mohamed ben Ismail Alger نقلا عن المجلة الإفريقية

2 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8 ، 147 .

بداو كل حد يحرب وحمى طرادهم في مرة
الكنبرة والكرويسيت والبونية تجي بالدارة
والرصاص على العباد يسرسب والخلق طايحين مجزرة

ويطيل الشاعر وصف المعركة التي انجلت أخبارها عن انتصار المسلمين:

ماتوا أصحاب الأصنام وطفت نار حربه
عام عليه الإسلام لعساكره يكيوا

إلى أن يقول:

في البر والبحر منصورة الإسلام كلهم انفقوا
الإسلام زاهية مسرارة دين النبي وقف عن ساقه

وفي هذه الإثناء تتدخل الدول وتعرض الهدنة على روسيا:

ويستمر أمير المؤمنين في تعبئة الجيوش ويواصل الشاعر دعاءه إلى أن يختم هذه القصيدة الطويلة المتكونة من ثلاث وثلاثين مقطعا فيقول:

نقصر حديث وصف أبياتي خفت الوفاة قبل إتمامه
فضل الكريم فعسى يأتي خير التمام بأمر حكامه
هانوا أعمارهم ساداني للذين ناصرين أعلامه

إن هذه القصيدة تعتبر بدورها وثيقة تاريخية، تترجم مدى استغلال الفرنسيين لأبناء الشعب الجزائري، وذلك بإقحامهم في حروب لا ناقة لهم ولا جمل، وتستغلهم إعلاميا لتوطيد احتلالها، ومن جانب آخر نلمس اهتمام المستشرقين – رغم أن مترجم القصيدة جزائري، لتلك المواقف الصادرة عن بعض الشعراء المخدوعين بسياسة الاحتلال أو السذج الذين لم يدركوا حقيقة ما يجري، خدمة للاحتلال، والترويج لمثل هذه النماذج مخادعة للرأي العام.

وفي نفس المعنى ونفس الغاية،ترجمت قصيدة تمثل أسمى معاني الاستغلال،تلك التي كتب أبياتها واحد من المشاركين مع الجيش الفرنسي في معركة مع ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى وهذه القصيدة تحت عنوان: "Nos troupe d'Afrique et l'Allemagne" [1]

لقد ترجم هذه القصيدة المسمى صالح وكانت مقدمتها:

كلام قاله الكبران ثابتي مصطفى ولد قدور بن ثابت من الرجيم الثاني متاع الترايور نومرو 1298 تلقى هذا الكلام وشرحه وترجمته الصرجان الصالح محمد الترجمان في بلدية بوردو في سنة 1915.

افتتح الشاعر قصيدته بوصف الرحلة من الجزائر إلى فرنسا:

النمو في باريز كل ناس دولة رسلوا دبشيات في وهران لمونا

بتنافي المرسى أشحال علينا عشة الغدا وقت الخمسة رانا سافرنا

بابور يغيث القلب منه يرجف مشيه مكلف عاجل غاصبونا

مشى بنا أربعة أوقات يا سادة الخامس من الأوقات على سات رقبنا

وينوه بعد هذا بحسن الاستقبال والترحاب الذي تلقوه من الفرنسيين حين وصولهم.

وصلنا للمسرى أشحال جات نصوصه رجاله ونساء يبايعو فينا

ركبنا في الماشية راهي صدت بنا لا زل خلطنا راهم فرحوا بنا

قالوا هذوا عرب قريش حبيش النعرة نصبوا علموات في كل مدينة

وبعد استراحتهم بمدينة آزال استؤنفت الرحلة نحو جبهة المعركة:

ثمنا ثم ثلث أيام بالتمام الرابع مالأيام تقدموا بنا

وبعد الإنتهاء من وصف الرحلة ووصف سرعة القطار، راح يهجوا الألمان ويهجوا الأتراك الذين ساندوهم في هذه الحرب:

حتى لا لما هما وتروش جابوا نعرة قو وأمن الجيش وحاوا للفتان

قالوا ندخلوا لفرنص في دي المرة وندخلوها ما تبقى شطنة

الترك الغشاش جابه الكافر نعرة وباع إعلامه للعديان هدانا

وعن موقف الفرنسيين ممثلا في خيرالهم حفر يقول:[1]

---

1 - Nos troupe d'Afrique et l'Allemagne Tabté Mostapha Ould Kaddour Caporal au 2° tirailleurs undigenes de marche. نقلا عن المجلة الإفريقية

نطق لهم حفرا فحل رجل أبطل وجبت محالك ياقيوم كرهنا
نمحو لك سيك لا تعود شيء مشيتك أنت وحبابك تصحى لكم عيينه

وبعد أن يبن الموقف الفرنسي من ألمانيا والتأكيد أن الحرب هي حرب ثأر وانتقام لتـــاريخ من الصراع بينهما، ينتقل للحديث عن الجيوش الحليفة لفرنسا:

الأبطال تلموا في نقليز ناس النعرة سدوها في البحر ماتفوت سفينة
الروسي جيش كثيرة عنده قاسي خلق مرصي ما تتعد له قيمة
ليطالى جيش الأبطال جاء من تالى كرجالة ما تقبلوا شيء الهابه
الروسي ونقليز وسرب وليطالى والبلجيك صغير هذوك نعتنا

لقد كانت المعركة شرسة واشتد النزال بين الجيشين

راني نحشم في الصلاح مسا وصباح يارجال الله حتى تغيثونا
في شال لروا أصنت يا صاحبي نحكي لك ما إستنها صيحة يا خاوتي علينا
بالمدفع وكحيل سبيل يا قليل مابين المغرب وعصر كبيرونا
الغدا جددنا الطراد يالسياد على واحد الفلاح وانا تلاقينا

لقد كانت المعركة في بداية الأمر لصالح الألمان حيث ألحقوا بالفرنسيين خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، ولكن انقلب ذلك ضدهم وانهزموا.

كسرناهم بقاوشرا بالأسياد على الأمارا هي دارت الدورة

وبعد التنويه بجيش فرنسا وقوته وشجاعته يرثي أصحابه من قتلى المعركة ، ويدعو بالنصر في ختام القصيدة بالقول :

مصطفى مجرد جراد بالأسياد يلحق ولو كان في صم الحجرة

إن المتأمل المتمعن في القصيدة يدرك أن الشاعر قد اكتوى بنار الحرب، وخاضها بحماســة وشجاعة وصدق، وكان ينظر إليها على أنها حربه المقدسة، دافع فيها عن وطنه وأمتــه،

1 - المرجع السابق ، ص205

لكن في الختام حين لازم فراش المستشفى جريحا، وهدأت نفسه أدرك أن الحرب ليســـت حرب الجزائريين،و حينها أقر أنه غريب وتلك هي بداية الوعي.

قال المسلمون و العرب ، الإستشراق شر كله، وقالوا هو خير كله، و قالوا هو خير وشر، ولكل تحليله و حجته ، ولكنهم أجمعوا على أن العيب في هذه الأمة التي لم تتعظ ، ولم تعتبر رغم كثرة الدروس و اشتداد المحن.
ربما في الإستشراق خير كثير ، إذ يكفيه أنه حفظ تراثنا ، ولكنه كان مسموما ، أما جوانب الشر فبينة ظاهرة، لأنه ارتبط بدوائر الاستعمار وكان يده القوية.

و الإستشراق هو حركة فكرية ثقافية، روادها رجال من الغرب،تزودوا بلغات الشرق فكان علمهم غزيرا، واطلاعهم شاملا وفيرا، خبروا الشرق على تنوع لغاته، واختلاف عقائده، وتباين ثقافاته، وأسسوا مجالا معرفيا وظفوه لأغراض شتى، حكمتها المصالح أطوارا ،وحكمتها الروح العلمية أطوارا آخر، ومن هنا كان محل اهام، فقيل أنه نشأ تلبية لنفسية مريضة تحركها الأحقاد وتغذيها الكراهية لدوافع دينية، كما قيل أنه وقع في حضن السياسة وأصبح أداة للتسلط والاستعمار تحركه أطماع رجال المال والمغامرين، الذين يسعون إلى الثراء والتمكين للمادة على حساب الشرق المستضعف، الغنية أرضه، الفقيرة شعوبه.

والشرق في عرف المستشرقين مختلف عن عرف الجغرافيين، فشرق الجغرافيين المحدد لا يهمهم، إنما موضوعهم الإنسان صاحب الحضارة وإن كان موطنه غربا.

إن إنسان الحضارة العريقة القادرة على التجدد والحياة، القادرة على الاستمرار، المبنية على عوامل الانبعاث والبقاء، هو الأولى بالاهتمام، وهو محل الانشغال ويجب أن يستقطب المستشرقين ويهيمن على عقولهم وأسلحتهم، وبنظرة تأمل بسيطة تحدد ملامح الإنسان المعني، انه المسلم خاصة حيث كان موطنه.

المسلم هو الشرق بعينه في عرف المستشرقين، والإسلام هو سر وجوده وسر بقائه وسر انبعاثه من جديد،والمسلمون وحدهم ولقرون طويلة كانوا في تماس مستمر مع الغرب.

إن الحضارة التي شيد بناءها المسلمون كانت شامخة عزيزة، شموخ صناعها وعزهم، أنارت ظلمات الإنسانية فسارت على هديها قرونا، واقتبست من أنوارها فأضاءت دروبها المظلمة، ورغم ما حل بأهلها من مآسي، ما زالت ذخائرها، وما زالت تنبض بالحياة قادرة على لم شمل أهلها، وإعادة مجدهم الضائع.

ثم إن هذا الشرق المسلم وحده قادر في عقيدة المستشرقين على منافسة الغرب وحضارته،وجدير بتهديد حضارتهم كما يزعم بعضهم، كما أنه جدير بأن يكون بديلا

لها،وهذا الأمر جعلهم ينفرون ثقالا وخفافا للحيلولة دون ما يخافون، لتطمئن نفوسهم،ويهدأ بالهم،ويحققوا ما إليه يطمحون،فيحكمون قبضتهم،ويكون الرأي لهم،وفي مصائره يتحكمون.

وهذا الشرق أيضا جدير بأن يكون مستقطبا للمستشرفين، بعلومه وفكره، بأدبه وفنه، بخزائن كتبه، بعقيدته التي حملت أسرار قوته من قبل ومن بعد، ثم هو جدير باستقطابهم، بجماله وسحره، بانتظام حياته وعناد أهله،وبفوضى أشيائه وهمومه ومصائبه أيضا.

ألم يكن هذا الشرق مهبط الرسالات، وموطن الأنبياء، ألم يكن مرتع الزهاد من كل الأديان، وتحت سمائه تلهى العشاق وأبدع المتيمون، وبين جدران مدائنه تعايش الناس على الحب والمودة، وكانوا جميعا للقيم الإنسانية التي حملتها عقائدهم فقط يحتكمون، ألم يتعايش المسلم في هذا الشرق مع اليهودي والمسيحي، وكانوا جميعا للإنسانية يخدمون؟

ولما تعددت عوامل الاتجاه نحو الشرق،ازداد الاهتمام به، ولما كان الناس ألوانا ومعادن، كذلك كان المستشرقون أشكالا وأصنافا، شكلوا مواقف متباينة، وأراء متناقضة ، فبين العقل والهوى والرشد والغواية والغلو والاعتدال، هوة سحيقة لا قرار لها، هوة حدد معالمها رجل العلم ورجل الدين، السياسي والعسكري، كل حسب موقعه وغايته، وهكذا تشكلت الرؤى عن الشرق، وحسمت المواقف، وكان نتاج هذا كله، أبحاث ودراسات وتحقيقات علمية قيمة، جدير أصحابها بالمدح، وكان من نتائجها أيضا أبحاث ودراسات زائغة، ترجمت حقدا دفينا، وظلما مبينا،ورأيا مستهجنا باهتا حزينا،وهي التي توجب الرد عليها، وكان من نتائجها أيضا دراسات اجتهد أصحابها و لم يقاربوا الحقيقة لأنهم حاكموا حضارة الشرق بمقياس الغرب، وهكذا نستطيع القول أن المستشرفين صنفان: معتدل ومتعصب.

فأما الفريق المعتدل فانشغل صادقا بعلوم المسلمين وآدابهم وثقافتهم متمسكا بمنهج علمي قويم، عماده وغايته تحرى الحقيقة دون سواها .

وأما الفريق المتعصب فكان شغله الأول عقيدة المسلمين حيث قصد هدم أسوارها العتيدة .

ولأن الجزائر عضو في جسد هذه الأمة نالها من أحقادهم ما نال الأمة جمعاء، فلا فرق بين المسلمين حيثما كان مكانهم وزمانهم،ثم بعد.

أوليس تناول الإسلام في كتابات المستشرقين يشمل الجزائر أيضا؟، أوليس الحديث عن المسلمين يشمل الجزائريين؟أ وليس الحديث عن الحضارة الإسلامية وتاريخها حديث عن الإنسان الجزائري وحضارته وتاريخه؟.

لقد كان للمستشرقين الفرنسيين دور بارز وفعال قبل احتلال الجزائر وأثناء فترة الاحـــتلال ، وكانت لهم أعمالهم وأفكارهم التي جسدت مواقفهم ،وجسدت في الوقت ذاته مواقف حركة الإستشراق ورجاله ،هذه الحركة التي كانت ولا تزال كتابا مفتوحا، نسجت فصوله أحـــداث التاريخ، ورسمت خطوط صفحاته علاقات الشرق بالغرب في مدها وجزرها، وزخرفت متونه فسيفساء الشرق منتظمة أحيانا وفي غير انتظام في أحيان كثيرة ،وتشكل جوهره مـــن عقيـــدة الشرق، تاريخه، ثقافته، لغته، وكل ماله علاقة بإنسانه ، عالمه وجاهله، حاكمه ومحكومه.

إن الجزائر إنسان وحضارة، كانت من قبل ومن بعد محل اهتمام المستشرفين الغـــربيين عامـــة، الإستشراق الفرنسي خاصة، وازداد اهتمام المستشرقين الفرنسيين بها ونالت قســـطا وافـــرا في كتاباتهم قبل الاحتلال وأثناءه.

فقُبيل الاحتلال استعان ساسة فرنسا بالمستشرقين وبكتاباتهم حول الجزائر بغية الإطلاع علـــى أوضاعها، ووضع الخطط الكفيلة باحتلالها، ورسم إستراتيجيتهم لإخضاعها واستعادة ما ضيعته الكنيسة أمام الفتح الإسلامي وإلى الأبد.

ألم يكن البيان الموجه إلى الشعب الجزائري عشية الاحتلال وبلغته كما يزعم المحتل واشـــتمال الجيش الفرنسي على كثير من المستشرقين المترجمين دليلا على هذا الاهتمام؟ أوليس اســـتيلاء المحتل على كل ما اشتملت عليه المكتبات الجزائرية وما سطا عليه من محظوظات ووثائق دلـــيلا على هذا الاهتمام من قبل الاحتلال؟.

ولأجل هذا الطموح وإشباعا لهذه النزوة الجامحة المتعطشة للسيطرة،هجر الشعب الجزائـــري إلى الجبال والصحاري وخارج الوطن،ورغب الفرنسيين خاصة والغـــربيين عامـــة في الهجـــرة إلى الفردوس المفقود والحلم الذي لا يعود ،إلى الجزائر،بدلا من الهجرة إلى أوروبا،كما دعم إدارته في الجزائر بترسانة من القوانين الجائرة على حقوق الجزائريين الميسرة للتوطين،الممكنة لهم مـــن إقامة حياة جديدة ما حلموا بها في أوطانهم،وباسم هذا كله ارتكبت الجريمة،فاغتصبت الأرض، وهتك العرض،والمستشرقون شهود.

هم شهود وشركاء، شهود حين صمتوا وحين برروا الجريمة، وشركاء حين صمتوا واعتـــبروا الاحتلال نعمة، وادعوا كذبا أن فرنسا جلبت للجزائر المدنية والحضارة وأنها تسعى لإخراجها من التخلف وحياة البداوة التي يعيشها أهلها.

وهم شركاء، لأن الطبقة الأولى منهم كان من العسكريين، يحمل البندقية بيد ليبيد الإنسان،ويفترس المكان ،ويحمل باليد الأخرى قلما يبيد به العقل والقلب،ويناطح حضارة أمة ممتدة جذورها في الزمان.

وهم شهود وشركاء بعد أن استتب الأمر للمحتل وتمكن من أمر الجزائر وأصبح المستشرقون من أهل العلم والبحث أكاديميين،وماذا يقال عن عالم مسخر للجريمة والتستر عنها؟

هكذا تعاون المستشرقون جميعهم لفرنسة الجزائر،كل حسب زمانه،وكل حسب مهمته وقدراته وطبيعة معارفه وحنكته.

وعلى سبيل المثال ــ حسب سعد الله أبوالقاسم ــ أكثر المستشرق باصيه ووارنيه وطوكفيل من المن على الجزائريين بما أسبل عليهم المحتل من النعم،والحقيقة انه لم يقدم لهم إلا الماسي والخراب.

فالمستشرق وارنيه يرى انه من الغنائم التي غنمها الجزائريون في ظل الاحتلال منحهم الجنسية الفرنسية دون مطالبتهم بالالتزام بالقوانين الفرنسية،كما يرى أن المحتل يحترم الإسلام،ولم يبين لنا الغايات الحقيقية من حق التجنس،أحبا في الجزائريين؟أم خدمة للاحتلال ؟كما لم يبين لنا سبل احترام الإسلام ؟بمحاربته والسعي لتنصير الجزائريين؟أم بهدم المساجد وتحويلها إلى إسطبلات وثكنات وكنائس في أحسن الأحوال؟.

ومن فضائل فرنسا أيضا حسبه أن عدل حكام فرنسا ارحم من حكام الجزائر،ولا ندري في أي شريعة كان الاحتلال عدلا؟

أما لافيجري ولويس فينيون فكانا من الداعين إلى إحكام القبضة على الجزائريين بسياط الحديد والنار،ذلك لأنهم منكرون للمعروف مثيرون للشغب لا يرضون بالمحتل .

وعلى هذا المنهج سار البقية،يفرقون ليسودوا،وينتقون موضوعاتهم انتقاء متلمسين معاول الهدم والتفرقة خدمة لمصالح فرنسا العليا.

إن وقائع التاريخ تشهد أن فرنسا قد أعدت عدتها لاحتلال الأرض عسكريا،والمستشرقون كانوا بدورهم على استعداد لتنفيذ مهمتهم والقيام بدورهم، وكانت طريقتهم في التعامل مع واقع الجزائر الحضاري مخططا لها سابقا، وقد نفذوا هذا المخطط عبر مجموعة من المراحل حسب الحاجة.

أما المرحلة الأولى فكانت مهمتهم عسكرية أكثر منها ثقافية، حيث تمركزت حول تذليل العقبات أمام المحتل لتوسع جيشه، ويضع بسهولة يده على كل شبر من أرض الجزائر، كما كانت مهمتهم تتمثل في كونهم كانوا همزة وصل وأداة للتواصل بين المحتل والشعب الجزائري، فكان أكثرهم عسكريين مترجمين، جمعوا كل ما يقع تحت أيديهم من كتب ومخطوطات ووثائق، وكل ماله صلة بحياة الجزائريين، وهويتهم، وهكذا نستطيع القول أن مهمة المستشرقين الفرنسيين في المرحلة الأولى، حضرت في الاستكشاف والترجمة والجمع.

أما في المرحلة الثانية فاهتموا بعد أن تمكن الاحتلال من السيطرة على الأرض باللغة وتعليمها، تعليم العربية للفرنسيين، والفرنسية لبعض الجزائريين، بعد محاولة تجفيف منابع شخصيتهم بالسعي للقضاء على الإسلام واللغة العربية، وهذا بغلق المساجد وطرد العلماء ومحاربة كل ماله علاقة بالعقيدة واللغة، ولذلك أنشأ معاهد وجامعات اهتمت بجوانب مختلفة وعلى رأسها اللغة العربية الجزائرية كما يسمونها وهذا لتكون بديلا للعربية الفصحى، كما اهتموا باللهجات الجزائرية وشجعوها، وكان من أبرز المعاهد مدرسة الآداب بالجزائر العاصمة التي إليها يرجع الفضل في تكوين فريق من المستشرقين شكلوا أهم عناصر المرحلة الثالثة.

وفي المرحلة الثالثة انطلقت الدراسات والبحوث الأكاديمية، وراح المستشرقون يجوبون أرض الجزائر، يكتشفون مآثرها، ويدرسون أحوالها، فكانت التراجم، وكانت البحوث،

وأنشئت الجمعيات المتخصصة في كل مجالات الحياة، وكان تركيزهم على التراث الشعبي الجزائري.

لقد حاول الاحتلال تنصير الشعب الجزائري وكان للمستشرقين دور في هذا المجال بارز كما سعوا إلى القضاء على اللغة العربية وكانت وسائلهم في ذلك متنوعة.

وإذا عدنا إلى تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، وجدنا أن هذا الاحتلال لم يقتصر على الجانب العسكري، و لم يكن هدفه احتلال الأرض وسلب خيراتها فحسب، بل نجد أن هذا الاحتلال جند كل الفئات لخدمة هذا الغرض، جند العسكري والمدني، العالم والإعلامي، الفنان والصحفي ،كما جند الرأي العام الفرنسي والغربي ،وغايته في ذلك فرنسة الجزائر والقضاء على هوية الشعب الجزائري، والمستشرقون من أهم فئات رجال الفكر القادرين على خدمة سياسته ولذا كانت مساعيهم وجهودهم كلها خدمة للمصالح العليا لفرنسا ومن مصالحهم العليا احتلال الجزائر وفرنستها.

لقد تفرق هؤلاء في كل أرجاء الجزائر، وعايشوا الشعب الجزائري في مدنه وأريافه وصحاريه، عايشوا العامة والخاصة، عايشوا عاداته وتقاليده، أفراحه وأحزانه، مجالس ثقافته ومجالس سمره، وهذا للتقرب من أفكاره،وصبر أغواره، وتحديد موقفه من المحتمل، وتحديد طرق السيطرة عليه.
لا عجب والأمر هكذا أن يهتم بتراثه، فيجمع ويترجم كل ما يقع تحت يديه من أشعار وقصص شعبية، وتحف وفنون تقليدية، وأن يقف على أثار الجزائريين واصفا مواطن الجمال حينا ومسفها مبدعيه حينا آخر، وكان في كل هذا ينتقي موضوعاته انتقاء خدمة للاحتلال من العملاء خاصة، الذين كانوا يدعون خدمتهم للتراث الجزائري ويتناسون الاحتلال ومآسي الجزائريين.

ارتبط الإستشراق الفرنسي بالجزائر بالاستعمار قبل احتلال الجزائر و أثناء الاحتلال ، ولم يتوقف إلى يومنا .
فقبل الاحتلال مهد للغزو ، وعلى ضوء درسته اهتدى المحتل لوضع خططه وتحريظاته على الإسلام و المسلمين اشتد حماسه ، فنصرة المسيحية واسترجاع أمجادها تستحق المغامرة وتستحق الجهد و التضحية ، في عقيدتهم المشبعة بترسبات الماضي الذي تحكمه أثار الفتوحات الإسلامية في نفوسهم.
وأثناء الاحتلال لم يتوانى المستشرقون الفرنسيون ومن رافقهم من المترجمين العرب الذين خرجا من ديارهم مع نبوليون بونابارت حين عودته من مصر- يد المساعدة ، إذ هرع جميعهم مجندين يترصدون وضع الشعب الجزائري و يصلونه بالمحتل و العساكر ، وانبثوا في ربوع الجزائر يستطلعون الوضع و يجمعون ذخائر الأمة من مخطوطات و وثائق التي تحفظ كيانه وتثبت هويتها و ترسخ ارتباطها بالأرض، و لم تسلم من هذا النهب المنظم أبسط الإبداعات مما جادت به قريحة الجزائريين ، من صناعات تقليدية.
وبعد أن بسط المحتل نفوذه و تمكن من الشعب ، ولم يبق أمامه إلا تلك الثورات التي تؤرق وجوده ، أوكل المهمة للمستشرقين الذين اجتهدوا لقمع الثورات ، و جمعوا ما يقال عنها بين العامة سبر للرأي ، وتحديدا للموقف ، وإثارة للغرفة بما يكتبوه ، وبما أوصوا به إدارتهم .
و انطلقت بعد هذه المرحلة الدراسات الممهدة للفرنسة الجزائر أرضا و شعبا . تيقن المحتل بتجرئه و خبرته ، و برأي مستشرقيه أن خير وسيلة لفرنسة الجزائر هو التعليم والتجهيل ، تعليم الفرنسية لفئة محدودة جدا من أبناء الجزائر ، و تجهيل البقية ، وتعليم العربية للفرنسيين ليتمكنوا من التواصل مع الجزائريين ، لا بنية التواصل،إنما بنية التقرب منهم أكثر للانقضاض عليهم و اتقاء شرهم ، وهكذا أسست الجامعات و أنشأت المعاهد و المدارس ، وفي

ظلها انتهكت حقوق الأمة و تحت أجنحتها حورب الإسلام و حوربن اللغة العربية.
و بتطور هذه المعاهد وأتساعها ازدهرت بحوث المستشرقين ، فكانت فترتهم الذهبية في الجزائر ، وانكب هؤلاء على الموروث الحضاري للأمة ، و تساوى الاهتمام الخاص من هذا التراث العام ، تساوى ما كان بلسان عربي فصيح وما كان بلسان العامة.
أثناء هذه المسيرة ، كان المستشرقون يمزجون بحوثهم بسمومهم ، فيتقنون من الموضوعات ما يقوى الفرقة بين الجزائريين ، ووجدوا ضالتهم في اللهجات ، فاهتموا بها و شجعوا ، واهتموا بالتراث الشعبي ، و بمساعدة بعض الجزائريين جمعوا هذا التراث و ترجموه و أولوه ودائما لخدمة أغراض استعمارية في أغلب الأحوال.
و حين قامت الثورة و قرر المحتل الخروج ، عاد المحتل و معه المستشرقون ، بذخائر الجزائر إلى فرنسا ، وكانت الحمولة مجموعة من البواخر نقلت تراث الشعب الجزائري.
لاشك أن المستشرقين الفرنسيين حفظوا ميراث الشعب الجزائري من الضياع، وهذه ميزة محمودة قد تكون لصالحهم رغم ما تحمله في ثناياها من السموم ، ولكن مالا يغتفر لهم – إلا قلة- هو خدمتهم للاحتلال وهم النخبة و الصفوة ، وما يذكر لهم أيضا جدهم و إخلاصهم، وعلمهم الغزير.
وإذا كان لنا أن نعتبر ، فلنأخذ ما حسن منهم ، التفاني في خدمة أمتنا و النهوض بها ، والاستماتة في الدفاع عنها وعن شخصيتها وتميزها ، ونحن في ذلك على حق، وكانوا هم على باطل.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

2- ادوارد، سعيد ، الإستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط 4، 1995.

3- تعقيبات على الإستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1996.

4- الأندلسي ،أبو حيان ، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد، منشورات دار الكتاب، ج8، لبنان، 2001.

5- بارث ،رودي ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة، مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967.

6- إبراهيم ، نبيلة ، البطولة في القصص الشعبي، دار المعارف، القاهرة، 1977.

7- بن براهيم، الطيب، الإستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، مكتبة رحاب الجزائر، 2001.

8- بورايو، عبد الحميد، البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفهي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1998.

9- القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1968.

10- الأدب الشعبي الجزائري ، دار القصبة ، الجزائر ،2007.

11-البهي ،محمد ، المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام، الفكر العربي،بيروت ، لبنان، ط6 ،1973 .

12-الجابري ،محمد عابد ، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 1990.

13-الجرجاني، علي بن عبد العزيز، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط 1978.

14-الجوزو، مصطفى ، من الأساطير العربية والخرافات، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1980.

15-حسين ، عقيلة ، المرأة المسلمة والفكر الإستشراقي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 2004.

16-حلوش ،عبد القادر ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1999.

17-حنفي ،حسن ، هموم الفكر الوطني، دار قباء، القاهرة، ط2، 1998.

18-خرفي ، صالح ، شعر المقاومة الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، دون تاريخ.

19-ابن خلدون،عبد الرحمان، تاريخ العلامة، ج 5، دار الكتاب، بيروت، لبنان، 1981

20-دحو، العربي، الشعر ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ج1 ، 1989 .

21-ذهني ، محمود، الأدب الشعبي العربي، مفهومه ومضمونه، دار الأدب العربي للطباعة مصر، 1972 .

22-رابح ، تركي ، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970.

23- الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط 3، 1981.

24-ركيبي، عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث ، ش.و.ن.ت،الجزائر،1981 .

25-زقزوق ، محمد حمدي ، الاستشراق والخلقية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1404هـ.

26-زوزو، عبد الحميد، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1900/1830) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1970.

27-الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق على شبري، دار الفكر، د.ط، ج 13، 1994.

28-الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

29-زيغور ، علي ، علم البطولة في الذات العربية، غرضه ومناهجه، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، ع 10، 1981.

30-ساسي ،سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، الجامعة المفتوحة طرابلس، د.ط، ح3، 1977.
31-سعد الله ، أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2،ج4، ج6، ج8، دار الغرب الإسلامي الجزائر.
32- شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
33- الحركة الوطنية الجزائرية، ج2 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 198،3.
34-اسمايلوفيتش ،أحمد ، فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، 1979.
35-ستروس ،كلود ليفي ،وفلاديمير برون، مساجله بصدد علم تشكيل الحكاية، دار قرطبة للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1988.
36-شاتليه ،آ ل ، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة، محي الدين الخطيب وساعد الباقي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
37-شرف ،عبد العزيز ، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1971.
38-ابن الشيخ ،التلي ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
39-صالح ،سعد الدين السيد ، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مكتبة رحاب، الوكالة الوطنية، للنشر والإشهار، الجزائر، د.ط، 1990.
40-عباد ، شكري محمد ، البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، 1971.
41-عاشور ، سعيد عبد الفتاح ،المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، النهضة المصرية، مصر، د.ط، 1963.
42-العربي ، إسماعيل ،الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986
43-عوض ،صالح ، حركة الإسلام والصليبية في الجزائر، الزيتونة للإعلام والنشر، 1989.
44-بن عبد الكريم ، محمد الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها، الشهاب الجزائري.

45-العقيقي ،نجيب ، المستشرقون، دار المعارف، بيروت، ط 4، ج3
46-الغزالي ، محمد ، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار السلام للنشر والتوزيع، ط 5.
47-عمر، فروخ ،ومصطفى خالدي، التبشير والإستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط5 ، 1973.
48-فروح ،عمر ومصطفى خالدي، التبشير والإستعمار في البلاد العربية المكثية العصرية، بيروت، لبنان، ط 5، 1973.
49-المرزوقي ، محمد ، الشعر الشعبي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967.
50-المرزوقي ، الصادق ، الأغاني التونسية ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1967 .
51-مينة ،حنا ،ونجاح عطار، أدب الحرب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، دون تاريخ.
52-المحاسني، زكي ، شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف، مصر، 1961.
53-ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
54-بن نبي ،مالك ، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد بيروت، 1969.
55-لطفي ،عيسى ،أخبار المناقب، دار شيراس للنشر، تونس، 1993.
56-هوروفيتس ، يوسف ، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1949.
57-الواقدي ،محمد ، فتوح إفريقية، نشر التجاني المحمدي، مطبعة المنار، تونس، 1966.
58-وعزيز ،الطاهر ، بشرية كلود ليفي ستروس، دار الكلام، الدار البيضاء، المغرب، 1990.
59-يلس ،جلول ،والحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعر المحلون، ش.و.ن.ت الجزائر 1975
60-يونس ،عبد الحميد ، الظاهر بيبرس في القصص الشعبي، دار القلم، القاهرة، د ط، 1968.

المجلات والدوريات

1- تركي ،رابح، أضواء على سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر، المستقبل العربي، العدد 57، تشرين الثاني 1983.

2- الجندي ،أنور ، الفكر الإسلامي مقدمات العلوم والمناهج، القاهرة، ط1، 1979.
3- حميش ،بن سالم ، الفرانكفربية والفرنسية، المستقبل العربي، العدد 255 أيار 2000.
4- بسايح ،بوعلام ، الثقافة الإفريقية، طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة العدد 96، ديسمبر 1986.
5- حلوش، عبد القادر ، الكولون الفرنسيون والتعليم الفلاحي في الجزائر مجلة عصور، العدد 2، ديسمبر 2002.
6- اصطيف ،عبد اللطيف ، مقدمات في الإستغراب الجديد، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجمع 57، 1982.
7- الفاسي ،علال ، نشاط المبشرين ودورة الاستعمار، محاضرة في ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، 1973.
8- أبو ليوس، لوكيوس ، الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات دار الاختلاف، الجزائر 2001.
9- الفاسي ،محمد ، شعر الملحون في الأدب المغربي، مجلة مجمع اللغة العربية، ج 56، ماي 1985
10- هيكل ،محمد حسين ، الفرانكفونية وأخواتها، مجلة الكتب وجهات نظر العدد 28 أيار 2001.
11- الموسوعة العالمية، مؤسسة أمال للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 2، ج1، 1999.
12-

المراجع باللغة الفرنسية

1. A cour, constantine en 1802 d'apres une chanson populaire du cheikh Belgacem Er-rahmouni El-Haddad, R.A N° 60/1919/ O.P.U Algérie

2. A. Vaissiere, les Ouled Rechaich, R.A N° 36/1892, O.P.U Algérie.

3. Alexandre Jolly, remarque sur la poésie moderne chez les nomades Algériennes, R.A N° 44/1900 Algerie.

4. George Marcais, l'exposition d'art musilman, R.A N°49/1905, O.P.U, Algérie.

5. J. Desparmet, les chansons de geste de 1830 à 1914 dans la Mitija, R.A N°16. 1939 O.P.U. Algérie.

6. M. Ben Cheneb, la guerre de crimée et les Algeriens, R.A, N° 51/1907, O.P.U Algérie.

7. Rene Basset, la legende de bent El-Khass, R.A N° 49/1905, O.P.U Algérie.

8. Soualah, Nos troupe d'afrique et l'Allemagne, R.A N° 60/1919, O.P.U Algérie.

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول : الإستشراق

تمهيد 4
مفهوم الاستشراق 5
المكـان 11
الزمـان 13
أسباب ظهور الإستشراق وعوامل تطوره 15
أهداف الاستشراف ووسائله 20
تحصين الذات وحماية المقدسات 20
الحرص على إضعاف المسلمين 21
تنصيـر المسلميـن 21
خدمة الاستعمار بكل أشكاله 23
خدمة مشروع الصهيونية 24
مواقف العرب والمسلمين من الإستشراق 26

الفصل الثاني: الإستشراق الفرنسي في الجزائر

الإستشراق الفرنسي 31
بدايـة الإستشـراق الفـرنسي 31
مراحل الاستشراق الفرنسي في الجزائر 35
المرحلة الأولى 35
المستشرقون وتعلم اللغة العربية 35
مدرسة الآداب 36
إنشاء المعاهد الجامعية المتخصصة 38
إنشاء اللجان العلمية 38
تشكيل البعثات العلمية 39
مترجمو الحملة الفرنسية على الجزائر 41
المترجمون من أصول عربية 41
المترجمون من أصول جزائرية 43
المترجمون من أصول أوربية 44
المترجمون الفرنسيون 44

الفصل الثالث : مقومات التراث الشعبي الجزائري وموقف المستشرقين الفرنسيين منها

مفهوم التراث الشعبـي 48
المستشرقون الفرنسيون ومقومات التراث الشعبي في الجزائر 62
الإستشراق والتنصير 64
بداية التنصير أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر 69
الإستشراق الفرنسي واللغة العربية في الجزائر 74

محاربة تعليم اللغة العربية 74
أهداف الاحتلال الفرنسي من سياسته التعليمية في الجزائر 79
-1الإدمـاج 79
- 2إدعاء نشر الحضارة 81
الفصل الرابع : الإستشراق الفرنسي و القصة الشعبية في الجزائر
القصة الشعبية في الجزائر 83
بداية الاهتمام بالقصة الشعبية في الجزائر 84
أشكال القصة الشعبية في الجزائر 87
قصص البطولة 87
أصناف الأدب البطولي في الجزائر 88
المغازي 88
خصائص أدب المغازي 92
موضوعات أدب المغازي 93
وحدة الموضوع 93
البطولة و تداخل العوالم 93
الشخصيات 94
ارتباط المغازي بواقع المسلمين 95
قصص البطولة البدوية 98
الكرامة اصطلاحا 100
ظهور قصص الأولياء الكرامة في الجزائر 102
قصة" سيدي عبد القادر و العجوز" 102
الحكاية الخرافية 104
الأسطورة 105
من الأساطير الجزائرية القديمة 106
الإستشراق الفرنسي والقصة الشعبية في الجزائر نمـــاذج 108
الفصل الخامس:الإستشراق الفرنسي والشعر الشعبي في الجزائر
الشعر الشعبي اصطلاحا 120
الاحتمال الأول 124
الاحتمال الثاني 125
الهجرة الهلالية 125
الهجرة الأندلسية 125
بدايات الاهتمام بالشعر الشعبي في الجزائر 126
أغراض الشعر الشعبي في الجزائر 128
شعر المقاومة و الجهاد و عوامل ازدهاره بعد احتلال الجزائر 129
عوامل ظهور شعر المقاومة و الجهاد في الشعر الشعبي و ازدهاره 130
الاحتلال الفرنسي 130
المدارس و الزوايا 131

العودة إلى الأدب الشعبي 132
شعر الحماسة في الجهاد والمقاومة الشعبية 134
الشعر الشعبي و تاريخ الجزائر 134
الإقليمية في الشعر الشعبي الجزائري 134
الثورات الشعبية في الشعر الشعبي الجزائري 135
الاستشراق الفرنسي و الشعر الشعبي في الجزائر 139
الخاتمة 156
قائمة المصادر والمراجع 164